سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس في
التربية الأخلاقية





دروس في التربية الأخلاقية

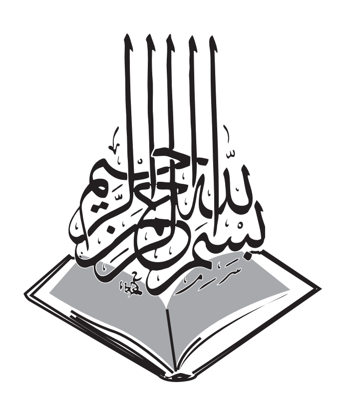
اسم الكتاب:	دروس في التربية الأخلاقية
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2014م - 1435هـ

سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس
في التربية الأخلاقية

إعداد

مركز نون للتأليف والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس



المقدّمة

يعيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهو أشبه بمسافرٍ يجول الأمصار، تتقاذفه مشاغل الدنيا وهمومها وتأخذ به من كلّ حدبٍ وصوب، حتى إذا تكاثرت عليه وأحاطت به هواجسها، وقف متحيّراً في أمره، عاجزاً عن إكمال مسيرة دربه الذي رسمه لنفسه، ظناً منه أنها الحُلم الذي لطالما راوده، والنعيم الذي لطالما سعى إليه.

ولكن سرعان ما يكتشف أنّه لم يصل بعد إلى السعادة المنشودة والراحة المطلوبة، التي لطالما أوْهَمَ نفسه بأنّه يسلك دربها الصحيح الذي سيُفضي به قريباً إلى بلوغ المنى. فيمضي وتمضي الأيامُ والأشهرُ والسنينُ وهذا المنال لم يتحقّق بعد!... وكيف له أنْ يتحقَّقَ في دنياً هو بكلِّ وجوده راحلٌ عنها وتاركها لا محالة، كما فعل أسلافه من قبله! كيف له أن يضعَ آماله وأمانيه وأحلامه في دنيا متصرِّمَةٍ وفانية!...

فالخطأ كلُّ الخطأ يكمن إذاً في أمرٍ أساسي وجوهريّ، وهو في تشخيص المقصد والهدف النهائيّ الذي خُلقَ الإنسان من أجله.

فالإنسان لم يخلق عبثاً ولا لغواً، وكيف ذلك وهو الذي ناداه خالق الأكوان ووصفه بالخليفة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. وهل يصح أن

(1) سورة البقرة، الآية 30.

يكون خليفة الله في الأرض، وجوده بلا طائلا ولا معنى؟! وهو القائل في كتابه الكريم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.[1]

إنــه إذاً الرجوع إلى الله تعالى الــذي لا مفرّ منه ولا مهرب. هو العود والإياب إليه عزّ اسمه ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾[2]. ولكنه رجوع تارة إلى جنة لقاء الله، ونعيمه السرمدي، وأخرى إلى جهنّم البعد والفراق، وعذاب السعير.

والنبيــه الفطن وحده الذي يعي مكمن الخيــر وكماله الدائم دون تردّد ولا تباطأ، ويعلم علم اليقين أن المنتهى شاء أم أبى إليه وحده ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[3]، فيشحد همّتــه موجّهــاً وجهته نحو المقصــد الأسمى والهــدف الأعلى، نحو كمــال الإنسانية والغاية الحقيقية لوجوده. نحو الباري والخالق والمصوّر ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[4]، نحو الإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره.

وهــذا الكتاب هو محاولة للإطلالة المعرفية والعلمية على كمال الإنسان والهدف من وجوده في هذه الحياة، وكيفية الوصول إلى هذا الكمال الإنساني.

ولأنّ العوائــق والموانع هي سمــة الحياة الدنيا لذا كان لا بد من التعرّف على أهم الموانع والعوائق التي تحول دون طي الإنسان لمدارج الكمال الإنساني بيسر وسهولة. ومن ثم التعرّف إلى أهم الوظائف الشرعية التي تعين الإنسان وتساعده للوصول إلى الهدف النهائي، إلى السعادة الإنسانية الحقيقيَّة، والراحة السرمدية.



(1) سورة المؤمنون، الآية 115.
(2) سورة الغاشية، الآية 25.
(3) سورة النجم، الآية 42.
(4) سورة الأعلى، الآية 3-2.



الدرس الأوّل

الغاية من خلق الإنسـان



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يستـدلّ أنّ الحكمة الإلهيّـة تقتضي وجود هدف مـن أجله خُلق الإنسان في هذه الحياة.

2- يبـيّن أنّ الهـدف لا بدّ أن يكون منسجماً مع فطرة اللّه التي فطر الناس عليها.

3- يشرح ماهية الهدف الواقعيّ الذي خلقه اللّه تعالى من أجله.

الحكمة الإلهيّة وغاية الإنسان

إنّ البحث عن الغاية التي خلقنا الله لأجلها يُعتبر من أكثر الأبحاث والمعارف أهميةً وأعظمها تأثيراً في سلوك الإنسان، ونظرته للعالم. وتنبع أهميّته من جوانب عديدة، لعلّ أحدها أنّه سؤالٌ يبحث عن جوابه جميع الناس أينما كانوا؛ ويندر أن نجد إنساناً يأمل بالحياة، ولم يجعل لنفسه هدفاً يسعى لبلوغه في جميع حركاته ومشاريعه. وغالباً ما تكون الأهداف التي يصبو إليها الناس دافعاً أساسياً لجميع أنشطتهم وأفعالهم. ولو فقد المخلوق روح الهدف والغائيّة، لانعدم فيه الأمل بالبقاء وخبت بهجة الحياة في عينيه، ولكان الموت عنده أفضل من العيش في هذه الدنيا.

وفي المقابل من آمن بحكمة الله وقدرته اللامتناهية، فإنّه يعلم يقيناً أنّ من شأن البارئ الحكيم إذا خلق شيئاً مهما كان أن يجعل له هدفاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]. فالحكمة العظيمة في أفعال الربّ تعني ضرورة وجود هدف وغاية لوجود الإنسان في هذه الحياة.

(1) سورة آل عمران، الآية: 191.

(2) سورة طه، الآية: 50.

وتُطرح في هذا المجال مسألةٌ مهمّة جديرة بالانتباه والتدقيق، وهي أنّ ما نبحث عنه في الأصل يتعلّق بالغاية التي يريدها الله لنا، الغاية التي خلقنا من أجل الوصول إليها، الغاية التي سنحاسب على أساسها، وليس بحثنا عن الغايات المختلفة التي يضعها الناس لأنفسهم.

إنّ جميع البشر لا يمكن أن يعيشوا بدون غاية ما، مهما كانت وضيعةً أو سخيفة. فهذا يريد المنصب الفلانيّ، ولأجله يفعل أيّ شيءٍ؛ وقد يبذل كلّ غالٍ ورخيص ويضحّي في سبيله بآلاف الأشخاص. وآخر يرى غايته القصوى وسعادته النهائيّة في راحة البال والاستقرار أو في كثرة الأموال والأولاد، وهكذا... ونشوء الغايات المختلفة يرجع بالدرجة الأولى إلى تلك القيم السائدة التي يتبنّاها المجتمع، والتي قد تكون في مجتمع ما عبارةً عن غلبة قيم الانحلال الأخلاقيّ والثقافة المادية وتمجيد اللذة، وفي مجتمعٍ آخر قيم الحياة الآخرة وثقافة الشهادة. إنّ جوهر القضية يكمن في معرفة الغايةً التي خلقنا الله لأجل الوصول إليها، لأنّها سرّ وجودنا على الأرض.

الطريق لمعرفة الغاية

الغاية التي نتحدّث عنها هي غاية الإنسان التي خلق من أجل الوصول إليها، بمعنى آخر هي غاية النفس الإنسانيّة، وعليه إذا أردنا أن نتعرّف إلى هذه الغاية علينا أن ننطلق من معرفة هذه النفس الإنسانية، لأنّه كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[1]. فالسير والتأمل العقليّ في حقيقة النفس الإنسانيّة وتركيبتها يهدينا إلى معرفة الغاية التي خلقنا الله لأجلها. فالله سبحانه قد كتب في أعماق كلّ مخلوقٍ كلمات الحقيقة، وليس على الإنسان إلَّا أن يفتح كتاب خلقته ويطالع صفحاته لكي يصل إلى مطلوبه.

(1) العلّامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج2، ص32، الناشر مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1983م، الطبعة 2، باب استعمال العلم والإخلاص في طلبه، ح 22.

وكتاب الخلقة هذا ليس سوى «الفطرة الإلهية» التي هي عبارة عن لمسات يد الخالق الحاكية عن أسرار الوجود الإنسانيّ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1].

فالهدف النهائيّ للإنسان لا يمكن أن يكون مكتوباً إلّا على الصفحات الصافية من كتاب النفس، هذه الصفحات التي كتبها الربّ الحكيم الذي ليس لحكمته حدٌّ محدود ولا يشوب ذاته أيّ عجز أو جهل. وهذه الصفحات الصافية هي الفطرة الإنسانية التي أودعها الخالق عزّ وجلّ في جميع الناس ولا تبديل لخلق الله. ومثلما أن من يودّ مطالعة الكتب الورقية يحتاج إلى عين باصرة، فإنّ من أراد قراءة كتاب الخلقة الأبيض يحتاج إلى عقلٍ سليم. وهو أداة المعرفةً الأولى، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**يا علي، إذا تقرّب العباد إلى خالقهم بالبرّ فتقرّب إليه بالعقل تسبقهم**»[2].

فالتفكّر العقليّ بحقيقة النّفس وتوجّهاتها، وبالفطرة الإنسانيّة من المفترض أن يوصلنا إلى معرفة الهدف والغاية من وجودنا في هذا العالم.

الفطرة الإنسانيّة وميزاتها

الفطرة هي أصل الخلقة والهيئة التي خلق عليها الإنسان، والصبغة التي صبغه الله بها منذ أن أوجده في هذا العالم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾، ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [3]. وللفطرة الإنسانية ميزاتٌ عديدةٌ ومتنوعة يمكن أن نلخّصها بالتالي:

أوّلاً: الفطرة مشتركة بين جميع الناس على مرّ العصور واختلاف الأمكنة، وهي لا تتأثّر ولا تتبدّل رغم كل الاختلافات والتناقضات في العادات والتقاليد

(1) سورة الروم، الآية: 30.

(2) علي الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص 440، تحقيق مهدي هوشمند، نشر وطباعة دار الحديث، 1418هـ، الطبعة 1، الفصل الثاني في صفة العقل، ح 1476.

(3) سورة البقرة، الآية: 138.

والمناخات والجغرافيا، والأنظمة السياسية والفكرية، والتيارات الثقافية، والمذاهب الدينية.

ثانياً: أنّها ليست أموراً مكتسبة، بل هي ميولٌ ورغبات مغروسة في أعماق الإنسان، وموجودةٌ معه منذ أن وجد في هذا العالم.

ثالثاً: أنّ الفطرة لا تعرف حدّاً أبداً، فرغبات الفطرة الإنسانية لا تقف عند حدّ بل تطلب دائماً ما هو أفضل وأكمل، وهي في حالة طلبٍ دائم، وميولها لا تعرف الشبع أبداً.

ما هي الغاية من خلق الإنسان؟

إن التفكّر العقليّ، في أصل الخلقة، أي في الفطرة الإنسانيّة من المفترض أن يقودنا إلى الغاية الحقيقية، لأنّها كما ذكرنا رسالة اللّه إلى كلّ إنسان والنداء الإلهيّ الذي ينبعث من أعماقه، فعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**يا هشام: إنّ لله على الناس حجّتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمَة** عليهم السلام**، وأما البّاطنة فالعقول**»[1]. فعندما نتبع وجهة هذه الميول بواسطة العقل سننتهي إلى الغاية، لأنّ اللّه تعالى لا يعقل أن يجعل فينا ميولاً وتوجهات نحو أشياء لا ينبغي أن نسعى نحوها، إنّ مثل هذا الظن تَوَهُّم فاسد، واتِّهامٌ للخالق سبحانه، لأنّ الحكيم المتعال لا يترك أيّ عمل فيه حكمة ومن ورائه حكمة، وحكمته المطلقة تعني لزوم صدور جميع الأفعال الحكيمة عنه، والحكمة تعني أن فعل الحكيم ينبغي أن يتَّصف بالغائيّة والهدفيّة، وأن يكون الهدف من فعله جليلاً وسامياً. إذن وجود الميول الفطرية فينا دليلٌ قويّ على وجوب تلبيتها، فإذا لحقنا هذه الميول في توجّهاتها ورغباتها سننتهي إلى الغاية التي خلقنا اللّه من أجلها.

(1) الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج 1، ص 16، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، الناشر دار الكتب الإسلامية - طهران، مطبعة الحيدري، 1363ش، الطبعة 5، كتاب العقل والجهل، ح 12.

إن التفكّـر والتأمّل في أنفسنا سيقودنا إلى اكتشاف مجموعة من الميول النفسية والفطرية التي تتحرّك وتتفاعل بشكلٍ غريب ومدهش، حتّى أنّ كل ّحركاتنا ونشاطاتنا تنطلق من هذه الميول، بل نفس هذا الجسم المادي يأتمر بإمرة هذه الميول الفطرية وهو منقادٌ لها أيضاً. وهذه التوجهات الفطرية هي:

1. طلب العلم (الذي يعبّر عنه بحبّ الاستطلاع).
2. طلب القدرة (الذي يشار إليه بحبّ السلطة).
3. طلب العاطفة (وهو الحبّ والعشق).

فكلّ إنسان ومنذ أن يفتح عينيه على هذا العالم، هو طالبٌ بالفطرة للعلم والقدرة والعاطفـة. إلّا أن بـروز هـذه الميول قد يحتـاج إلى وقت يتفاوت نسبيـاً بين شخص وآخـر. وإذا أمعنّا النظر في جميع تصرّفات وسلـوك البشر فسوف نكتشف بشكلٍ لا يقبـل الشكّ أنّ الدوافـع الأساسية لكلّ فعلٍ مهما كان بسيطاً هـي في الحقيقة تلبيةٌ لإحدى هذه الرغبات والميول المذكورة.

فالإنســان يريد دوماً أن يتعرّف ويكتشف المجهول أينما وجد. ويتمنّى لو أنّه يقدر علـى فعـل ما يريد. وهو يسعى دائمـاً للارتباط بكلّ ما يشبع حاجتـه العاطفيّة. هذه هي رغبات كل واحد منّا، مهما كان، وفي أي زمان أو مكان، وسواء أبرزها إلى العلن وعبَّر عنها بشكلٍ واضح ومباشر، أم أنّه أخفاها وألبسها ألف حجاب.

ولا ننســى أنّ الإنسان مخلوقٌ مختار، ووجود هـذه الميول فيه لا يعني أنّه سيسعى دومـاً وبالشكل الصحيح لتلبيتهـا. فإنّ هذه الميول قد تضعف شيئاً فشيئاً أمام ميول أخـرى غيـر فطرية. وقد تختفي وراء القيم المنحطّـة السائدة في المجتمع، بحسب مـا يختـاره ذاك الشخص بإرادتـه. وإن كان القضاء على الميـول الفطرية بالكامل أمراً مستحيلاً. والأصح أن يقال: إنّ الميّول الفطرية تفقد وجهتها الصحيحة وتتلوّن بالقيم السائدة في مثل هذه الحال لا أنّها تزول أو تختفي.

الله تعالى هو المنتهى

ومـن جانب آخر أيضاً فإنّ العقل أثناء بحثـه وتفكّره سوف يكتشف أمراً في غاية الأهميّـة؛ وهـو أنّ لهذه الميول خاصيّة ملفتـة، بالإضافة إلى وجودهـا عند الجميع، وهـذه الخاصيّة تتعلّق بعدم محدوديّتها. فميل الإنسـان للمعرفة والعلم ليس له حدّ، بـل كلّما وصل الإنسان إلى مرتبة من المعرفة تـراه يطلب مرتبةً أخرى أعلى وأرقى. والـكلام نفسه بالنسبة إلى سعيٍ الإنسان لامتـلاك القدرة والسيطرة، فإنّه لا يكتفي بما تصل إليه يداه بل هو في سعي دائم نحو قدرة أعلى وأكمل. وحب الإنسان وعشقه هـو بدوره لا يعرف الشبع. فالعاطفةً الجيّاشة التي تنبع من القلب الواله تتوجّه دائماً نحو المحبوب الذي ترى فيه الكمال والسعادة، وإذا ما وجد هذا القلب محبوباً أكمل فإنّـه سينتقل إليـه. فالقلب الإنسانيّ يحبّ ويعشق الكمـال ويطلب على الدوام ما هو أكمـل وأفضل، وسيبقى هذا القلب يتنقل من كامـلٍ إلى ما هو أكمل منه، ومن جميلٍ إلـى ما هو أجمـل منه وهكذا... وهـذه هي حقيقة وسـرّ هذه الميـول الفطريّة التي أودعهـا اللّه تعالى فينا، فهي ميولٌ ورغباتٌ مطلقـة لا تقف عند حدّ ولا تعرف الشبع أبداً. والإنسان يجد في نفسه الرغبة بالمزيد دائماً رغم حصوله على الكثير.

في وصيته يقول الإمام الخمينيقدس سره مخاطباً ابنه السيد أحمد:

«إعلـم أنّ فـي الإنسـان. إن لم نقـل في كلّ موجود. حباً فطريـاً للكمال المطلق وللوصـول إلى الكمال المطلق. وهذا الحب مما يسـتحيل أن يفارق الإنسـان كلياً. كما أنّ الكمال المطلق يستحيل أن يتكرّر أو يتثنّى. فالكمال المطلق هو الحق جلّ وعـلا. والجميـع يبحثـون عنـه، وإليه تهفو قلوبهـم ولا يعلمون. فهـم محجوبون بحجـب الظـلام والنور. لهـذا فهم يتوهمون أنّهم يطلبون شـيئاً آخـر غيره. ولذا تراهـم لا يقنعـون بتحقيق أيّة مرتبة من الكمال، ولا بالحصـول على أي جمال أو قدرة أو مكانة. فهم يشعرون أنّهم لا يجدون في كل ذلك ضالّتهم المنشودة.

فالمقتـدرون ومـن يمتلـك القـدرات الكبرى هم في سـعي دائم للحصـول على القـدرة الأعلـى مهما بلغوا من القدرة. وطـلاب العلم يطلبونً الدرجة الأعلى من العلم مهما بلغوا منه، وهم يشـعرون دوماً أنّهم لم يجدوا ضـالتهم وفي الحقيقة هم غافلون عنها.

ولو أعطي السـاعون إلى القدرة والسـلطة التصـرّف في كل العالم المادي من الأرضـين والمنظومات الشمسـية والمجـرّات، بل وكل ما فوقها، ثّـم قيل لهم: إنّ هناك قدرة فوق القدرة التي تملكونها أو أن هناك عالماً أو عوالم أخرى فوق هذا العالم، فهل تريدون الوصـول إليها؟ فإنّهم من المسـتحيل أن لا يتمنّوا ذلك. بل إنّـه مـن المحتـم أن يقولوا بلسـان الفطرة: ليتنـا بلغنا ذلك أيضـاً! وهكذا طالب العلم، فهو إن ظنّ أنّ هناك مرتبة أخرى - غير ما بلغه - فإنّ فطرته الباحثة عن المطلق سـتقول: يا ليت لي هذه القدرة أو يا ليت لي سـعة من العلم تشـمل تلك المرتبة أيضاً!»[1].

فـإذا كان اللّه تعالى خلقنا طالبيـن وعاشقين للكمال الذي لا حد له فهل يعقل أن يحرمنـا منه أو يمنعنا عنـه؟! إنّ هذا المنع يناقض صفـات الخالق الرحيم. وعليه، فـإنّ وجود هذه الرغبات والميول نحو الكمال الذي لا حدّ له، لهو دليلٌ واضح على أن الكمال اللامتناهي هو الغاية التي ينبغي أن نسعى إليها، وقد خلقنا اللّه تعالى لذلك.

إذاً، في أعماق كلّ إنسان عشقٌ فطريّ للكمال الذي لا حدّ له، أودعه اللّه فينا لكي يكون لنا هادياً كلّما ظننّا أننا بلغنا مقصدنا. إن هذا الشوق إذا سيطر على الإنسان لـن يرضى معه بجميع لذّات الدنيا وكمالاتها مهمـا بلغت! لأنّها محدودة، وهو طالبٌ للكمال اللامحدود، طالب للّه عزّ وجلّ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[2].

(1) الإمام الخمينيقدس سره، وصايا عرفانية، ص20 - 21.

(2) سورة النجم، الآية: 42.



المفاهيم الرئيسة

1. الإنسان لم يخلق عبثاً في هذه الحياة الدنيا، بل وجد لأجل هدفٍ شريف وغاية سامية.
2. الحكمة العظيمة في أفعال الرب تعني ضرورة وجود هدف وغاية لوجود الإنسان في هذه الحياة.
3. إن البحث عن الغاية التي خلقنا اللّه لأجلها يعتبر من أكثر الأبحاث والمعارف أهميةً وأعظمها تأثيراً في سلوك الإنسان، ونظرته للعالم.
4. سعادة الإنسان الحقيقيّة تكمن بالوصول إلى الهدف الذي من أجله وجد الإنسان في هذا العالم.
5. معرفة الهدف والغاية شرط أساسي للوصول إليها.
6. الهدف النهائي للإنسان لا يمكن أن يكون مكتوباً إلَّا على الصفحات الصافية، وهذه الصفحات الصافية هي الفطرة الإنسانية.
7. إن ما تنشده روح الإنسان وتصبو إليه الفطرة على الدوام هو الكمال والسعادة التي لا حدّ لها ولا منتهى.
8. للفطرة الإنسانية ثلاث ميزات أساسية: الأولى أنها مشتركة عند جميع الناس، الثانية أنها غير مكتسبة، والثالثة أنها لا تعرف حداً.
9. في أعماق كل إنسان عشقٌ فطري للكمال الذي لا حدّ له، أودعه اللّه فينا لكي يكون لنا هادياً نحو المقصد الحقيقي للإنسان.



أسئلة الدرس

1. أين تكمن أهميّة البحث عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان؟
2. كيف نهتدي إلى معرفة الغاية التي خلقنا من أجلها؟
3. ما هي أهم ميّزات الفطرة الإنسانيّة؟
4. كيف تستدلّ على أن غاية الإنسان وهدفه النهائي في هذه الحياة هو اللّه سبحانه وتعالى؟



الإنسان بفطرته يبحث عن اللّه[1]

لا يخفـى على كل ذي وجدان أنّ الإنسان، بحسب فطرته الأصيلة وجبلّته الذاتيّة، يعشـق الكمال التام المطلـق، ويتّجه قلبه شطـر الجميل على الإطـلاق والكامل من جميع الوجوه. وهذا من فطرة اللّه التي فطر الناس عليها. وبهذا الحب للكمال تتوفّر إرادة المُلك والملكوت، وتتحقق أسباب وصول عشّاق الجمال المطلق إلى معشوقهم.

غيـر أنّ كل امرئٍ يرى الكمال في شيءٍ ما، حسب حاله ومقامه فيتوجّه قلبه إليه. فأهـل الآخـرة يرون الكمال في مقامـات الآخرة ودرجاتها، فقلوبهـم متوجّهة إليها. وأهل اللّه يرون الكمال في جمال الحق، والجمال في كماله سبحانه يقولون ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾[2]، ويقولـون: «لي مع اللّه حال» وفيهم حـب وصالـه وعشق جماله. وأهل الدنيـا عندما رأوا أن الكمال فـي لذائذها، وتبيّن لأعينهـم جمالهـا، اتّجهـوا فطرياً نحوها. ولكـن على الرغم من كل ذلـك، فإنه لمّا كان التوجـه الفطـري والعشق الذاتي قد تعلّقا بالكمال المطلق، كان ما عدا ذلك من التعلّقـات عرَضياً ومن باب الخطـأ في التطبيق. إنّ الإنسان مهما كثر مُلكه وملكوته، ومهما نـال من الكمالات النفسيـة أو الكنوز الدنيويـة أو ازدادت أمامه المشتهيات، ازداد تعلّـق قلبه بمشتهيات أخـرى ليست في متناول يده، واشتـدّت نار شوقه إليها. كذلـك النفسـ التي تطلـب الرئاسة، فهي عندمـا تبسط لواء قدرتهـا على قطرٍ من الأقطار، تتوجّه بنظرة طامعة إلى قطرٍ آخر، بل لو أنها سيطرت على الكرة الأرضية برمّتها، لرغبت في التحليق نحو الكرات الأخرى للاستيلاء عليها. إلّا أنّ هذه النفس المسكينـة لا تـدري بأنّ الفطرة إنما تتطلع إلى شيءٍ آخر. إنّ العشق الفطري الجبلّي

---

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث السادس، ص 147.

(2) سورة الأنعام، الآية: 79.

يتّجه إلى المحبوب المطلق. إنّ جميع الحركات الجوهرية والطبيعية والإرادية، وجميع التوجهـات القلبية والميول النفسية تتوجّه نحو جمـال الجميل الأعلى على الإطلاق، ولكنّهم لا يعلمون، فينحرفون بهذا الحب والعشق والاشتياق - التي هي براق المعراج وأجنحة الوصول - إلى وجهةٍ هي خلاف وجهتها، فيحرّرونها ويقيدونها بلا فائدة.

لقـد ابتعدنا عن المقصـود، وهو أنه لمّـا كان الإنسان متوجّهاً قلبيـاً إلى الكمال المطلـق، فإنّه مهما جمـع من زخارف الحياة فإنّ قلبه يـزداد تعلّقاً بها. فإذا اعتقد أنّ الدنيـا وزخارفهـا هي الكمال ازداد ولعه بها، واشتـدّت حاجته إليها، وتجلّى أمام بصره فقره إليها. بعكس أهل الآخرة الذين أشاحوا بوجوههم عن الدنيا، فكلّما ازداد توجههم نحو الآخرة، قلّ التفاتهـم واهتمامهم بهذه الدنيا، وتلاشت حاجتهم إليها، وظهـر في قلوبهم الغنى، وزهدوا في الدنيا وزخارفها. كما أنّ أهل اللّه مستغنون عن كلا العالَمين (الدنيا والآخرة)، متحرّرون من كلتا النشأتين وكل حاجتهم نحو الغنيّ المطلق، متجلّياً الغِنى بالذات في قلوبهم، فهنيئاً لهم.

إذاً، يمكن أن يكون مضمون الحديث الشريف إشارة لما مرّ شرحه من قوله: «**مَن أصـبح وأمسـى والدنيا أكبر همّه جعل اللّه الفقر بين عينيه، وشتت أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قُسـم له، ومن أصـبح وأمسـى والآخرة أكبر همه، جعل اللّه الغنى في قلبه وجمع له أمره.**

الإمام الخميني قدس سره



الدرس الثاني

كمال الإنسان



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يبيّن أنّ كمال الإنسان الحقيقي يكمن في الرجوع إلى الله ولقائه.

2- يشرح المعنى الدقيق للقاء الله والسبيل إليه.

3- يذكر آثار لقاء الله وحضوره تعالى في حياتنا.

لقاء الله

لا يوجد كمالٌ للإنسان أجلّ وأرفع من لقاء الله سبحانه وتعالى، وهو من أسمى مقامات الإنسانية الشامخة. ولا سعادة أكبر للمؤمن من التقرّب إلى الله تعالى صاحب الكمال المحض، والقدرة اللامحدودة، والعلم المطلق، ولا راحة أعلى من اليقين بأنّ الإنسان لا محالة راجعٌ إلى ربٍّ ودود رحيم.

وقد بشّر عزّ وجلّ المؤمنين بلقائه، فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ووعد الذين يرجون لقاءه بأنّ لهم ما يأملون ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

ووصف تعالى المكذّبين بلقائه بأنهم خاسرون وغير مهتدين ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[3].

وأنّ الكافرين بلقائه هم في الحقيقة يائسون من رحمة الله، ولهم عذابٌ أليم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

(1) سورة البقرة، الآية: 223.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 5.

(3) سورة يونس، الآية: 45.

(4) سورة العنكبوت، الآية: 23.

وأنّـه تعالى سوف يكلهم إلى أنفسهـم ويذرهم في عماهم ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾[1].

أمـا أهـل الإيمـان والخشوع فإنهـم على يقيـن بلقاء ربّهـم وأنّهم إليـه راجعون ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2].

بـل وإنّ قلوبهـم وجلةٌ وفرحةٌ برجوعهـم إليه سبحانه تعالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾[3].

لأنّهم على يقين أنّ الله تعالى لم يخلقهم عبثاً ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾[4].

بل يعلمون علم اليقين أنّه اصطنعهم لنفسه ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾[5].

لـذا تكون نفوس المؤمنين مطمئنةً بالرجوع إلى ربّها ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾[6]، راضيةً بالدخول في عباده الصالحين والوفود إلى جنّة لقائه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[7].

حضور الله في حياتنا

لقـاء اللّه تعالـى على نحويـن، لقاءٌ في الدنيا ولقـاءٌ في يوم القيامـة عند البعث والحساب. وكلامنا الآن يتمحور حول لقاء الله في الدنيا قبل الآخرة. وليس المقصود بلقـاء الحق تعالـى اللقاء الحسّي ورؤيته تعالى بالبصر المـادي، لأنّ الله تعالى ليس

(1) سورة يونس، الآية: 11.
(2) سورة البقرة، الآيتان: 45 - 46.
(3) سورة المؤمنون، الآية: 60.
(4) سورة المؤمنون، الآية: 115.
(5) سورة طه، الآية: 41.
(6) سورة العلق، الآية: 8.
(7) سورة الفجر، الآيات: 27 - 30.

بجسم، ولا يحدّه مكان، ولا يُرى بالعين، فإنه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1]. بل المراد به اللقاء المعنوي، بمعنى حضوره تعالى الدائم في حياتنا، وعدم الغفلة عنه أبداً، والتوجّه إليه باستمرار، ومشاهدة آياته وآثار قدرته تعالى في كلّ شيءٍ. فلا نعبد غيره، ولا ندعو سواه، ولا نطلب حوائجنا إلّا منه. فالإنسان عندما يدرك أن الله تعالى خالقه، ومالك كل شيء، وبيده الأمر كله، وهو في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وهو ربّ العالمين، فمن الطبيعي أن يتوجّه إليه بالعبوديّة له والتسليم.

والوصول إلى هذه المنزلة الإنسانية الرّفيعة، من لقاء الحق والحضور في محضره إنّما يصبح ميسوراً في حالة واحدة فقط، وهي عندما يصبح الله تعالى حاضراً دائماً في حياة الإنسان، فيرى الإنسانُ خالقه حاضراً وموجوداً في جميع شؤون حياته، ويشاهد نفسه دائماً في مشهد الله العظيم وفي ساحة حسابه يوم القيامة.

وكيف لا يكون ذلك وهو تعالى معه أينما ولّى وجهه ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[2].

وهو أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[3].

وهو شاهدٌ على كلّ حركة يقوم بها وكلّ لفظة ينطق بها ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾[4].

(1) سورة الأنعام، الآية: 103.
(2) سورة الحديد، الآية: 4.
(3) سورة ق، الآية: 16.
(4) سورة يونس، الآية: 61.

فالإنســان إذا أراد أن يحصــل علــى مقعد صــدق عند اللّه، ينبغي لــه في البداية أن يــرى اللّه حاضــراً وناظراً إليه في جميــع شؤونه، ثم بعد ذلك يــؤدّي على أساس هذا الشهــود جميع الأعمال خالصةً لوجه اللّه. فممّا أوصى به رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أبا ذر (رض) أن قال له: «**يا أبا ذرّ إنك منّا أهل البيت، وإني موصيك بوصيّة فاحفظها، فإنّها جامعة لطرقِ الخير وسبله، فإنك إن حفظتها كان لك بها كفلان، يا أبا ذرّ اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، واعلم أن أول عبادة الله المعرِفة به**»[1]. وهــذه الحالة تحصل للإنسان في هذه الدنيــا نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس. وقد سأل رجلٌ يقال له ذعلب أمير المؤمنين عليه السلام: «**هل رأيت ربك؟ قال** عليه السلام: **ويلك يا ذعلب ما كنت أعبد ربّاً لم أره. فقال: يا أمير المؤمنين: كيف رأيته؟ قال** عليه السلام: «**ويلك يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائقِ الإيمان**»[2].

أثر حضور الله في حياتنا

إذا أدرك الإنســان أنّــه فــي محضــر اللّه تقدّســت ذاتــه، وأنه مطّلــعٌ على جميع حركاته وسكناته، فلن يقوم بالأعمال التي لا ترضي اللّه، ولن يعصيه أبداً، بل سوف يسعــى دائمــاً لأن يجعل كلّ أعمالــه موافقةً لإرادته تعالى وخالصــةً لوجهه سبحانه. فــاللّه تعالى يــرى ويشاهد أعمال الإنسان، وليس هو وحــده وإنما رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومــون عليهم السلام شاهــدون على أفعالنــا أيضــاً ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[3]. وعــن الإمــام الصادق عليه السلام قال: «**تُعرَض الأعمال على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمالُ العباد كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى** ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾»،

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 76.
(2) الشيخ الكليني، الكافي: ج 1، ص 138.
(3) سورة التوبة، الآية: 105.

وسكت»[1]. وعندما سئل عليه السلام عن «**المؤمنون**» في الآية الكريمة قال عليه السلام: «**هم الأئمة** عليهم السلام».

فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة وهي أن كل أعماله مشهودةٌ عند الله وملائكته الذين يكتبون كل شيء، وكذلك الأئمة المعصومين عليهم السلام، عندها سوف يسعى لاجتناب المعاصي وفعل الصّالحات. أما إذا لم يطّلع الإنسان على أصل أن «**الله معه**» دائماً، وظنّ أنه غائبٌ عنه، فإنه سوف يغرق بالغفلة، وسوف يتهاون في أداء الأعمال الواجبة عليه، ولن يهتمّ باجتناب المحرّمات. بخلاف ما إذا أدرك أنّ الله تعالى محيطٌ به ووجد نفسه دائماً في مشهده ومحضره، فإنه يسعى لأداء كل الأعمال طبق الإرادة الإلهية. وهذه الأعمال التي تؤدّى وفق إرادة الله هي أعمالٌ مقرّبةٌ إلى الله، كالصلاة مثلاً التي هي «**قربان كل تقي**»[2] كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام. وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ فاعتقد أن الله ناظرٌ إلى أعماله، راعى الخلوص أيضاً في كل أعماله. فهو من جهة يؤدّي الأعمال بحسب أوامر الله، ومن ناحية ثانية يكون مخلصاً في القيام بأعمال البرّ والخير. وهذه منزلةٌ رفيعةٌ يصل إليها الإنسان وهي متيسّرة للجميع، فما أخسر الذين يبيعون أنفسهم للدنيا وهم مدعوّون للوصول إلى هذا المقام الرفيع.

الشهداء هم أهل الحضور واللقاء

إنّ أكثر من يستشعر هذه المعاني السامية جيداً، ويتوق إلى هذه المنازل الرفيعة، ويصبو إليها دائماً هو ذلك الإنسان العاشق للشهادة في متراس الحرب وثغور الجهاد، لأنّ قلبه لم يتعلّق بشيءٍ إلا بالله تعالى الحيّ الذي لا يفنى.

فالشهادة تعني الحضور، ويقابلها الغيب والضياع، وهي عبارةٌ عن حضور الإنسان

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 219.
(2) م.ن: ج 3، ص 265.

في المحضر الإلهي باختياره وإرادته حيث يصل المجاهد في عشقه للّه إلى درجة من الشـوق والوله للقاء المحبوب لا يرى معهـا الدنيا إلا سجناً وقيداً ومانعاً من الوصول إلى السعادة المطلقة، فيرفع حجاب الجسم المادّي عن وجه الروح وحياتها الأبدية.

فالشهيـد عندمـا يـدرك أنّ اللّه تعالى محيطٌ به، ومعـه دائماً، وأقـرب إليه من نفســه، فإنّــه لا يتورّع عن تقديم كل وجوده في سبيلـه. الشهيد هو الذي عرف أسرار الحيــاة، فشهـد الدنيا بعين الحقيقــة؛ أنها دار الغـرور والقرية الظالـم أهلها، ولم يغفـل عن الآخرة التي هــي دار الحيوان أي الحيــاة الحقيقية، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[1]. فصـار المـوت عنــده أمنيةً، لأنه باب الوصول إلى تلك الحيــاة الحقيقية، وباتت الدنيا ساحة جهاد دؤوبٍ للقاء المحبوب، فهو يتمنّى الموت طلباً للآخرة، ويرى الدنيا حجاباً ومانعاً من الوصول إلى غايته الكبرى. فاختار أن يسلك الطريق الأسرع والأقصر للقاء اللّه ونيل رضوانــه، وهل من طريقٍ أسرع إلى رضوان اللّه من بذل المهج وخوض اللجج والقتل في سبيله؟! وهو غاية منى العاشقين وأقصى مراد الطالبين!

لــذا كان الشهــداء في مقامهم العالــي عند اللّه وليس عند أحد ســواه، أحياء في كنفــه بالحيــاة الحقيقية، لهـم رزقٌ لا حدّ لــه، وعطاءٌ غير مجــذوذ، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾[2]، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[3]. لا معنــى للخــوف أو الحزن لديهـم، لأنّ الإنسان إنما يحـزن ويغتمّ على المفقــود والزائــل، وهــم إنّما تعلّقــت قلوبهم بالحيّ الــذي لا يـزول ولا يفنى، لذا لا يطـرق الخــوف أو الحزن ساحتهم على الإطلاق بــل ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[4]، لأن

(1) سورة العنكبوت، الآية: 64.
(2) سورة الحديد، الآية: 19.
(3) سورة آل عمران، الآية: 169.
(4) سورة آل عمران، الآية: 170.

الشهـداء جسّدوا في حياتهم كل معاني التضحية والوفاء والصبر والإقدام والصدق والإخلاص والعشق والفناء في المحبوب، فكان لهم ما أرادوا ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[1]. لـذا كان عيد الإمام الخميني هو اليـوم الذي يرزقه اللّه تعالى الشهادة في سبيله: «**إن يوم فرحتنا وسعادتنا هو يوم نرتاح من هذه الدنيا الملوّثة والمليئة بالآلام والعذاب والبلاء. إن عيدنا ويومنا السعيد هو الشهادة**»[2].

كيف يصبح الله حاضراً في حياتنا؟

إذا كان كمـال الإنسان وسعادته الحقيقيّـة تكمن في التقرّب إلى الكمال المحض وصيرورته عند اللّه كما هو حال الشهداء، فإن تحقّق ذلك إنما يكون من خلال أمرين أساسيّيـن همـا: المراقبة والمحاسبة. فالإنسـان إذا أدرك أنه في محضر اللّه لا بد له من مراقبة أعماله والانتباه لتصرّفاته من جهة، ومن جهة أخرى عليه أن يحاسب نفسه باستمرار. فالمراقبة الدائمة والحساب المستمرّ هما اللذان يوصلان الإنسان إلـى المـكان الذي لا ينظر فيه إلا إلى اللّه. ويبيّن القـرآن الكريم هذين الأصلين في سـورة الحشـر المباركة بقولـه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3]. فهـذه الآية تدعونا إلى أصلين أخلاقيين، الأوّل المراقبة، والثاني المحاسبة. فكلّ إنسانٍ مكلّفٌ بمراقبة نفسه ومحاسبتها، فيراقبها فـي أفعالها وتصرّفاتهـا وأقوالها ويحاسبهـا، فإذا عمل خيراً شكـر اللّه، وإذا عمل سوءاً استغفر اللّه وتاب إليه.

(1) سورة النساء، الآية: 69.

(2) صحيفة الإمام، ج 1، ص 196.

(3) سورة الحشر، الآية: 18.

1. المراقبة:

معنى المراقبة مشتقّ من «**الرقبة**»، فالذي يرفع رقبته ليشاهد أكثر يكون مراقباً. وعلى الإنسان أن يراقب كلّ شيء في حياته من الكلام والفعل والنّظر وغيرها... لكي لا يقع فيما لا يرضي الله، وما يخالف أمره، فهو عزّ وجلّ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾[1]، ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[2]، وهو مستعدّ وجاهز ليسجّل كلّ شيء ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[3]، والإنسان الذي يراقب نفسه باستمرار سوف يحرص على أن لا يرتكب أية مخالفة، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة له قال: «**فرحم الله من راقب ربه، وخاف ذنبه، وجانب هواه، وعمل لآخرته، وأعرض عن زهرة الحياة الدنيا**»[4]. ومما وصّى به إمامنا الصادق عليه السلام: «**واقصد في مشيِك؛ وراقب الله في كل خطوة، كأنك على الصراط جائز، ولا تكن لفّاتا**»[5].

2. المحاسبة:

وأما المحاسبة فأن يحاسب الإنسان نفسه من خلال البحث والتدقيق في أعماله ليرى إن كان قد أدّى التكاليف الإلهية على أكمل وجه أم لا، فإذا اكتشف أنه ارتكب ما يخالف أمر ربّه استغفر وأناب إليه نادماً عازماً على أن لا يعود إلى معصيته مطلقاً، وسعى مباشرة لإصلاح الأمر وجبران ما فاته. وإذا اكتشف أنه أدّى ما عليه حمد الله وشكره على ما وفّقه إليه، وهو مدرك أنه لا مجال للمقارنة بين طاعاته ونعم الله السابغة عليه، لذا يجد نفسه مقصّراً دائماً في محضر الحق، ولا يفتأ عن إظهار العجز والضّعف أمام ساحته، فلا يبتعد عن العبودية له قيد أنملة، ولا يجد نفسه في

(1) سورة غافر، الآية: 19.
(2) سورة ق، الآية: 18.
(3) سورة يس، الآية: 12.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 18.
(5) م.ن: ج 73، ص 167.

محضره إلّا عبداً. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض خطبه قال: «**أيها الناس لا يشغلنّكم دنياكم عن آخرتكم، فلا تؤثروا هواكم على طاعة ربكم، ولا تجعلوا أيمانكم ذريعة إلى معاصيكم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، ومهّدوا لها قبل أن تعذّبوا، وتزوّدوا للرحيل قبل أن تُزعَجوا، فإنّها موقفُ عدل، واقتضاء حقّ، وسؤالٌ عن واجبٍ، وقد أبلغ في الإعذار من تقدّم بالإنذار**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، ووازنوها قبل أن توازنوا، حاسبوا أنفسكم بأعمالها، وطالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنائها لبقائها**»[2].

(1) م. س، ج74، ص183.

(2) الطبرسي، الميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 154، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1988م، الطبعة 2، باب وجوب محاسبة النفس كل يوم...، ح 5.



المفاهيم الرئيسة

1. لقــاء اللّه من أعلــى مراتب الكمال الإنســانــي وهو ممّا وعد اللّه بــه المؤمنين الذين أخلصوا له وصدّقوا به.
2. المــراد بلقــاء الحق حضوره الدائم في كل تفاصيــل حياتنا، وعدم الغفلة عنه مطلقاً.
3. عندما يتيقّن الإنسان أن اللّه معه دائماً، وهو أقرب إليه من نفسه، وأنّه شاهد على كلّ حركاته وسكناته عندها لن يغفل عنه أبداً.
4. الشهداء هم أبرز مثال حيّ على من فاز بهذه المرتبة الرفيعة، لأنهم لا يطلبون غيره ولم يرجوا سواه.
5. طريــق اللقــاء متوقّــف علــى أمريــن أساسيّيــن: المراقبــة الدّائمــة للنّفســ ومحاسبتها.



أسئلة الدرس

1. اذكر بعض الشواهد القرآنية التي تتحدّث عن لقاء اللّه تعالى.
2. ما معنى لقاء اللّه تعالى في الدنيا؟
3. ما هي أهم آثار حضور الحق تعالى في حياتنا؟
4. طريق لقاء اللّه تعالى متوقّف على أمرين أساسيّين اذكرهما وتحدّث عنهما.



أدب الحضور في محضر الحقّ تعالى[1]

روي في الكافي والتوحيد أنّ الصادق عليه السلام قال: «**إنّ روح المؤمن لأشدّ اتّصالاً بروح الله من اتّصال شعاع الشمس بها**»[2]. وقد ثبت بالبرهان القويّ المتين في العلوم العالية أنّ جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى مراتب الشهود هي عين التعلّق والربط ومحض التدلّي والفقر إلى القيّوم المطلق جلّت عظمته، ولعله أشير إلى هذا المعنى في الآية المباركة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3]....

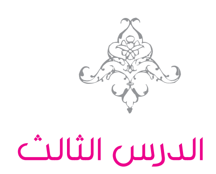
وعلى العارف بالله والسالك إلى الله أن يكتب هذا المطلب الحقّ البرهاني وهذه اللطيفة الإلهية العرفانية في لوح القلب بواسطة الرياضات القلبيّة، ويخرجها من حدّ العقل والبرهان إلى حدّ العرفان حتى تتجلّى في قلبه حقيقة الإيمان ونوره. فإنّ أصحاب القلب وأهل الله ينتقلون من حدّ الإيمان إلى منزل الكشف والشهود. وهو يحصل بالمجاهدة الشّديدة والخلوة مع الله والعشق لله. كما في مصباح الشريعة أنّ الصّادق عليه السلام قال: «**العارف شخصه مع الخلق، وقلبه مع الله لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه، والعارف أمين ودائع الله، وكنز أسراره، ومعدن نوره، ودليل رحمته على خلقه، ومطية علومه، وميزان فضله وعدله، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله، ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلا بالله لله من الله مع الله**»[4].

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، ص 105.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص166.
(3) سورة فاطر، الآية: 15.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج3، ص14.

وبالجملـة إذا رأى السّالك نفسه بجميـع شؤونه عين الحضور يستر جميع عوراته الظاهريّة والباطنيّة لأجل حفظ المحضر وأدب الحضور. لأنه وجد أن كشف العورات الباطنيـة في محضـر الحقّ أقبـح وأفضح من كشـف العورات الظاهريـة بمقتضى الحديث «**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1]. والعورات الباطنية هي ذمائم أخلاقية وخبائث العـادات والأحوال الخلقيّة الرّديئة التي تسقط الإنسان عن لياقة المحضر وأدب الحضور. وهذه هي المرتبة الأولى من هتك الستور وكشف العورات.

الإمام الخمينيقدس سره

(1) م. س، ج67، ص248.



الدرس الثالث

كمال الإنسان في معرفة الله



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يستدل على أنّ معرفة الله هي الهدف الحقيقي من خلق الإنسان.

2- يبيّن نوعي المعرفة والعلاقة الحاكمة بينهما.

3- يشرح ما هي العلاقة بين الفطرة الإنسانية والتوحيد الإلهي.

المدرسة الإلهية في التربية

ثمة فارق جوهري بين مدرسة الأنبياء والأئمّة ومنهاجها في التربية، وبين غيرها من مدرسة الفلاسفة النظريين والمفكّرين والمنظّرين، فالمدرسة الأولى تتعامل مع الجانب الإنساني والروحي في البشر كما تعزّز تعاملها مع عواطفهم وقلوبهم، دون الاقتصار على الأفكار المجرّدة والنظرية في الإنسان. وذلك لأن الجانب القلبي والروحي هو المميز للإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى فيعطيه هويته الخاصة به ولا يشاركه فيها أي كائن آخر سواء كان من الحيوانات أو الجان أو الملائكة، ولذلك تركز المدرسة الإلهية وفق منهج أهل البيت عليهم السلام في تربيتها للإنسان على هذه الجنبة من كيانه...

ولهذا أيضاً يلاحظ أنّ القرآن الكريم يشير دائماً في مجال وصفه للعلاقة القائمة بين اللّه سبحانه وبين المؤمنين بالرسالة الإسلامية إلى مرتكزات هذه العلاقة، حيث يستعمل هذه الألفاظ الخاصة في دلالتها على جانب العاطفة والقلب والوجدان، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]. ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[3]. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[4].

(1) سورة البقرة، الآية: 222.
(2) سورة الفتح، الآية: 18.
(3) سورة الحجرات، الآية: 7.
(4) سورة هود، الآية: 90.

فمن الواضح أنّ هذه الآيات وأمثالها مما يصف الله سبحانه فيه ويشرح سنخ العلاقة بالبشر وطبيعة العناية الإلهية بهم، تركز على مقولات عالم القلب والروح، لا عالم المصطلحات البشرية والأفكار المجردة، وما ذلك إلا لأنّ هذه المدرسة تسعى لأن تربّي الإنسان وتكمّل إنسانيته وكمالاته التي لا تقوم في أساسها ومجراها إلّا على جانب القلب والروح والوجدان، فمن خلال هذا الجانب يستطيع الإنسان أن يتكامل ويسعى إلى الصالحات والخيرات، والصفات الأخلاقية والوجدانية الحميدة.

أما كيف ولماذا يكمل الإنسان عن طريق هذا الحب؟ فذلك لأنّ الكمال الحقيقي للإنسان إنّما يكون باقترابه من الكمال المطلق وهو الله سبحانه، والقلب هو باب هذا الاقتراب من الكمال المطلق، وليس الباب إليه هو الذهن وحده، بداهة أنّ الإنسان قد يدرك وجود الله سبحانه ولكنه لا يتكامل.

منهج الأنبياء التربوي

فلا يتصوّر أحد أنّه مع وجود المنطق والاستدلال، فما هي الحاجة للحديث عن الموعظة والتربية والتوجيه؟ وما هي الحاجة للبحث في قضايا وجدانية وعاطفية من هذا القبيل؟ إنّ هذا النوع من التفكير بيّن البطلان، لأنّ لكلّ واحدة من هذه الأمور دوراً في بناء شخصية الإنسان وتكامله. فالعواطف لها دورها والمنطق والبرهان لهما دورهما المهم أيضاً.

فالعاطفة لها دور في حلّ كثير من المشاكل والمعضلات التي يعجز المنطق والاستدلال عن حلّها. ولذلك حينما نراجع تاريخ الأنبياء عليهم السلام سوف نرى أنّه في أوائل بعثتهم كان يلتفّ حولهم أناس لم يكن المنطق والبرهان هما الدافع الأساسي لإيمانهم ولالتفافهم حول أولئك الأنبياء عليهم السلام، لذا كان عملهم ودعوتهم في المرحلة الأولى يقوم على أساس كسب المشاعر والعواطف الصادقة لدى الناس.

ففي هذه المرحلة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب الكفّار مبيناً ضعف آلهتهم (الأصنام) وعجزها، وأنها ليست سوى أحجار لا تضرّ ولا تنفع. من دون الحاجة إلى ذكر الدليل

العقلـي والمنطقي على بطـلان عبادتهم لتلك الأصنام. ولم يكن يستـدلّ للناس بالأدلّة العقلية والفلسفية على وجود اللّه ووحدانيته، بل كان يكتفي بالقول: «**قولوا لا إله إلاّ اللّه تفلحـوا**»[1]، فلـم يبرهن للناس عقلياً أو فلسفياً أنّ الاعتقاد بـ (لا إله إلاّ اللّه) يؤدّي إلى فلاح الإنسان وسعادته، بل إنّ هذه العبارة تخاطب مشاعر الإنسان وأحاسيسه الصادقة.

طبعـاً إنّ كلّ مشاعـر وأحاسيسـ صادقـة وسليمـة تنطـوي على برهـان فلسفي واستـدلال عقلـي. لكنّ المسألـة هي أنّ كلّ نبـي عندما كان يريد البـدء بالدعوة لم يكـن يطرح الدليل العقلي والفلسفي من أجل هداية الناس، بل إنّه كان يبدأ بتحريك العواطف والأحاسيسـ الصادقة والسليمة التي تحمل المنطق والاستدلال في ذاتها. وهذه الأحاسيس والعواطف توجّه أنظار الإنسان إلى ما يعيشه المجتمع من انحراف وظلـم واضطهاد وتمايز طبقي، ومـا يمارسه أنداد اللّه من البشر (شياطين الأنس) مـن ضغط وإرهاب ضدّ أبناء ذلك المجتمع. أمّا طـرح البراهين العقلية والمنطقية فكان يبدأ حينما تستقر الدعوة وتأخذ مجراها الطبيعي.

المعرفة العقلية والقلبية

وانطلاقـاً من هـذا المبدأ نقول: إنّ منابع المعرفة لـدى الإنسان، وطرق التعرف إلـى حقائق الوجود، ثلاثـة وهي: منبع الحس، ومنبع العقـل، ومنبع القلب. ومدرسة أهـل البيت عليهم السلام تولي اهتماماً كبيراً بمنبـع القلب ولكن من دون التقليل من أهمية الحس والعقل، فلكل منبع خصوصيته وأثره.

ومعنـى معرفـة اللّه سبحانه عن طريق القلـب، أن يجد الإنسان ربـه وخالقه في وجوده ونفسه، ويتحسس وجوده في باطنه، تماماً كسائر الإحساسات القلبية الأخرى، فهـو كما يشعر بالعاطفة تجاه ولده، وكما يشعر بالجـوع والعطش، كذلك يشعر باللّه سبحانه في وجوده، ويتلمس قربه والاقتراب منه في كل آن.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص202.

الفرق بين المعرفة العقلية والمعرفة القلبية:

ومن الواضح أنّ هناك اختلافاً بين المعرفة العقلية والمعرفة القلبية، وهو نفس الاختلاف بين الإحساس والعلم، أو بين المعرفة الفردية والمعرفة العامة. ويمكننا هنا أن نشير إلى الفرق بين المعرفتين من خلال النقاط التالية:

أولاً: إنّ معرفة اللّه سبحانه عن طريق القلب هي شهود وحضور المعلوم عند العالم مباشرة، أما معرفته عن طريق العقل فهي تحصيل وإدراك المعلوم بواسطة الحواس والصور الذهنية. فالعالم يعرف اللّه ولكنّ العارف يرى اللّه. كما ورد في الدعاء المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «... **إلهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشّوق إليك في حدائق صدورهم وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم فهم إلى أوكار الأفكار يأوون وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون ومن حياض المحبّة بكأس الملاطفة يكرعون وشرائع المصافاة يردون قد كشف الغطاء عن أبصارهم وانجلت ظلمة الرّيب عن عقائدهم من ضمائرهم وانتفت مُخالَجة الشّك عن قلوبهم وسرائرهم وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم...**»[1].

ثانياً: أحد الاختلافات الأخرى بين معرفة اللّه عن طريق العقل وعن طريق القلب التي تتفرع عن الفرق الأوّل هي أنّ معرفة اللّه عن طريق القلب إحساس فهي طريق فردي تماماً، ولا تقبل النقل للآخرين والتعليم والتعلم، على خلاف معرفة اللّه عن طريق العقل فهي ليست فردية وهي قابلة للتعليم والتعلم ويمكن نقلها للآخرين. إنّ معرفة اللّه عن طريق القلب لا يمكن إبرازها في قالب الاستدلال، وهي ليست أمراً قولياً بل هي أمر ذوقي، ونوع من التجربة الباطنية لا يمكن نقلها للآخرين، كما أنّ المبصر لا يستطيع أن يبين للأعمى اللون وإدراكه له ومعرفته به، وكما أنّ الإحساس بالجوع والعطش لا يقبل النقل

(1) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، مناجاة العارفين.

للآخريـن فكذلـك الشخص الذي يستطيع أنّ يحسّ بـالله عن طريق القلب لا يستطيع أن ينقل إحساسه إلى من كان بصر قلبه أعمى.

ثالثاً: ومـن الاختلافـات بين معرفة الله عـن طريق القلـب ومعرفة الله عن طريـق العقل هي أنّ المعرفـة القلبية توأم للعمل والالتـزام والتقوى، ولكن المعرفـة العقلية يمكن أن تكون مع التقوى ويمكن أن لا تكون مع التقوى، بل يمكن أن تكون أحياناً مترافقة مع الكفر، كما يتضح ذلك من قوله سبحانه في القرآن الكريم في عدم إيمان قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[1].

وعليه فيمكن أن يصدق العقل بالله سبحانه، ولكن اللسان ينكره، ويعمل الإنسان خـلاف ما يعلم، إلّا أنّ الأمـر الذي لا يمكن هو أن يؤمن القلب بالله ثم ينكر اللسان، فـلا يمكـن أن توجد المعرفـة القلبية مـن دون أن يوجد الالتزام العملـي، وقد أشار الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا المعنى بقوله: «**لا يُقبَل عمل إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل ومن عرف دَلّته معرفته على العمل ومن لم يعرف فلا عمل له**»[2].

هـذه المعرفة هي المعرفة القلبيـة التي هي توأم الالتزام والعمل، والتي لها الدور الأساسي في تكامل الإنسان وتساميه المعنوي والروحي.

مخاطر فصل المعرفة العقلية عن القلبية

ومن الأمور الهامة التي يجب الالتفات إليها هو أن بعض العرفاء قد أفرط في هذا المجال واعتبر أن البرهان والدليل لا أثر له، وأن أرجل الاستدلاليين خشبية :

أرجــل الاســتدلاليــين خشـبية   والأرجــل الخشـبية ليسـت قوية

(1) سورة النمل، الآية: 14.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص174.

إنّ هـذا الموقف من المعرفـة العقلية والفلسفية غير صحيـح وغير منطقي، لأنّ المعرفـة العقليـة إذا طرحت منفصلة عن المعرفة القلبيـة، والعلم دون العمل، فهي ليست فقط لا دور لها في السلوك إلى اللّه وفي تكامل الإنسان، بل هي توجب الابتعاد أكثـر عن اللّه سبحانـه. أما إذا كانت المعرفـة العقلية إلى جانـب المعرفة القلبية، والفلسفـة إلى جانب العرفان والعلم تـوأم العمل، فإنّ أقدام البرهان لا تكون خشبية بـل أقدامـاً طبيعية تماماً أنعم اللّه سبحانـه بها على الإنسان للوصـول إلى معرفته. فكيـف يمكن أن نرمـي عصا البرهان بعيداً في حال أنه لا طريـق للتعليم والتعلم إلا الاعتماد على هذه العصا. وبناءً على هذا فإنّ إبقاء هذه العصا بيدنا هو أمر ضروري لحمل رسالة الأنبياء الإلهية.

بعـد أن تبيـن معنى معرفـة اللّه عن طريق القلـب والتفاوت بينهـا وبين المعرفة العقلية نصل إلى المبحث الأصلي لهذا الدرس وهو عبارة عن إثبات حسّ معرفة اللّه عند الإنسان.

وبمـا أنّ المعـارف القلبيـة وكلّ الإحساسات الأصلية عند الإنسـان لها جذور في فطرته فيجب في هذا المجال أن نبدأ بحثنا بفطرة معرفة اللّه ثم نبحث في شرائط وموانع تفتّح براعم هذه الفطرة الإلهية.

معرفة الله وتوحيده من الأمور الفطرية

إنّ معرفة اللّه والاعتقاد بوجوده سبحانه من الأمور الفطرية. فمن القضايا الفطرية التي جبلت عليها سلسلة بني البشر بأكملها كما ذكرنا بحيث لا أحد يخالفها ولا يمكن لأي جهة أن تبدلها أو أن تحدث خللا فيها، هي الفطرة التي تعشق الكمال، بمعنى أنك لو تجولت في الأدوار التي مر بها الإنسان ولو استنطقت كل فرد من الأفراد وطائفة من الطوائـف وملة من الملل، فإنك ستجـد هذا العشق والحب قد جبل في طينته وأنّ قلبه دائمـاً متوجّه نحو الكمال، بل إنّ كل ما يصدر عن الإنسان من سكنات وحركات وعناء

وجهـد إنما هو نابع من حب الكمال، ولكن الخطأ الكبيـر الذي وقع به أفراد الإنسانية أنهـم لم يتعلقـوا بالكمال الحقيقي بل اعتمدوا في ذلك على مـا توهموه وتخيلوه كمالاً فعشقوه كالسلطان والنفوذ والمال واتساع الملك، فضلّوا بذلك ضلالاً بعيداً.

كان علـى هـؤلاء أن تتّجه قلوبهم، وبمقتضـى الفطرة، إلى الكمال الـذي لا نقص فيه، فيعشقون الكمال الذي لا عيب فيه ولا كمال بعده، ويعشقون العلم الذي لا جهل فيه، والقدرة التـي لا تعجز عن شيء والحياة التي لا مـوت فيها. وهذا هو الكمال المطلق، وهو الله الذي ينبغـي أن يكون معشـوق الجميع بحكم الفطرة الواحدة لدى الجميـع، فإلى متى نوجه هذه الفطرة المقدسة التي وهبنا الله إياها، نحو الخيالات الباطلة من هذا وذاك من المخلوقات أو مـن متعلقـات عالم المادة؟ إن علينا أن نتوجّه إلـى الكمال المطلق وهو الله سبحانه من خلال هذه الفطرة التي لا شك فيها، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

وأمـا بيان أن توحيد الله تعالى وصفاته الأخرى هي فطرية، فنقول: إن من الأمور الفطريـة التـي فطر الله الناس عليها هو النفور مـن كل نقص وعيب، فالفطرة تنفر من النقص والعيب كما أنها تنجذب إلى الكمال. ومن هنا كان لا بد لهذه الفطرة أن تتوجه إلى الواحد الأحد وذلك لأن كل كثير ومركب يعتبر ناقصا.

توضـيح ذلـك: أن الكثـرة لا تكون إلا بمحدودية، والمحدوديـة نقص وكل ناقص مرغـوب عنه من جانب الفطرة وعليـه فينتج من هاتين المقدمتين الفطريتين وهما: «**فطرة حب الكمال**» و«**فطرة النفور من النقص**» ينتج إثبات التوحيد، بل إن استجماع الله لجميع الكمالات وخلو ذاته المقدسة من كل نقص، قد ثبت ذلك كله بالفطرة.

قـال الإمام الصـادق عليه السلام في تفسيـر قوله تعالـى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ...﴾[2]: «**فطرهم**

(1) سورة إبراهيم، الآية: 10.

(2) سورة الروم، الآية: 30.

على التوحيد عند الميثاق على معرفته»[1]. وفي تفسير البرهان ذكر في ذيل الآية المذكورة خمس عشرة رواية فسرت جميعها الفطرة في هذه الآية بمعنى فطرة معرفة الله والتوحيد[2].

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن الله تعالى فأجاب عليه السلام: «**يا عبد الله... هل ركبت سفينة قط؟ قال: بلى، قال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى، قال** عليه السلام: **فهل تعلق قلبك هناك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: بلى، قال** عليه السلام: **فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث»**[3]. ويلاحظ أن في القرآن الكريم إشارة إلى هذه الصورة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[4].

فالله عزّ وجلّ موجود، وفطرة التدين له موجودة. والإنسان مفطور على حبه ومعرفته والتعلّق به، وكلّ المقدمات مهيئة لمشاهدة جماله وجلاله، لكن الأنفس الأمارة والسرائر الخبيثة وتدخلات إبليس واتّباع الهوى وطغيان الأنا والابتعاد عن طريق الهدى والانغماس في عالم المادة، كلها موانع تمنع من هذا الشعور والإحساس به وتلمس نورانياته.

وباستطاعة الإنسان أن ينكر ما يشاء من الحقائق، ولكنّ إنكارها لا يحولها إلى زيف أو وهم كما لا يعدمها بل تبقى حقائق. وهل تنعدم الشمس عندما ينكرها الأعمى؟! وهل تتوقف عن إضاءة الكون عندما يغطيها السحاب؟

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج3، ص278.
(2) السيد هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج4، ص261.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج3، ص41.
(4) سورة يونس، الآية: 22.

فـاللّه تعالــى كائن في نفســك، وهو موجود فــي نبضك وسكونــك، لا تراه ولكنك تحسّه، وقد تحسّه ولكنك لا تعرفه. وكونك لا ترى ربك أو لا تعرفه، فذلك لا يعني أنه غير موجود ولا محسوس، ولكنه يعني أن التراب في نفسك طغى على القبس المضيء فيهــا، فاختلــط عليك الأمر وظننت أنك خلقت من فــراغ وتعيش في فراغ، وتظلّ في حيرة وضلال إلى أن يطلع عليك ومن داخلك نور اللّه سبحانه ليهديك بعد أن ضللت، ويرشدك إلى الطريق وكانت قد عمت عليك.

ولعلــك في حياتــك رأيت اللّه مرة أو مرتيــن أو ثلاثاً أو أكثــر، لا رؤية العين التي تجسّــد أمامك المرئيات، ولكن رؤية الوجــدان الذي يوحي إليك أنّ اللّه في داخلك، ورؤية القلب الذي يأخذك بكلك إلى اللّه سبحانه.

أوليس أنّ اللّه هو الخير والجمال والحب والفضيلة والإحسان والتسامح والتسامي والطهــارة والصفــاء؟ ففي كل مرة أحسســت فيها أنك تترفع عــن الحقد إلى حيث الصفــح والمغفــرة والرحمة، وفي كل مــرة أحسست فيها أنك تترفــع عن الكراهية والبغضــاء إلــى حيث الحب والتسامــح، فاعرف أنّ اللّه هو الــذي يرعاك ويوجهك. وفــي كل مرة أوشكت أن تسقــط، وأحسست أن يداً خفية تقيمك وتثبتك، فاعلم أنها يد اللّه.

وفــي كل مــرة تقاطرت عليــك الخطوب وادلهمّــت عليك المسالــك، وشارفت علــى التعب واليأس أو الألــم والحزن، وأضحى الظلام يحيــط بك من كل مكان، وأحسست نوراً يشعّ في الظلام، وصوتاً يهبك الراحة والعزاء والسكون والصفاء، فاعلم أنّه اللّه.



المفاهيم الرئيسة

1. مدرسة الأنبياء تتعامل مع الجانب الإنساني والروحي في البشر كما تعزز تعاملها مع عواطفهم وقلوبهم، دون الاقتصار على الأفكار المجردة والنظرية في الإنسان.

2. إنّ منابع المعرفة لدى الإنسان، وطرق التعرف إلى حقائق الوجود، ثلاثة وهي: منبع الحس، ومنبع العقل، ومنبع القلب.

3. معنى معرفة اللّه سبحانه عن طريق القلب، أن يجد الإنسان ربه وخالقه في وجوده ونفسه، ويتحسس وجوده في باطنه، تماماً كسائر الإحساسات القلبية الأخرى.

4. إنّ معرفة اللّه سبحانه عن طريق القلب هي شهود وحضور المعلوم عند العالم مباشرة، أما معرفته عن طريق العقل فهي تحصيل وإدراك المعلوم بواسطة الحواس والصور الذهنية.

5. المعرفة القلبية توأم للعمل والالتزام والتقوى، ولكنّ المعرفة العقلية ليست بالضرورة مصاحبة للتقوى دائماً، بل يمكن أن تكون أحيانا مترافقة مع الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

6. المعرفة العقلية إذا طرحت منفصلة عن المعرفة القلبية، فهي ليست فقط لا دور لها في السلوك إلى اللّه وفي تكامل الإنسان، بل هي توجب الابتعاد أكثر عن اللّه سبحانه أيضاً.

7. إنّ معرفة اللّه والاعتقاد بوجوده سبحانه من الأمور الفطرية، فمن القضايا الفطرية التي جبلت عليها سلسلة بني البشر بأكملها هي فطرة حب الكمال الذي لا حدّ له.

(1) سورة النمل، الآية: 14.



أسئلة الدرس

1. ما هو الفارق الأساسي بين مدرسة الأنبياء وغيرها من المدارس الفكرية؟
2. ما هو الفرق بين المعرفة العقلية والقلبية؟
3. كيف نستدلّ على أنّ معرفة اللّه والاعتقاد بوجوده من الأمور الفطرية؟



في لقاء اللّه وكيفيته[1]

إعلم أنّ الآيات والأخبار الواردة في لقاء اللّه صراحة أو كناية وإشارة كثيرة لا يسع هذا المختصر الخوض في ذلك مفصلاً. ولكننا نشير إلى بعضها بصورة مختصرة. ومن أراد التفصيل في ذلك أكثر فعلية مراجعة كتاب (لقاء اللّه) للمرحوم العارف باللّه، الحاج ميرزا جواد التبريزي قدس سره، حيث جمع إلى حدّ كبير الأخبار المأثورة في هذا الموضوع.

إعلم بأنه قد ذهب بعض العلماء والمفسرين إلى سدّ باب السبيل إلى (لقاء اللّه) نهائياً، والجحود للمشاهدات العينية والتجليات الذاتية والأسمائية، زاعمين بذلك أنهم ينزّهون الذات المقدّس، ومفسرين جميع آيات لقاء اللّه وأحاديثها، بلقاء يوم الآخرة، ولقاء الجزاء والثواب والعقاب.

وهذا التوجيه ليس ببعيد كثيراً، بالنسبة إلى مطلق اللقاء واتجاه بعض الآيات والروايات، ولكنّه بالنسبة إلى بعض الأدعية المعتبرة والأحاديث المأثورة في الكتب المعتبرة، والأحاديث المشهورة التي ارتكز عليها علماؤنا العظام، موهون وبعيد جداً.

ولا بد أن تعرف بأنه ليس مقصود من أجاز فتح الطريق على لقاء اللّه ومشاهدة جمال الحق وجلاله، جواز اكتناه - التعرف إلى الحقيقة والذات- ذاته المقدس، أو إمكان الإحاطة في العلم الحضوري والمشاهدة العينية الروحانية، على ذاته، المحيط بكل شيء على الإطلاق، فإنّ امتناع الاكتناه لذاته المقدس بالفكر في العلم الكلي- الفلسفة- وامتناع الإحاطة بالبصيرة في العرفان، من الأمور البرهانية، ومتّفق عليه لدى جميع العقلاء، وأرباب القلوب والمعارف. بل المقصود لدى من

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثا، الحديث الثامن والعشرون، ص504.

يدعـي مقام لقاء الله هو: أنه بعد حصول التقـوى التامة والكاملة، وانصراف القلب نهائيـاً عـن جميع العوالـم، ورفض التوجه نحـو النشأتين- المُلـك والملكوت- ووطء الأنانيـة والإنيّة، والإقبال الكلي نحو الحق المتعالي وأسمـاء ذاته المقدس وصفاته، والانصهار في عشق ذاته المقدس وحبّه، وتحمّل جهد وترويض القلب، يحصل صفاء في القلب لدى السالك يبعث على تجلّي أسمائه وصفاته، وتمزّق الحجب الغليظة التي أسدلت بين العبد من جهة والأسماء والصفات، من جهة أخرى، والفناء في الأسماء والصفـات، والتعلق بعزّ قدسه وجلالـه والتدلّي التام بذاته. وفي هذا الحال لا يوجد حاجز بين روح السالك المقدسة والحق المتعالي سوى حجاب الأسماء والصفات.

ويمكن أن يرفـع الستار النوري للأسماء والصفات لبعضـ أرباب السلوك أيضاً، وينـال التجليات الذاتية الغيبية، ويرى نفسه متدلياً ومتعلقاً بالذات المقدس، ويشهد الإحاطـة القيومية للحق والفناء الذاتي لنفســه، ويرى بالعيان أنّ وجوده ووجود كافة الكائنات، ظلٌّ للحق المتعالي.

الإمام الخميني قدس سره



الدرس الرابع

المعرفة طريق الانقطاع إلى الله



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يبيّن العلاقة الحاكمة بين المعرفة والإيمان بالله والفناء فيه.

2-يبيّن ماهية الرؤية القلبية ويستدلّ على إمكان حدوثها.

3-يبيّن مراحل السير التكامليّ للإنسان من الذكر إلى الانقطاع.

مراتب المعرفة

إنّ لمعرفة الله العقلية والقلبية مراتب عديدة، ولكلّ مرتبة شرائط خاصة. فشرائط وموانع أوّل مرتبة للمعرفة العقلية أو القلبية تختلف عن شرائط وموانع المرتبة الأعلى منها، بل هي غير قابلة للقياس بها، بمعنى أنّ موانع وشرائط المرتبة الأعلى للمعرفة هي أكثر وأدق بمراتب من المرتبة الأدون. إنّ أول مرتبة للمعرفة العقلية تبدأ من المعرفة البديهية وتنتهي بالإحاطة بكل براهين وأدلة معرفة الله وبالإجابة عن كلّ إيرادات المنكرين. وأول مرتبة للمعرفة القلبية تبدأ من المعرفة الفطرية القلبية، وتختتم بتجاوز الحجب الظلمانية والنورانية والوصول إلى مرتبة تجلّي الذات.

شرائط المعرفة

إنّ المعارف العقلية نوعان: المعارف البديهية (البديهيات العقلية) والمعارف النظرية. معرفة الله عن طريق العقل هي بحسب المعنى الأول أي المعرفة العقلية البديهية لا شرط لها إلّا رفع موانعها الخاصة. والموانع الخاصة لهذه المعرفة هي عبارة عن التعصّب، الحزبية، البغض والحقد وكل ما من شأنه أن يبعد العقل عن فطرته وطبيعته. ولو لم تكن هذه الموانع موجودة لتوجّه العقل مع الالتفات إلى نظام الوجود إلى منظمه وخالقه دون أن يجد حاجة للبرهان في هذا المجال، ولا ضرورة

لوجود شرط آخر غير عدم وجود الموانع. أما معرفة الله بالمعنى الثاني أي المعرفة العقلية النظرية فلها شرائط أخرى إضافةً إلى رفع الموانع وعلى رأسها التعلّم وطلب المعرفة بالدليل والبرهان العقلي.

أما معرفة الله عن طريق القلب فلها مراتب أيضاً، وأدنى تلك المراتب هو الإحساس الفطري بالحاجة للكمال المطلق. وهذه المعرفة القلبية كالمعرفة العقلية الفطرية لا شرط لها إلا رفع الموانع الخاصة بها. وهذه الموانع هي نفس موانع المعرفة العقلية البديهية التي لولا وجودها لأدرك العقل خالقه وربه بنفسه ولأحس القلب به أيضاً. كما يقول الإمام علي عليه السلام في وصفه لسالك الطريق إلى الله: «**قد أحيا عقله وأمات نفسه حتّى دَقَّ جليله ولطف غَليظه وبَرَقَ له لامع كثير البرق فأبان له الطّريق وسلك به السّبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السّلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والرّاحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه**»[1].

الإيمان ومراتبه

الإيمان بالله يحصل في النفس من خلال التصديق المنطقي والاستدلالي إلى جانب الإدراك والإحساس الفطري القلبي الذي يحصل بإرشاد الأنبياء الإلهيين، وشرط تحقّقه هو عدم وجود الموانع ولو بنحو نسبيّ.

وإذا عمل الإنسان بلوازم الإيمان التي هي تنفيذ القوانين الإلهية، وبذل تمام قدرته بإخلاص في تنفيذ هذه القوانين في حياته الفردية والاجتماعية فسيحصل على مرتبة أعلى إلى أن يصل إلى اليقين. كما يقول الإمام علي عليه السلام: «**إنّ الإيمان يبدو لُمظةً في القلب، كلّما ازداد الإيمان ازدادت اللُمظةُ**»[2].

(1) نهج البلاغة، خطبة 220.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج66، ص196.

ومـع بقاء التقوى يزداد نور الإيمان تدريجياً حتى تصل مرآة القلب إلى درجة من الإشراق والنور بحيث تتجلّى فيه ذات الحق المقدّسة، ويرى الإنسان ربه وإلهه ببصر القلب ويصل إلى مرتبة اليقين.

وعلى هذا فيكون حينئذٍ للإيمان ثلاث مراتب محدودة، المرتبة الأولى هي عبارة عن التصديق المنطقي، الثانية مرتبة التقوى، الثالثة مرتبة اليقين.

وقـد ذكرت هذه المراتب في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام حيث يقول: «**الإيمان فوق الإسـلام بدرجة والتَقـوى فوق الإيمان بدرجة واليقين فـوق التّقوى بدرجة وما قُسِمَ في النّاس شيء أقلّ من اليقين**»[1].

فـي مجال بيان مراتب الإيمان مـن التصديق المنطقي حتى الرؤية القلبية أو من علم اليقين إلى عين اليقين هناك عدة مسائل يجب بحثها ودراستها وهي:

1. إمكان الرؤية القلبية.

2. معنى الرؤية القلبية.

3. بيان السير التكاملي من الإيمان إلى اليقين.

إمكان الرؤية القلبية

ليسـت رؤية الله عن طريـق القلب في الإسلام ممكنة فقط بـل إنّ الإمام يصرّح فـي روايـات متعددة بأنه لا يعبد رباً لم يره. جاء فـي رواية معروفة أنّ شخصاً اسمه ذعلـب ذا لسـان بليغ في الخطب شجاع القلب سأل أميـر المؤمنين عليه السلام فقال: «يا أميـر المؤمنين هل رأيت ربّك؟ قال: **ويلك يا ذعْلبُ مـا كنت أعبد ربّاً لم أره**، فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟ قال: **ويلك يا ذعْلبُ لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص51.

(2) م. ن، ج1، ص138.

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام وقد دخل عليه رجل من الخوارج فقال له:

«**يا أبا جعفر أيّ شيء تعبد؟ قال: الله تعالى، قال رأيته؟ قال: بل لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يُعرف بالقياس ولا يدرك بالحواسّ ولا يُشَبّه بالناس موصوف بالآيات معروف بالعلامات لا يجور في حكمه ذلك الله لا إله إلا هو قال فخرج الرّجل وهو يقول الله أعلم حيث يجعل رسالته**»[1].

ويقول أبو بصير: سألت الإمام الصادق عليه السلام: «**قلت له أخبرني عن الله عز وجلّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ثمّ سكت ساعة ثم قال: وإنّ المؤمنين ليرونه في الدّنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقت هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له جعلت فداك فأُحَدِّث بهذا عنك؟ فقال: لا فإنّك إذا حدّثت به فأَنْكَرَهُ مُنْكِرٌ، جَاهِلٌ بِمَعْنَى ما تقوله، ثمّ قَدَّرَ أنّ ذلك تشبيهٌ وكفر، وليست الرّؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عمّا يصفه المُشَبِّهُون والملحدون**»[2].

وعن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا أُسْرِيَ بي إلى السّماء بلغ بي جبرئيل مكانا لم يطأه قطّ جبرئيل فكشف له فأراه الله من نور عظمته ما أحبّ**»[3].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء:

«**فأسألك باسمك الّذي ظَهرْتَ به لخاصّة أوليائك فوحَدوك وعرفوك فعبدوك بحقيقتك أن تُعرِّفني نفسك لأُقِرَ لك بربوبيّتك على حقيقة الإيمان بك ولا**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص97.
(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج4، ص44.
(3) م.س، ج1، ص98.

تجعلني يا إلهي ممّن يعبد الاسم دون المعنى والحظني بلحظة من لحظاتك تنوَّر بها قلبي بمعرفتك خاصّة ومعرفة أوليائك إنّك على كلّ شيء قدير»[1].

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك**»[2].

السير التكاملي من الإيمان إلى اليقين

لبيان هذا السير المعنوي يجب أن نسأل من طووا هذا المسير وهم في أوج قمة اليقين، أولئك الذين وصلوا في معرفة حقائق الوجود إلى مرتبة «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[3]. أي أن نستمع إلى كلام أهل بيت العصمة والطهارة، وأهل بيت الرسالة صلوات الله عليهم أجمعين، والذي يستفاد من مجموع كلامهم صلوات الله عليهم أجمعين في بيان هذا السير وبحسب ما ألمح إليه بعض الصالحين، أنّ هذا السير التكاملي يبدأ بالذكر ويختتم بالانقطاع. ولتوضيح الأمر نشير إلى النقاط التالية:

الأولى: ارتباط الإيمان والذكر

الذكر هو عبارة عن العمل بلوازم الإيمان، لأنّ لازم الإيمان والاعتقاد بخالق الكون هو العمل بالقوانين والبرامج التي أوحيت للأنبياء الإلهيين من أجل تكامل الإنسان. فحقيقة ذكر الله ليست إلاّ العمل بالقوانين الإلهية، وذكر الله باللسان هو جزء صغير من الذكر بالمفهوم العام. وبسبب هذا التلازم فسّر الإيمان بالعمل من باب المبالغة في حديث للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «**الإيمان عمل كله، والقول بعضُ ذلك العمل بفرض من الله**»[4].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج91، ص96.
(2) م. ن، ج95، ص226.
(3) م. ن ، ج40، ص153.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص33.

وعلى هذا الأساس لا يكون الإيمان قابلاً للبقاء بدون الذكر، وإذا انفصل الذكر عن الإيمان انطفأ هذا المصباح، وانهدم هذا البناء لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «**ذكر الله دعامة الإيمان**»[1]، أي أنّ الذكر أمر ضروريّ لبقاء بناء الإيمان، وبدون هذا العماد لا يمكن أن يكون للإيمان وجود خارجي.

وعليه فبعد تكوين جوهرة الإيمان في الروح، يبدأ الإنسان حركته نحو الكمال برأس مال الذكر والعمل بالقوانين الإلهية، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «**ذكر الله رأس مال كل مؤمن وربحه السلامة من الشيطان**»[2].

الثانية: ارتباط الذكر والحبّ

الذكر بالمعنى المذكور هو أساس حياة القلب والروح، لذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ذكر الله سبحانه أحيا الله قلبه ونوّر عقله ولب**»[3]. ودوام غذاء الذكر ضروريّ لاستمرار حياة الروح: «**مداومة الذكر قوت الأرواح**»[4]. وعندما يحيا القلب يستأنس بالله تدريجياً: «**الذكر مفتاح الأنس**»[5]. «**من أكثر ذكر الله أحبه**»[6]. إنّ لحبّ الله إذاً أثرين أحدهما أنّه يصون روح الإنسان ويعطيه العصمة من الحجب والأدران، والآخر أنه يجعل القلب منقطعاً لله.

الثالثة: ارتباط الحبّ والعصمة

إنّ أحد آثار وثمار الحبّ هو العصمة، بمعنى أنه عندما تصل علاقة ومحبة الإنسان لله إلى أوجها لا تسمح المحبة له بأن يفعل ما هو خلاف مراد المحبوب

(1) الآمدي، غرر الحكم، ص188.
(2) م. ن.
(3) م. ن، ص189.
(4) م. ن.
(5) م. ن.
(6) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 7، ص 154، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، مطبعة مهر - قم، 1414هـ، الطبعة 2، باب استحباب كثرة ذكر الله...، ح 1.

وتطهّـر القلب من جميع الرين. والعصمة هي الشيء الذي يمنع الإنسان من معصية الله، ويصونه من التلوّث بها، وما لم يستقرّ الإنسان في أوج قمة المحبة لله فلا يمكن أن يمتلـك الصيانة من المعصية، ولذا جاء في المناجـاة الشعبانية: «**إلهي لم يكن لي حوْل فأنتقل به عن معصيتك إلا في وقت أيقظتني لمحبتك**».

الحب لا يطهر الأدران من القلب ويصون الإنسان من التلوّث بالمعاصي فقط، بل يصون من الشبهة أيضاً. يقول رسول الإسلام ﷺ في حديث له: «**قال الله سـبحانه إذا علمت أنَ الغالب على عبدي الاشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حُلْتُ بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئـك الأبطـال حقـاً، أولئك الذيـن إذا أَرَدْتُ أن أُهلِـكَ أهل الأرض عقوبَـةً زَوَيتُهَا عنهم من أجل أولئك الأبطال**»[1].

الرابعة: ارتباط الحبّ والانقطاع

أثر الحبّ الثاني هو أنه يجذب العاشق للمعشوق بحيث يقطع أيّ نوع من الارتباط مع أيّ شخص وأيّ شيء آخر، وهذا هو معنى الانقطاع. وفي مناجاة المحبّين المروية عـن الإمـام زين العابدين في الصحيفـة السجادية: «**إلهي من ذا الـذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً**».

إذا حققنـا في الأمـور التي ذكرت في بـاب العبادة في برنامـج الأنبياء، نرى أن هـذه الأمور قـد نظمت بحيث إذا أنجـزت بشكل صحيح وتام، فـإنّ الإنسان سيصل بعـد مدة وبشكل طبيعي إلى حالة الانقطاع وقطـع الارتباط بكل ما سوى الله فتموت جميـع الأهواء في القلب وتتحقق فـي الإنسان هذه الخصوصية التـي ذكرها الإمام الصـادق عليه السلام فـي صفات المؤمن وهي «**ميّتة شـهوته**»[2]. حينئذ يكون نظر العين

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 9، ص162.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2،ص 230.

لله لا للهــوى، وسمــع الأذن لله لا للهوى، واليد والرجل تتحرّكان له عز وجل لا للهوى، وتصير إرادة الإنسان في نهاية الأمر مسلّمة لإرادة الحق، وبتعبير أدق وأعمق تصير إرادة الإنسان إرادة الله ويصل الإنسان إلى مقام الفناء في الله، وهو معنى الحديث القدسـي: «**مـا تقـرَب إليّ عبد بشـيء أحبّ إلـيّ ممّا افترضـت عليه، وإنّـه ليتقرَب إلـيّ بالنّافلـة حتّـى أحبّـه فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الذي يسـمع به وبصـره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته**»[1].

الخامسة: علاقة الانقطاع واللقاء

إنّ الإنســان طبقــاً للروايــات التــي وردت عــن المعصوميــن صلــوات الله عليهم أجمعيــن، لا يصل إلــى الكمال ولا ينال رؤيته القلبية واللقاء مــع الله عزّ وجلّ ما لم يحصــل الانقطاع. يقول سيد العارفين وإمــام الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام: «**لن تتصـل بالخالق حتى تنقطع عن الخلق**»[2]. ويقول عليه السلام أيضاً: «**الوصـلة بالله في الانقطاع عن الناس**»[3].

وفي المناجاة الشعبانية التــي تحتوي على مضامين عرفانية عالية وعميقة جداً، والتي كان المعصومون عليهم السلام بحسب المنقول يداومون على قراءتها: «**إلهي هب لي كمـال الانقطـاع إليـك وأَنِر أبصـار قلوبنا بضـياء نظرها إليك حتّى تخرق أبصـار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة**».

بنــاء على هــذا إنّ أول درجة للعروج والوصول للكمال هــي الذكر وآخر درجة هي الانقطــاع ويصل الإنسان في مرحلة أوج الانقطــاع إلى لقاء الله ورؤية الحق القلبية. ويمكــن استنباط السير التكاملي مــن الإيمان إلى اليقين، أو مــن الذكر حتى اللقاء

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص352.
(2) الآمدي، غرر الحكم، ص200.
(3) م. ن، ص199.

مـن هذه الأحاديـث المروية عن رسـول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول فيه: «**قال اللّه سـبحانه إذا علمت أنّ الغالب على عبدي الاشـتغال بي نقلت شـهوته في مسـألتي ومناجاتي فـإذا كان عبـدي كذلـك فـأراد أن يسـهو حُلْتُ بينه وبين أن يسـهو. أولئـك أوليائي حقاً أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال**»[1].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في خصائص «**أولي الألباب**» والعقلاء بعد أن يبيّن أنّ العقلاء هم الذين وصلوا إلى اللّه عن طريق الفكر والحب: «**إنّ أولي الألباب الّذين عملـوا بالفكـرة حتّـى وَرِثُـوا منه حُبَّ اللّه فـإنّ حُـبَّ اللّه إذا وَرِثَهُ القلب واستضـاء بـه أَسْـرَعَ إليـه اللُّطف فإذا نزل ﴿مَنْزِلَةَ﴾ اللّطف صـار من أهل الفوائد فإذا صـار من أهل الفوائد تَكَلَّمَ بالحكمة فصـار صـاحب فِطنَة فإذا نزل منزلة الفطنة عمل في القدرة فإذا عمل في القدرة عرف الأطباق السّـبعة فإذا بلغ هذه المنزلة صـار يتقلّـب فـي فكره بلطف وحكمة وبيان فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شـهوته ومحبّته فـي خالقـه فـإذا فعل ذلك نزل المنزلة الكبرى فعاين ربّـه في قلبه وورث الحكمة بغيـر مـا ورثه الحكمـاء وورث العلم بغير ما ورثـه العلماء وورث الصّـدق بغير ما ورثه الصّدِّيقون**»[2].

وعلـى هـذا الأسـاس يختصر الإمام الرابـع عليه السلام مطالبه الكثيـرة من اللّه في مجال تزيين الروح بالصفات الحسنة بعدة كلمات وهي: «**ونبّهني لذكرك في أوقات الغفلة، واسـتعملني بطاعتك في أيام المهلة، وانهج لي إلى محبتك سـبيلاً سـهلة أكمل لي بها خير الدنيا والآخرة...**»[3].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 90، ص162.

(2) م. ن، ج36، ص404.

(3) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.



المفاهيم الرئيسة

1. إنّ لمعرفة الله العقلية والقلبية مراتب عديدة، ولكلّ مرتبة شرائط خاصة.
2. أول مرتبة للمعرفة العقلية تبدأ من المعرفة البديهية وتنتهي بالإحاطة بكل براهين وأدلة معرفة الله وبالإجابة عن كل إيرادات المنكرين.
3. وأول مرتبة للمعرفة القلبية تبدأ من المعرفة الفطرية القلبية، وتختتم بتجاوز الحجب الظلمانية والنورانية والوصول إلى مرتبة تجلّي الذات.
4. معرفة الله عن طريق القلب لها مراتب أيضاً وأدنى تلك المراتب هو الإحساس الفطري بالحاجة للكمال المطلق.
5. إذا عمل الإنسان بلوازم الإيمان التي هي تنفيذ القوانين الإلهية، وبذل تمام قدرته بإخلاص في تنفيذ هذه القوانين في حياته الفردية والاجتماعية فسيحصل على مرتبة أعلى إلى أن يصل إلى اليقين.
6. الذي يستفاد من مجموع كلام المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين في بيان هذا السير المعنوي وبحسب ما ألمح إليه بعض الصالحين، أن هذا السير التكاملي يبدأ بالذكر ويختتم بالانقطاع.
7. إنّ أحد آثار وثمار الحبّ هو العصمة، بمعنى أنه عندما تصل علاقة ومحبة الإنسان لله إلى أوجها لا تسمح المحبة له بأن يفعل ما هو خلاف مراد المحبوب وتطهر القلب من جميع الرين.
8. أثر الحب الثاني هو أنه يجذب العاشق للمعشوق بحيث يقطع أيّ نوع من الارتباط مع أيّ شخص وأيّ شيء آخر، وهذا هو معنى الانقطاع.
9. الإنسان طبقاً للروايات التي وردت عن المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، لا يصل إلى الكمال ولا ينال رؤيته القلبية واللقاء مع الله عز وجل ما لم يحصل الانقطاع.



أسئلة الدرس

1. ما هي مراتب المعرفة العقلية وأهم شرائطها؟
2. ما معنى المعرفة القلبية؟ وما مدى إمكانية تحققها؟
3. ما هي أهم آثار المعرفة والرؤية القلبية؟



معاناة الفراق[1]

عزيـزي: لا تقـارن نفسك مع الأوليـاء، ولا تظن بأن قلبك يضاهـي قلوب الأنبياء وأهـل المعـارف. إن قلوبنا المشحونة بغبـار التعلق بالدنيا وملذاتهـا، وإن انغماسنا فـي الشهـوات يمنع قلوبنا مـن أن تكون مرآة لتجلـي الحق سبحانـه، ومحلاً لظهور المحبـوب. ومـن المعلوم أننا لا نعـي شيئاً من تجليات الحـق وجماله وجلاله عندما نشعر بالأنانية والذاتية والمحورية بل يجب أن نكذّب في هذا الحال أحاديث الأولياء وأهل المعرفة، فإن لم نكذّبها بألسنتنا في الظاهر، لكذّبناها في قلوبنا. وإن لم نجد سبيـلاً للتكذيب، بأن كانت أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة المعصومين عليهم السلام، لفتحنا باب التأويل والتفسير، وفي النهاية نسدّ باب معرفة الله.

فنفسـر قوله: «**مَـا رَأَيْتُ شَـيْئاً إلاّ وَرَأَيْتُ الله مَعَـهُ وَقَبْلَهُ وَفيـه**» على رؤية الآثار. وقولـه: «**لَمْ أَعْبُدْ رَبّاً لَـمْ أَرَهُ**» **بالعلم بالمفاهيم الكلية التي تضـارع علومنا، وقوله فـي آياتـه الكريمة التـي تتحدث عن لقـاء الله، بلقاء يوم الجـزاء. وقوله:** «**لي مَعَ الله حَالَةٌ**» بحالة الرقّة في القلب. وقوله: «**وَارْزُقْني النَّظَرَ إلَى وَجْهكَ الْكَرِيم**» وتأوّه الأوليـاء وتحرّقهم فـي معاناة الفراق، بالبعـد عن حور العين، وطيـور الجنة. وهذه التفاسيـر لا تكـون إلا نتيجـة أننـا لا نكون رجال تلـك الساحات، ولا نفهـم إلا المتع الحيوانية والجسمانية دون غيرها، ولهذا ننكر جميع المعارف. والأنكى من كل ذلك، هـذا الإنكار الـذي يفضي إلى غلق باب كل المعـارف، ويحجزنا عن السعي والطلب، ويجعلنـا نقتنع بمستـوى الحيوانيـة والبهيمية، ويحرمنـا من عوالم الغيـب والأنوار الإلهية. لقد أصبحنا نحـن المساكين المحرومين نهائياً من المشاهدات والتجليات

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث الثامن والعشرون، ص 507.

فـي منأى حتـى عن الإيمان بهذه المعانـي التي هي درجة من الكمـال النفسي والتي يمكـن أن تسوقنـا إلى مرحلة متقدمة. إننـا نهرب من العلم الذي قـد يكون منطلقاً وبـذرة للمشاهدات، ونغلق عيوننـا وأسماعنا نهائياً ونضع القطـن في آذاننا حتى لا يتطـرق كلام الحق إليها. وإذا سمعنا حقيقـة من لسان عارف هائم أو سالك حزين أو فيلسـوف متأله، نتصدى فـوراً نتيجة عدم طاقة آذاننا على استماع تلك الحقيقة، ونتيجـة أنّ حُبَّ النفس يمنعنـا من جعل هذه الحقائق أسمى من قدرة استيعابنا لها، ونتصدى فوراً للطعن فيه ولعنه وتكفيره وتفسيقه، ولا نأبى من أي غيبة أو تهمة.

الإمام الخمينيقدس سره



الدرس الخامس

المعرفة التوحيدية



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يبيّن المدلول الحقيقي لعقيدة التوحيد، أنواعها وأهدافها.

2-يستدل على أنّ الطاعة والانقياد والتسليم للّه هي من لوازم المعرفة التوحيدية.

3-يستدل على أنّ ولاية وحاكمية المعصوم في الأرض هي من اللوازم الأساسية للمعرفة التوحيدية.

هدف عقيدة التوحيد

ترتبط صبغة الحياة الإنسانية وتفاصيل سلوك الإنسان بالجانب العقائدي الذي يحمله، وبالمفاهيم العقدية التي تفرض تأثيرها في حياة الإنسان - سواء على المستوى السلبي أم على المستوى الإيجابي- وعلى شخصيته وتفكيره وسلوكه وصولاً حتى إلى عبادته وسياسته، ثم منحى حكومته ونظامه. ومن أهم هذه الأصول والمبادئ العقائدية «**التوحيد**». التوحيد الإلهي الذي يعني في مدلوله الحقيقي وبعده العلمي، تمام الخضوع للّه سبحانه وحده، ونفي الخضوع والطاعة والتبعية لغيره، وترجمة هذه العقيدة التوحيدية ممارسةً دقيقة في مختلف مناحي الحياة...

وإنّ عقيدة التوحيد تحدد لمهمتها هدفاً كريماً، هو إصلاح الإنسان وإصلاح المجتمع، وإصلاح الدولة التي أخذت على عاتقها إدارة المجتمع. فتخطط لتوجيه الإنسان والعلاقات الإنسانية والاجتماعية في أروع صيغة ينمو في أجوائها الإنسان بهدف الوصول إلى الكمال الإنساني اللائق به.

ولا شك في أنّ إيمان المؤمن بوحدانية اللّه سبحانه، يدفعه إلى التسامي نحو ما يرضي اللّه عزّ وجلّ، فيعاهد نفسه على أن لا يتمرد على أوامر مولاه ونواهيه، فيسري جوهر التوحيد إلى كيانه اقتراباً من الكمال المنشود. فما أكثر ما أشارت

آيات الكتاب الكريم إلى وجوب الصلة بين إيمان المؤمن وعمله الصالح، ليتوافق فيه باطن الإيمان مع ظاهر العمل، ليكون باباً ومقدمة لإشراق نور التوحيد في القلب.

التوحيد النظري والعملي

إنّ مفهـوم التوحيد الإلهي يمرّ بمرحلتين اثنتيـن لا تكتمل الأولى منهما إلا بتمام الثانية، وهما:

1. التوحيد النظري:

والـذي يعني عقد العقل على التوحيد الإلهي، والإيمـان بوحدانيته تعالى، وسائر صفاته الجلالية والجمالية. وهنا لا بدّ من بيان مفهوم التوحيد الإلهي على المستوى النظـري، والإحاطـة بمعناه حتى لا يقـع الموحِّد في إشكاليـات التوحيد في مفهومه الخاطئ، وذلك أن هناك مفهومين للمبدأ الواحد:

الأول: مفهوم محرّف.

الثاني: مفهوم سليم.

أمـا المفهوم المحرَّف للتوحيد، فهو الـذي يعتبر الإله الواحد موجوداً منعزلاً عن الكـون والمجتمع، انقضت مهمته في عالم الوجود بعد خلقـه للكون والإنسان، وليس على الإنسان إلا أن يقدّره ويحترمه ويقدسه على إحسانه الأول وفيضه الأزلي في خلق الأشياء من العدم. فالإله على ضوء هذا المفهوم الخاطئ موجود منفصل تماماً عن واقـع الحيـاة الإنسانية، ليس له بهـا أي دخل أو مساس، وما علـى المخلوق سوى أن يقدسـه فحسـب. وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض مراحـل هذا المفهوم المحرَّف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾[1].

(1) سورة المائدة، الآية: 64.

وأمـا المفهـوم السليم للمبدأ الواحـد، فهو الذي يعتبر الإلـه الواحد مهيمناً على الوجـود كلّـه ومفيضاً سيبَه على مخلوقات العوالم العُلويـة والسُفلية كلها في آن. كما يرى أن الوجود كله بمراتبه المتفاوتة قائمٌ بذاته تعالى ومن إشراقات وجوده الواجب. فهـو اللّه سبحانه المهيمن بولايته الكلية المطلقة والشاملة العامة على عرش الوجود وعالـم التكويـن ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[1]. وهو عـزّ اسمه القائم بالقسط على نظام العدل والإنصاف في جميع مراحل التكوين ونزول نور الوجود إلى العالم الأرضي ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾[2].

ويلاحظ في القرآن الكريم مستوى مميز من إظهار العناية بهذا المفهوم الصائب لقضية التوحيـد وتوضيحها وإزاحة الشبهات وإزالـة الغموض عنها، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[3].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[4].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

(1) سورة الكهف، الآية: 44.
(2) سورة آل عمران، الآية: 18.
(3) سورة الرعد، الآية: 16.
(4) سورة الرعد، الآية: 2.
(5) سورة المائدة، الآية: 17.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

إلى غير ذلك من عشرات الآيات المباركة الواردة في دقائق مفهوم التوحيد النظري ودلالاته...

2. **التوحيد العملي:**

يقصد به أن يكون الإنسان في عمله كله خاضعاً للّه وحده. وهذا المستوى في الحقيقة ناتج طبيعي ومنطقي عن مستوى التوحيد النظري. بمعنى أن صدق التوحيد العملي واشراقاته السلوكية إنما تتجلى من خلال التوحيد النظري، وتجسيدات آثاره الخيرة في عقل المؤمن. ذلك لأن الاعتقاد بكون الأشياء كلها خاضعة للّه وتابعة لأمره ومشيئته وتدبيره، يقتضي خضوع الإنسان للّه في عمله وتصرفاته وتبعيته له تعالى في حياته.

ومعنى ذلك، أن التوحيد العملي في واقعه هو توحيد الطاعة للّه سبحانه، وتتمثل حقيقة العمل بالتوحيد في التزام خط الطاعة الإلهية في جميع شؤون العبد، سواء كانت فردية أو جَماعية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية.

ففي مجال التوحيد النظري لا بد للموحّد أن لا يرى مؤثراً في الوجود على نحو الاستقلال غير اللّه تعالى، وأن يعتقد أن الأمر كله بيد اللّه، وأن إليه تصير الأمور، وأن له الخلق والأمر، وأن له من في السموات والأرض، وما فيهما، وأن له المُلك وأنه يفعل ما يشاء، ولا يفعل ما يشاء غيره..

وإذا كانت شؤون الخلق والتكوين كلها بيد اللّه تعالى كما هو مقتضى التوحيد النظري، فلا بد أن يوجه العبد إرادته وفق الوجهة التي يريدها اللّه سبحانه، وأن

(1) سورة الزمر، الآية: 67.

يحـرّك اختياره على أساس انسجام أفعاله الإراديـة والاختيارية مع إرادة الله وأمره ونهيه، وأن يجعل إرادة الله فوق إرادته، وأمره ونهيه فوق هواه ورغبته.

وثمـة طوائف من الآيات المباركة فـي القرآن الكريم ترسم لنـا طريقة التوحيد العملـي التـي يعبّـر عنها القـرآن الكريـم بملـة إبراهيم عليه السلام ويصـف الموحدين العمليين بالمسلمين، ويجعل الإسلام مرادفاً لتوحيد الطاعـة والخضوع التام لله سبحانه، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

إن هـذا المعنى لإسلام الوجه والطاعة الشاملـة لله سبحانه هو الذي يحتّم على العبـد أن يكـون في وجهتـه وطريقته التي يسلكهـا في الحياة وفي كل مـا تتوجه إليه إرادته، خاضعاً لله سبحانه مطيعاً لتكاليفه، ممتثلاً لإرادته، معرضاً عمن سواه...

(1) سورة الحج، الآيتان: 77 – 78.
(2) سورة الأنعام، الآيات: 161 – 164.
(3) سورة غافر، الآية: 66.

وإن هــذا المستوى من الإســلام للّه وتوحيده العملي إنما يتحقق بالخضوع لحكمه الجــاري علــى أيدي عبــاده الصالحين، بل لن يكــون إسلام إلا بهــذه التبعية للقادة الإلهيين من الأنبياء والأوصياء والصالحين.

لا استثناء في الإيمان التوحيدي

وعندما تتحكم هذه النظرة التوحيدية بملك اللّه سبحانه وهيمنته على الكون كله، فهي تأبى أيَ استثناءٍ، فليس الإنسان ولا حياته الفردية والاجتماعية محل استثناء في هــذه النظرة الشاملة، بل لا يمكن أن يكون الإنسان نشازاً في هذه المجموعة الكونية الخاضعة للّه تبارك وتعالى.

وإذا كان مصــدر القرار والحاكمية في الكون واحــداً وهو اللّه سبحانه، وإذا كان الإنســان ضمن هذه المجموعة الكونية الخاضعة لولاية اللّه وسلطانه، فليست الولاية في حياة الإنسان إلا للّه وحده.

ومــن هنا يصبح مقتضــى التوحيد العملــي، توحيد الولاية والطاعــة للّه سبحانه وتعالــى، ونتيجة ذلك أن قبــول ولاية غير اللّه والتسليم والخضــوع لغير اللّه سبحانه يمثّل خروجاً عن طريقة التوحيد.

إن قانــون الوجود الإلهي يمنح الإنسان أسباب البقاء، التي صار الإنسان بموجبها تابعاً تكويناً للسلطة الإلهية ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[1]. وانسجاماً مــع قانون التكوين يــدرك العقل الإنساني لــزوم الإتباع والعمل بالتوجيــه الإلهي، إذ العقــل الذي يــدرك ارتباطــه وحاجتــه المستمرة للــذات المطلقة الغنيــة المحيطة بطبيعة التكوين الإنســانــي وملابساته الطبيعية المختلفة، هذا العقل نفسه يدرك أن المصلحة الحقيقية هي في اتباع التخطيط الإلهي الذي ترسمه شرائع الرحمن لسد نقصــ الإنسان المحدود، الذي لا يقدر على تقديم الصورة الصالحة لنظام الحياة،

(1) سورة الزمر، الآية: 62.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1]

كما يدرك أيضاً أن حق التخطيط والتوجيه بالأصالة بيد هذه القدرة دون سواها.

ومن هنا يتبلور المفهوم الإسلامي السائد، وهو أن حق التشريع والسلطة محصور بيد الله سبحانه وتعالى، ولا طاعة لغيره ولا اتباع لسواه. فالإسلام يوصل وجهته التشريعية بنظرته التكوينية، إذ السلطنة في عالم التكوين للّه وحده والولاية في عالم التشريع للّه فحسب.

التوحيد ونظام الولاية

ولكن كيف يأخذ التوحيد العملي أو الطاعة والولاية المطلقة الإلهية، مجراه الطبيعي في حياة الإنسان؟ وكيف ينطبق الإسلام الحقيقي على حياة الإنسان وتُصاغ شؤون هذه الحياة ومجالاتها على ضوء هداه؟

ليس هناك إلا طريق واحد، وهو أن ينصِّب الله سبحانه وتعالى في عباده رمزاً يأمرهم بطاعته واتباعه، ويفرض عليهم ولايته لتكون طاعتهم له طاعةً للّه، والخضوع لولايته خضوعاً لولاية الله وذلك هو النبي ﷺ أو الإمام المعصوم عليه السلام أو الحاكم العادل النائب عن المعصوم في حال غيبته.

إن مالكية الله سبحانه كأصل وجوده، فهي واقعية مسلّمة وغير قابلة للتغيير، قد وُضعت في فطرة كل إنسان وطينته، ووظيفة كل إنسان يطلب الحق ويسعى إليه هو أن يرفع موانع شهود هذه الحقيقة عن عين بصيرته، وأن ينظر في مكنون فطرته.

وهذه المسألة تجري أيضاً في أصل التوحيد، وتحليل معنى الكلمة الطيبة، «**لا إله إلا الله**» فإنها تنحل إلى قضيتين مستقلتين، إحداهما: نفي الطاغوت، والثانية: إثبات الحق. إذن... فهناك طريقان أمام الإنسان، ليس لهما ثالث وهما:

---

(1) سورة يوسف، الآية: 40.

الإيمـان بالله تعالـى وحده، أو الإيمـان بالطاغوت. وكل ما سـوى الله سبحانه أو مـن لا يتصل بالله تعالى فهو طاغوت، إلا أن تكون طاعته منبثقة من طاعة الله بأمر مـن الله، وكان الانقيـاد لـه انقياداً لله سبحانـه، وذلك هو الـذي ينصبه الله تعالى علـى الناس إماماً وقائداً ليسلـك بهم طريق الطاعة الإلهية ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وانطلاقاً من هذا الأساس التوحيدي المفصلي يتضح أن كل طاعة وانقياد من جانب العبد إذا لم ينتهِ إلى طاعة الله والانقياد إليه تكون من طاعة الطاغوت وولايته. كما أن كل مطاع لا تنتهي طاعته إلى طاعة الله، فإنه طاغوت. بمعنى أن إطاعة أي إنسان حتى الوالدين أو الصديق أو القادة والزعماء والرؤساء السياسيين والحزبيين إنما تجوز أو تجب بإذنٍ من الله تعالى، ووفق الضوابط والمحددات الشرعية لذلك، وإلا فإنه من عبادة الطاغوت. وقد وردت بذلك روايات كثيرة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام:

منهـا: مـا روي عـن الإمام الصـادق عليه السلام في قـول الله عزّ وجـل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، قال عليه السلام: **شرك طاعة وليس شرك عبادة**»[2]

ومنهـا: مـا رواه الصـدوق بإسنـاده عن الصـادق عليه السلام أيضـاً أنه قـال: «**إيّاك والرئاسـة فمـا طلبها أحد إلّا هلك فقلت قد هلكنـا إذاً ليس أحد منا إلا وهو يحبّ أن يُذكَر ويُقصَد ويُؤخَذ عنه فقال ليس حيث تذهب إنما ذلك أن تَنْصِبَ رجلاً دون الحُجَّة فَتُصَدِّقَهُ في كلّ ما قال وتدعو الناس إلى قوله**»[3].

وعنـه عليه السلام أيضـا أنه قـال: «**إياكم وهـؤلاء الرؤسـاء الذين يترأسـون، فوالله مـا خفقـت النعال خلـف الرجل إلا هلك وأهلك**»[4]. وسبـب ذلك: أن المسعور بحب

(1) سورة البقرة، الآية: 256.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص397.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج27، ص129.
(4) م.س، ج2، ص397.

الرئاسة عادة ما ينتهي إلى طاغية متجبر، لا يبالي بما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته، وهو بالتالي مستعد لتحريف أحكام الشريعة وتجاوز حدودها.. لأن ضميره قد سقط وبعد هذا، فهل نعي أساس التوحيد وإشراقاته المترجمة في سلوك الإنسان، وارتباطه الحميم بأساس نظام الولاية في الحياة وإشكالية مأزق الخضوع للأولياء الكاذبين، والعمل ضمن الخطوط والتيارات التي لا تنتهي في مواصفاتها الموضوعية إلى خط الله سبحانه وتوحيده؟.. وليس علينا ها هنا إلا أن نصغي بتدبر ووعي إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[1]. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2].

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الكهف، الآية: 50.



المفاهيم الرئيسة

1. التوحيد الإلهي يعني تمام الخضوع للّه سبحانه وحده، ونفي الخضوع والطاعة والتبعية لغيره.
2. عقيدة التوحيد هدفها إصلاح الإنسان وإصلاح المجتمع، وتوجيه الإنسان والعلاقات الإنسانية والاجتماعية نحو الهدف الحقيقي للخلقة وهو الوصول إلى الكمال الإنساني اللائق به.
3. التوحيد النظري يعني عقد العقل على الإيمان بوحدانيته تعالى، وسائر صفاته الجلالية والجمالية.
4. التوحيد العملي في واقعه هو توحيد الطاعة للّه سبحانه. وتتمثل حقيقة العمل بالتوحيد في التزام خط الطاعة الإلهية في جميع شؤون العبد، سواء كانت فردية أو جَماعية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية.
5. إن مقتضى التوحيد العملي، توحيد الولاية والطاعة للّه سبحانه وتعالى، ونتيجة ذلك أن قبول ولاية غير اللّه والتسليم والخضوع لغير اللّه سبحانه يمثّل خروجاً عن طريقة التوحيد.
6. عندما تتحكم هذه النظرة التوحيدية بملك اللّه سبحانه وهيمنته على الكون كله، فهي تأبى أيَ استثناءٍ، فليس الإنسان ولا حياته الفردية والاجتماعية محل استثناء في هذه النظرة الشاملة.
7. لكي يأخذ التوحيد العملي أو الطاعة والولاية المطلقة الإلهية، مجراه الطبيعي في حياة الإنسان ليس هناك إلا طريق واحد، وهو أن ينصِّب اللّه سبحانه وتعالى في عباده رمزاً يأمرهم بطاعته واتباعه، وهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام المعصوم عليه السلام أو الحاكم العادل النائب عنه.



أسئلة الدرس

1. مفهوم التوحيد الإلهي يمرّ بمرحلتين اثنتين، أذكرهما وتحدث عن واحدة منهما.
2. كيف يأخذ التوحيد العملي مجراه الطبيعي في حياة الإنسان؟
3. ما هو مقتضى التوحيد العملي؟ وما هي أهم نتائجه وآثاره؟



أقسام العلوم النافعة[1]

اعلم - قد تقدم سابقاً - بأن للإنسان - إجمالاً وبصورة كلية - نشآت ومقامات وعوالم ثلاثة:

الأولى - نشأة الآخرة، وعالم الغيب، ومقام الروحانية والعقل.

الثانية - نشأة البرزخ وعالم متوسط بين العالمين، ومقام الخيال.

الثالثة - نشأة الدنيا ومقام المُلك وعالم الشهادة. ولكل منها كمال خاص وتربية خاصة وعمل يتناسب مع نشأته ومقامه، وأن الأنبياء عليهم السلام يتولّون بيان تلك الأعمال.

فجميع العلوم النافعة تنقسم إلى هذه العلوم الثلاثة:

علم راجع إلى الكمالات العقلية والوظائف الروحية، وعلم راجع إلى الأعمال القلبية ووظائفها، وعلم راجع إلى الأعمال القالبية الخارجية، ووظائف النشأة الظاهرة للنفس.

أما العلوم التي تقوّي العالم الروحاني، والعقل المجرد وتربيتهما فهي: العلم بالذات المقدس الحق جلّ وعلا، ومعرفة أوصافه الجمالية والجلالية، والعلم بالعوالم الغيبية المجردة مثل الملائكة وأصنافهم من أعلى مراتب الجبروت الأعلى والملكوت الأعلى إلى نهاية الملكوت السفلي والملائكة الأرضية وجنود الحق سبحانه. والعلم بالأنبياء والأولياء ومقاماتهم ومدارجهم، والعلم بالكتب المنزلة، وكيفية نزول الوحي، وتنزّل الملائكة والروح، والعلم بنشأة الآخرة وكيفية عودة الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالم البرزخ والقيامة، وتفاصيل ذلك.

(1) الإمام الخميني قدس سره الأربعون حديثاً، الحديث الرابع والعشرون، ص434.

وملخص الكلام أن العلم الذي يرتبط بالعالم الروحاني والعقل المجرد، هو العلم بمبدأ الوجود وحقيقته ومراتبه وبسطه وقبضه وظهوره ورجوعه. ويتكفل بيان هذا العلم بعد الأنبياء والأولياء، الفلاسفة والعظام من الحكماء وأصحاب المعرفة والعرفان.

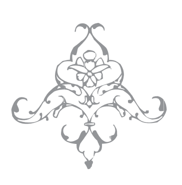
أما العلوم التي ترتبط بتربية القلب وترويضه والأعمال القلبية فهي: العلم بالمُنجيات الخُلُقيّة والمهلكات الخُلقية، أي العلم بمحاسن الأخلاق مثل الصبر، والشكر، والحياء والتواضع، والرضا والشجاعة والسخاء والزهد والورع والتقوى وغير ذلك من محاسن الأخلاق، والعلم بكيفية تحصيلها وأسباب حصولها ومبادئها وشرائطها، والعلم بقبائح الأخلاق مثل الحسد والكبر والرياء والحقد والغش وحب الرئاسة والجاه وحب الدنيا والنفس وغير ذلك، والعلم بمبادئها التي تمنحها الوجود، والعلم بكيفية التنزه عنها. والذي يتولّى بيان هذه الأمور أيضاً الأنبياء والأوصياء عليهم الصلاة والسلام ثم علماء الأخلاق وأصحاب الرياضة الروحية وذوو المعارف.

والعلوم التي تناط بها تربية الظاهر وترويضه، علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب المعاشرة وتدبير المنزل، وسياسة المُدُن. ويتكفل بشرحها الأنبياء ثم الأولياء عليهم السلام ثم علماء الظاهر من الفقهاء والمحدّثين. ولا بدّ من معرفة كل واحدة من هذه المراتب الثلاث الإنسانية المذكورة مترابطة بدرجة، تنعكس آثار كل مرتبة على المرتبة الأخرى من دون فرق في ذلك بين الأمور الكمالية، أو الأمور القبيحة المعيبة.



الدرس السادس

موانع معرفة اللّٰه
(الظلم - والكفر - والتكبّر)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يبيّن علّة جحود الحقّ وإنكاره عند أكثر الناس رغم فطرة التوحيد.

2- يبيّن ما هي أهمّ الحجب والموانع التي تمنع من قبول الإنسان وإذعانه للتوحيد.

3- يذكر أنواع الحجب التي تحول دون معرفة اللّٰه وكيفية الخلاص منها.

مقدمة

كان الـكلام عـن فطرة معرفـة اللّه، وأنّ العقـل لا طريق له لحلّ لغـز الوجود إلّا بالاعتقـاد بـاللّه، وأنّ كل عالم الوجـود هو آيات وعلائم واضحـة وقاطعة على وجود خالق الكون، وأنّ الإنسان بالأصل قد وُجد مفطوراً على البحث عن اللّه، وعلى معرفته وتوحيده، وأنّ لمعرفة اللّه جذوراً في قلبه وروحه وفطرته.

فلسفة الإنكار

وهنـا سـؤال يطرح نفسـه وهو لمـاذا نواجه في التاريـخ أشخاصـاً منكرين للّه، وشاهدنا في القرنين الأخيرين أحزاباً وجموعاً كثيرة يقومون بأنشطتهم على أساس إنـكار الخالق بل على المناهضـة الشديدة للدين. وبتعبير آخر مـا هي الدوافع نحو الإنـكار؟ أليس لـدى هؤلاء فطرة معرفـة اللّه؟ ألا يسمع هؤلاء نـداء الوجدان ونداء العقل الواضح القاطع؟

والجـواب أنّ للمعرفـة العقليـة والقلبيـة شروطاً ينبغـي مراعاتهـا وموانع ينبغي تجنّبهـا، فيجب أن توجد شرائطها وتزال موانعها حتـى تتحقق المعرفة. والمنكرون للّه هـم مبتلون عموماً بهذه الموانع. وكمـا أنّ المريض أثناء مرضه لا يحس بالجوع، وعـدم إحساسه بالجوع ليس دليلاً على أنه ليسـ جائعاً، أو أنه فاقد لهذا الإحساس الطبيعـي والفطـري بالجوع، ولكن المرض في الحقيقة مانـع لفعلية هذا الإحساس.

كذلك هو حال المنكرين لله أيضاً، فهم يمتلكون حس معرفة الله ولكن بما أنهم مصابون بمرض نفسي ناشئ من موانع المعرفة، فلن يصبح هذا الإحساس فعلياً في وجودهم.

وكما أنّ الحب والبغض يمنعان الإنسان عن معرفة حقيقة المحبوب والمبغوض، ويحولان أحياناً دون سماع نداء العقل الواضح والقاطع فيما يرتبط باتخاذ الموقف الصحيح والعقلائي بالنسبة للمحبوب والمبغوض، كذلك فإنّ الجهل والعصبية والحقد والعادات والتقاليد وغيرها من الأمور... يمكن أن تحرم الإنسان وتفقده القدرة على الإنصات لنداء العقل الذي يدعوه دائماً للبحث عن الحق والحقيقة، وبالتالي يفوّت على نفسه فرصة حقيقية لمعرفة الله والحق كما هو. بناءً على ذلك فإنّ مرض القلب وحجاب العقل مانعان أساسيان للإحساس بالحقائق المعنوية والوصول إليها والتحقق بها.

الظلم والكفر والتكبّر أساس كلّ احتجاب

من الحجب والموانع الأساسية التي تقف كالسد المنيع أمام هداية الإنسان وتحول بالتالي دون وصوله إلى الهدف الأصيل والمعرفة الحقيقية بخالق الكون، ومع ما يترتّب على هذه المعرفة من الآثار واللوازم، الظلم والكفر والتكبر.

إنّ الظلم الذي يعني وضع الشيء في غير مكانه الخاص به، والكفر الذي يعني إخفاء الحقيقة بدافع جلب النفع والتحقير والتعصب، والتكبر الذي يعني الاستعلاء والترفّع على الآخرين، هي حجب تعمي بصيرة العقل والقلب، وأمراض إذا ابتلي بها الإنسان حرمته قطعاً من معرفة الحقيقة والتحقق بها.

ويلاحظ أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الحقيقة وبيانها بتعبير دقيق في غاية الروعة والجمال، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾[1].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 47.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[1]. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾[2].
﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[3].

إذن فالظلم والكفر والتكبر بصريح هذه الآيات هي حجب تمنع الإنسان من التصديق بالحقيقة والاعتراف بها. وحتى لو اعترف الإنسان بحقيقة ما فإنّ الظلم والكفر يمنعانه من العمل بما اعتقد به عقلاً ويدفعانه على مستوى القلب إلى إنكار ما هو معترفٌ به على حد تعبير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[4].

جذور هذه الحجب

ومما ذكرناه اتضح أنّ القرآن الكريم يعلن بشكل صريح أنّ الظلم، والكفر، والكبر والتعالي هي حجب تمنع الإنسان عن إدراك الآيات والعلامات والدلائل الإلهية الواضحة والقطعية أو أن يعترف بها إذا أدركها.

وهنا يطرح سؤال وهو: ما هي جذور هذه الموانع؟

والجواب: إنّ جميع موانع معرفة الله ترجع إلى أصل واحد وهو الهوى وحبّ النفس. وقد صرّح القرآن الكريم بهذا المعنى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾[5].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6].

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[7].

(1) سورة الأنعام، الآية: 33.
(2) سورة لقمان، الآية: 32.
(3) سورة غافر، الآية: 35.
(4) سورة النمل، الآية: 14.
(5) سورة البقرة، الآية: 87.
(6) سورة البقرة، الآية: 145.
(7) سورة الروم، الآية: 29.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

ولقد صرّح الإمام الصادق عليه السلام بهذا المعنى أيضاً في قوله: «**ولعمري ما أُتيَ الجُهَّالُ من قبَل رَبِّهِمْ وإنّهم لَيَرَوْنَ الدّلالات الواضحات والعلامات البيِّنَات في خَلْقهِمْ وما يُعَايِنُونَ في ملكوت السّماوات والأرض والصُّنْعَ العجيب المُتْقَنَ الدَّالَّ على الصَّانعِ ولكنّهم قوم فتَحُوا على أنفسهم أبواب المعاصي وسهّلُوا لها سبيل الشّهوات فغلبت الأهواء على قلوبهم واستحوَذَ الشّيطان بظُلمهم عليهم وَكَذَلكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِي**»[2].

في هذه الرواية تصريح واضح أنّ إنكار الله والتكذيب بالآيات الإلهية هو من الآثار المباشرة للهوى والمعصية وليس معلولاً لأمور هي من نتائج جبر المحيط. ولو علم الله أن شخصاً يتبع الحقيقة إذا عرفها وأن علة خطإه هو الجهل فإنه قطعاً سيجعل له طريقاً للخروج من جبر المحيط وإن كان يعيش في أفسد الأجواء، وهو لون من اللطف الإلهي بالعباد. وفي المقابل يسمي الله سبحانه وتعالى الأشخاص الذين حرموا من معرفة الحقيقة بسبب ابتلائهم بحجاب موانع المعرفة، بشرّ الدواب يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3].

وعلى هذا الأساس إننا نجد في التاريخ أشخاصاً عاشوا في أجواء فاسدة ولم يكن لهم طريق لمعرفة الحقيقة بالشكل الطبيعي فوجدوا طريق سعادتهم في ظل العنايات الغيبية الإلهية، حتى أنّ أحد أعظم الأنبياء الإلهيين وهو نبي الله موسى، كان قد تربى في أفسد أجواء عصره يعني في حضن فرعون، وقد ترعرع خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشبّ في أحطّ مجتمعات عصره أي الجزيرة العربية.

(1) سورة ص، الآية: 26.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج3، ص152.

(3) سورة الأنفال، الآية: 23.

الموانع الدائمة والمؤقتة

إنّ موانع المعرفة قد تكون أحياناً مؤقتة وقابلة للعلاج، وأخرى قد تكون دائمة وغير قابلــة للعلاج. فالهوى والمعصية وآثارهما مــن الظلم، والكفر والإسراف وغيرها... إذا ظهرت بصورة عادة وملكة نفسانية راسخة ومتجذرة في النفس، ففي هذه الحالة تكون المانعية دائمة، والإنسان غير قادر على معرفة اللّه ولا إدراك الحقيقة.

أمــا إذا لم يتحوّل الهوى وآثاره إلى صفــة ثابتة للروح فإنّ مانعيته من معرفة اللّه تكــون مؤقتــة وقابلة للعــلاج. وبتعبير آخر كمــا أنّ الأمراض الجسميــة ما لم تصبح مزمنــةً، ولم تفسد المزاج بشكل كامل، فهــي قابلة للعلاج، كذلك الأمراض النفسية مــا لم تصبح مزمنة ولم تفسد مزاج القلب والروح الإنسانية بشكل كامل، فهي قابلة للعــلاج أيضاً. أما إذا سرى المرض إلى كل القلب والروح، وانعدم الاستعداد لإدراك الحقائــق بشكل كامل، ففي هذه الحالة لن يكون قابلاً للعلاج، وسوف يحرم الإنسان بشكل تام من معرفة اللّه.

يعبّر القرآن الكريم عن آثار هذه الأمراض بتعابير مختلفة مثل: القساوة، الختم، الطبــع، والرين وغيرها... فالقلب عندما يبتلى بمرض الهوى يصبح قاسياً على نحو تدريجــي، حتى تعــم القساوة القلب كله، فيصير كالحجر بــل وأقسى أيضاً، وهنا لن يؤثر كلام الحق فيه، كالمسمار الذي لا يؤثر ولا ينفذ في الحجر.

يقــول اللّه سبحانــه مبيّناً هذه الحقيقة في القــرآن الكريم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾[1]، فبعــد نقل الحجج والدلائل الكثيرة والواضحة والقاطعة لبني إسرائيل، إلا أنها لم تؤثّر في جذبهم نحو الحق سبحانه وتعالى.

(1) سورة البقرة، الآية: 74.

وهـذا يعني أنّ الحجاب قد يكون أحياناً سميكاً وصلباً إلى درجة أنه لا يمكن شقه أو اختراقه ليتمكن القلب من مشاهدة الحقيقة.

فعندمـا يسيطر الهوى على القلب، وبتعبير القـرآن الجميل، عندما يصير الهوى إلـه الإنسـان، فالله تعالى يقفل باب المعرفة القلبيـة، ويطبع على القلب ويختم عليه بقـوة: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾[1]. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[2]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

أمـا بالنسبة للموانع المؤقتة فيوجـد نوعان من الدواء لمعالجتهـا وإزالة الصدأ الـذي لم يفسد جوهر مـرآة القلب بعد؛ أحدهما اختياري من خـلال الذكر والتفكر ومجاهـدة النفسـ، والثاني غير اختيـاري من خلال المحن والبـلاءات التي تصيب الإنسان في الحياة الدنيا.



(1) سورة الجاثية، الآية: 23.

(2) سورة يونس، الآية: 74.

(3) سورة الأعراف، الآية: 101.

المفاهيم الرئيسة

1. للمعرفة العقلية والقلبية شروط ينبغي مراعاتها وموانع ينبغي تجنّبها، فيجب أن توجد شرائطها وتزال موانعها حتى تتحقق المعرفة.
2. الظلم والكفر والتكبر من الحجب والموانع الأساسية التي تحرم الإنسان من الهداية، وتحول دون الوصول إلى المعرفة الحقيقية والتحقق بها.
3. جميع موانع معرفة اللّه ترجع إلى أصل واحد وهو الهوى وحب النفس. وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى في العديد من الآيات الشريفة.
4. موانع المعرفة قد تكون أحياناً مؤقتة وقابلة للعلاج، وأخرى قد تكون دائمة وغير قابلة للعلاج.
5. الأهواء والمعاصي إذا ظهرت بصورة عادة وملكة نفسانية راسخة في النفس، ففي هذه الحالة تكون مانعية المعرفة دائمة.
6. إذا لم يتحول الهوى وآثاره إلى صفة ثابتة للروح فإن مانعيته من معرفة اللّه تكون مؤقتة وقابلة للعلاج.
7. عندما يسيطر الهوى على القلب، وبتعبير القرآن الجميل، عندما يصير الهوى إله الإنسان، فاللّه تعالى يقفل باب المعرفة القلبية، ويطبع على القلب ويختم عليه بقوة.
8. الموانع المؤقتة يوجد نحوان لمعالجتها؛ أحدهما اختياري من خلال الذكر والتفكر ومجاهدة النفس، والثاني غير اختياري من خلال المحن والبلاءات التي تصيب الإنسان في الحياة الدنيا.



أسئلة الدرس

1. متى تتحقّق المعرفة الصحيحة عند الإنسان؟
2. ما هي أهم الموانع التي تحول دون تحقق المعرفة الحقيقة؟
3. ما هو علاج الموانع المؤقتة التي تحول دون تحقق المعرفة؟



فلسفة شدّة ابتلاء الأنبياء والأوصياء والمؤمنين[1]

اعلـم وقـد سبق منا الحديث بأنّ كلّ عمل يصدر عـن الإنسان، بل كلّ ما يقع منه في عالم مُلك الجسم، وكان مدرَكاً للنفس، يترك أثراً لدى النفس، من دون فرق بين الأعمـال الحسنــة أو السيئة، ومن دون فرق بين أن يكون العمل من نوع الأفراح أو نوع الأتراح. وقد عُبّر عن هذا الأثر في الأخبار[2] بنقطة بيضاء ونقطة سوداء فمثلاً: إن كل لـذة مما يلتذ الإنسان به من المطعومات أو المشروبات أو المنكوحات أو غيرها، يترك أثراً في النفس، ويحصل تعلقاً ومحبة في عمق الروح تجاهه. الشيء الذي تمتع فيـه. ويزداد توجه النفس إليه. وكلما توغّل في اللذائذ والمشتهيات أكثر، ازداد تعلق النفسـ وحبّها لهذا العالـم أكثر، وغدا ركونه واعتماده على هذا العالم أكبر، فتتربى النفسـ وترتاض على التعلق بالدنيا. وكلما كانت المتع في ذائقته أحلى، كانت جذور محبّة الدنيا في قلبه أكثر. وكلما توفرت وسائل العيش والعشرة والراحة بشكل أوفى، أصبحـت دوحة التعلق بالدنيا أقوى وكلما أقبلـت النفس على الدنيا أكثر، كلما كانت غفلتـه عـن الحق وعالم الآخـرة أكثر. فإنّ نفسـ الإنسان إذا ركنت إلـى الدنيا كلياً وصار توجهها مادياً ودنيوياً، انصرف عن الحق المتعال ودار الكرامة نهائياً و ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[3]. فالانهماك في بحر اللذائذ والمشتهيات يصرف الإنسان إلـى حبّ الدنيا من دون اختيـار، وحبّ الدنيا يوجب النفور عن غيرها، والإقبال على المُلـك. الماديات. يسبـب الغفلة عن الملكوت. عالم الغيـب.. وكذلك العكس فلو أنّ

(1) الإمام الخميني ﵀، الأربعون حديثاً، الحديث الخامس عشر، ص287.

(2) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد إلا وفي قلبه نقطة بيضاء فإذا أذنب خرج في النقطة نقطة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا تغطى البياض لم يرجع إلى صاحبه إلى خير أبداً». الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج2، ص273 «كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب» ح 20.

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

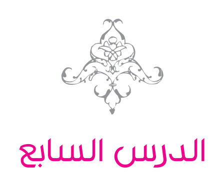
الإنسـان استـاء من شيء وشعـر ببشاعته، استدعـت صورة ذلك الشـيء الكراهية والنفور، وكلما كانت تلك الصورة في النفس أقوى كان النفور والانزجار منها أكثر.

فمثلاً: إذا دخل شخص على بلد وابتُلي بأسقام وآلام فيه وعانى من ورائه مشاكل داخليـة وخارجية لكرهه وتنفّر منه وكلما كانت معاناتـه أكثر كان هروبه ونفوره منه أكثـر وإذا وجد مدينة أفضل منه لأقبل عليها وإن لم يستطع التحرك نحوها، لاشتاق إليها وتوجّه قلبه نحوها. فالإنسان إذا عاش هموم الدنيا وآلامها وأسقامها ومشاكلها وعناءَهـا وشعر بـأن أمواج الفتن والمحن تزحف نحوه، قلّ تعلقه بها - أي الدنيا - وقلّ ركونه إليها ونفر قلبه منها. وإذا اعتقد بوجود عالم آخر، وفضاء رحب فارغ من جميع أنـواع الشقاء والتعاسة، ارتحل إليه. وإذا لم يتمكن من السفر بجسمه لذهب بروحه وبعـث بقلبه إلى ذلك العالم. وواضح جـداً أن المفاسد الروحية والخلقية والسلوكية بأسرها تنجم عن حب الدنيا والغفلة عن الله سبحانه وعالم الآخرة، وإن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة[1].

فـي حين أنّ الصلاح الروحـي والخلقي والسلوكي ينبعث مـن التوجّه نحو الحق، ودار الكرامـة - عالم الآخرة - ومن اللامبالاة بالدنيا وعـدم الانبهار بزخارفها. إذاً، علمنـا من هذا التمهيد بـأنّ لطف الحق تبارك وتعالى وعنايتـه كلما شملت شخصاً أكثـر، ووسعتـه رحمة الـذات المقدسـة بصورة أوفـى، كلما أبعـد سبحانه عن هذا العالـم وزخرفـه أكثر، ودفـع عنه أمواج المحـن والفتن أكثر، حتـى تنقلع رغبته في الدنيـا وزركشتها، ووجّه وجهه حسب مستوى إيمانه إلى عالم الآخرة وارتبطت روحه بذلك العالم. وإن لم تكن جدوى من احتمال شدائد المحن إلاّ هذه الجهة - الانزجار والإعراض عن الدنيا والإقبال نحو الآخرة - وحدها، لكفى.

الإمام الخميني قدس سره

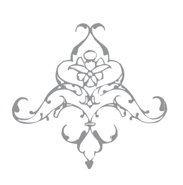
(1) عـن الإمـام علي بن الحسين عليه السلام: «حب الدنيـا رأس كل خطيئة». الشيخ الكليني، أصـول الكافي، ج2 ص131، كتاب الإيمان والكفر، باب ذم الدنيا والزهد فيها، ح 11.



الدرس السابع

الطريق نحو الكمال

(الإيمان – الهجرة – الجهاد)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى الشرائط الأساسيّة لحصول لقاء اللّه تعالى.

2- يبيّن أنّ الوصول إلى اللّه يتحقّق من خلال الإيمان به والهجرة إليه.

3- يستدل على أنّ الجهاد في سبيل اللّه هو أفضل الأعمال المقرّبة من ساحته المقدّسة.

مقدّمة

كان بحثنا يدور حول عدم وجود كمالٍ للإنسان أرفع من لقاء الله والحضور الدائم في محضره. فأيّ سعادة أكبر للإنسان من التقرّب إلى الكمال المحض؟ وأيّ مقام أرفع له من صيرورته عند الله؟! فإذا كان كمال الإنسان في التقرّب إلى الله فما هو الطريق الموصل إلى ذلك؟ وإذا كانت سعادة الإنسان في أن يكون الحقّ تعالى حاضراً دائماً في حياته فلا يغيب عنه طرفة عين أبداً، فما هو السّبيل إلى ذلك؟

أسس الطريق

إنّ الآية الكريمة التالية من كتاب الله العزيز تبيّن لنا جوانب هذا الطريق الأساسيّة والتي بمراعاتها يضع الإنسان قدمه على الصّراط الإلهي المستقيم، يقول تعالى في محكم كتابه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾[1]. فالآية تشير بشكل واضح إلى أنّ الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، من العوامل الأساسيّة التي تمهّد الأرضيّة للقاء الحق والوصول إلى درجة عظيمة عنده كما قال عزّ اسمه: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾، ليكون في نهاية المطاف من الفائزين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾. إذاً، فشرط التقرّب إلى الله وصيرورة الإنسان عند

(1) سورة التوبة، الآيتان: 20 - 21.

اللّه كما هو حال الشّهيد هو في أن يتحلّى المجاهد بالإيمان الصّحيح والواعي، ثم يشمّر عن ساعد الهمّة ليهاجر إلى اللّه ورسوله، ثم ينزل إلى ميدان المجاهدة ومقارعة الأعداء بهمّة عالية وبأسٍ شديد حتى ينال شرف القتل في سبيل اللّه، فيصل إلى ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيناجي ربه قائلاً: «**إلهي بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئنّ القلوب إلّا بذكراك، ولا تسكن النفوس إلّا عند رؤياك**»[1].

الإيمان واللقاء

الإيمان من شؤون البشر وميولهم التي خلقت معهم، فأن نقول «إنسان» فهذا يعني أنّنا أمام كائن يمتلك ميلاً طبيعياً نحو الإيمان بشيء ما، فلا يخلو إنسان من هذا الميل أو الشعور. والإيمان هو نوع من الإذعان أو التّسليم لحقيقة أو لشيء نعتقد أنه حقيقة، والنّفس التي تؤمن به تعيش حالة من الخضوع أو التّسليم له. والإيمان في الإسلام يقابل الكفر وهو الذي يكون حساب البشر في يوم القيامة على أساسه، وهو الإيمان باللّه الواحد الأحد الذي خلق كلّ شيء وهو ربّ العالمين. فالإيمان الإسلامي يختلف عن أيّ إيمان آخر، وبمعرفته يمكن أن نقول إنّ كلّ إيمان آخر هو الكفر الحقيقيّ الذي سوف يظهر في يومٍ من الأيام.

لقد خلق اللّه الإنسان لكي يصل إلى هدفٍ واقعيّ تتحقّق عنده سعادته المطلقة وكماله النهائي، وهو لم يطالبه بالإيمان إلا لدخالته في تحقّق الهدف النهائي. ويمثّل لقاء اللّه ودخول جنّته هذه السعادة المطلقة التي هي هدف الإنسان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[2]، وما لم يدخل هذا الإنسان إلى الجنّة فهو من أصحاب النار والشّقاء الأبدي. وبمراجعة الآيات التي تحدّثت عن شروط الفوز

(1) الإمام زين العابدين (ع)، الصحيفة السجادية، مناجاة الذاكرين.
(2) سورة الانشقاق، الآية: 6.

بالجنّة والنّجاة من العذاب، نجد أنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ هو العامل الأساسيّ بل الوحيد، لأن كلّ العوامل الأخرى لا تقف إلى جانبه بل تنبع منه ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[1]. وكذلك إذا راجعنا جميع الآيات التي تحدّثت عن سبب الدّخول إلى جهنّم والعذاب الإلهي والحرمان من لقاء الحق تعالى، نجد أنّ السّبب الوحيد هو الكفر بالله سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[2]. وسرّ ذلك أنّ الإيمان والكفر هما الموجّه لمسيرة الإنسان فما يؤمن به الإنسان ويعتقد به هو الذي سيكون هدفه النهائي، وأولئك الذين آمنوا بالله حقاً، وتوجّهوا إليه وطلبوه، وسلكوا الطريق المؤدّي إليه، كانت عاقبتهم الوصول إليه ودخول جنّته التي هي مقام لقائه. فلا إمكانية للوصول إلى هذه المنزلة الرّفيعة إلا بعد الإيمان به تعالى وبإمكانية لقائه ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[4]. والقرآن الكريم يحدّثنا ويؤكّد لنا على أنّ سعادة الأفراد والمجتمعات تكمن في إيمانها، وأنّ شقاءهم حاصل كفرهم، فالخير يبدأ من الإيمان وينمو معه، والشرّ مستبطن في الكفر ويستشري به. أمَا أولئك الذين آمنوا بغير الله الواحد الذي بيده كلّ خير، فسيتحرّكون نحو كمالات وهميّة، وأشياء يظنّون الخير فيها والسعادة المنشودة منها، ولكنّهم في النهاية سيدركون أنّ ما آمنوا به لم يكن الإله الحقيقيّ أصل كلّ خير ومفيض كلّ نعمة.

ولا شكّ أنّ الإيمان وحده لا يكفي للوصول إلى السعادة، فالإيمان إذا لم يصل إلى درجة يحرّك معها الإنسانَ نحو مفيض الخير والكمال فإنّه لن يكون مؤثّراً. بل الإيمان

(1) سورة الأنعام، الآية: 158.
(2) سورة آل عمران، الآية: 12.
(3) سورة البقرة، الآية: 46.
(4) سورة هود، الآية: 29.

الـذي يولّد السّعي هو الذي سيكون مؤثّـراً، وأعظم أثرٍ للإيمان الواقعي هو أنّه يجعل قلـب صاحبه متوجّهـاً ومقبلاً إلى اللّه سبحانـه وتعالى، بينما يكـون الكفر إعراضاً وإغلاقاً لهذا القلب أمام كلّ خير وسعادة ينشرها الرحمن في عباده ومخلوقاته. إذاً، ما ينبغي أن يتعلّق به الإيمان ليكون إيماناً إسلاميّاً، هو الإله الذي بيده كلّ خير وكمال وسعادة يصبو إليها الإنسان.

وهـذا هو التّوحيـد ومعنى أن يكون المـرء موحّداً. فالتوحيد ليـس مجرّد اعتقاد بـأنّ اللّه خالـق كلّ شيء وأنه لم يشرك معه أحداً في خلقه، بـل يعني أيضاً الاعتقاد بـأن كلّ خيـر نريده أو نحتاج إليه فهو موجود عنـد اللّه، وعلينا أن نطلبه منه. ونفس هـذا الاعتقـاد يعدّ درجةً مـن درجات الإيمان، وهـو إذا استولى على قلـب الإنسان، فأخـرج كلّ مـا ينافي هذا الاعتقـاد الحقيقيّ من قلبه، فإنّ صاحبـه يصل إلى أعلى درجـات الإيمـان. لأنّ الإيمان الكامل هو الذي يكون القلـب معه للّه وحده دون سواه، فتكون جميع تحرّكات هذا الإنسان إلهية، وعندها يصبح في أعلى درجات الاستعداد لاستقبال ألطاف الحق ومواهبه السنيّة.

وأمّا الوسيلة الفضلى لنيل هذه الدرجة من الإيمان وتعميقها وترسيخها في القلب فهـي العمـل الصّالـح ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[1]. وأهـمّ هذه الأعمـال المقرّبة إلى اللّه والهاديـة إليه الهجرة والجهـاد في سبيل اللّه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[2].



(1) سورة طه، الآية: 75.
(2) سورة الأنفال، الآية: 74.

الهجرة في سبيل الله

من كان يريد اللّه تعالى فعليه أن يهاجر إليه. والهجرة إلى اللّه هي التعبير العمليّ عن الإيمان به، لذا قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾[1]. فالخطوة الثانية بعد الإيمان باللّه والاعتقاد العقلي والقلبي به هي الهجرة في سبيله، والإنسان ما دام حيّاً فهو مكلّف بهذه الهجرة، وهي على أنواع ومراتب:

1. منها: أن يهاجر الإنسان من بلاد الكفر والمشركين إلى ديار الإسلام، التي يستطيع أن يؤدّي فيها تكليفه، ويأمن فيها على دينه، ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[2].
2. ومنها: أن يترك الدّناءة، ويهجر الخبائث، ويتجنّب المعاصي التي تحول بينه وبين لقاء ربه والظّفر بجنّته، وهي قوله تعالى في كتابه العزيز، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[3].
3. ومنها: الهجرة بالبدن عن مخالطة أهل العصيان والفسوق، ومجالسة أهل البغي والطغيان، وأبناء الدنيا الذين يعيقونه عن التوجّه للآخرة. والهجرة بالقلب عن المودّة لهم والميل إليهم، وترك العادات والتقاليد المخالفة للشرع، والاعتبارات الوهميّة التي تمنع الإنسان من سلوك طريق الآخرة، وتكون عائقاً من السّفر إلى اللّه. ففي المجتمع المادّي يتقيّد الإنسان بعادات وهميّة اعتاد عليها أهل الدنيا حتى أصبح قياس النّفع وميزان الخسارة مبيناً عليها. كما جرت العادة أن ينسب الجهل إلى كلّ من يلتزم الصّمت في المجالس العلميّة

(1) سورة الأنفال، الآية: 72.
(2) سورة النساء، الآية: 100.
(3) سورة المدّثر، الآية: 5.

أو غير العلميّة، أو أن يعتبر التّهافت إلى الجلوس في صدر المجلس دليلاً على الرّفعة والمنزلة العالية، أو أن يعتبر أن التصّنع في الكلام والتشدّق به دليلٌ على سعة الاطّلاع والفهم، وخلافه دليل على الحقارة والضّعة وضعف الموقف والشخصيّة. بل على الإنسان المؤمن حقاً أن يغضّ النظر عن كل هذه الأمور وأن يهجرها دون أيّ خوف أو وجل، وهي قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[1].

4. ومنها: أن يهجر الإنسان أنانيّته، ويخرج من بيت نفسه المظلم، وحبّه لذاته، بهدف القضاء على أهواء النّفس حتى يقدر أن يضع قدمه على بساط التّوحيد، ويدخل عندها في مضمار ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[2]. وهذه هي الهجرة الحقيقيّة إلى الله حيث يدوس الإنسان على أهوائه وأنانيّته وييمّم وجهه شطر الإله والمعبود الأوحد، وهي الهجرة التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[3]. وجاء في بعض التفاسير في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾[4]، أنّ البيت في الآية يُحمل على معنيين؛ على البيت الظاهري وهو المنزل، وعلى البيت الباطني وهو بيت النفس. فكلّ من يهاجر من بيت النفس الأمّارة بالسوء بهدف التوجّه إلى الله قاصداً لقاءه، فإنّ أجره وثوابه على الله، وهو سوف يوفّيه إيّاه حتماً حتى ولو أدركه الموت في الأثناء.



(1) سورة المزمل، الآية: 10.
(2) سورة البقرة، الآية: 156.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 26.
(4) سورة النساء، الآية: 100.

الجهاد في سبيل الله

على الإنسان الذي يبحث عن السّبيل الأسلم لتعميق الإيمان وتثبيته في النّفس طمعاً في الهداية، أن يبحث عن أفضل الأعمال التي تبرهن عن صحّة وسلامة مقاصده وأهدافه. فليس كلّ من ادّعى ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] صحّت هجرته إلى ربّه، بل عليه أن يقدّم الأدلّة التي تثبت صحّة نيّته وصدقه في الطلب. وأفضل وسيلة لإثبات هذا المدّعى هو انتخاب أفضل الأعمال التي تقرّبنا إلى الله وتدنينا منه. ويُعتبر الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال وأحمزها، فقد سُئل إمامنا الصادق عليه السلام ذات مرّة: أي الأعمال أفضل؟ فقال عليه السلام: «**الصّلاة لوقتها وبرّ الوالدين والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ**»[2]. وعنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «**الجهاد أفضل الأشياء بعد الفرائض**»[3]، وهو أشرف الأعمال أيضاً كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الجهاد أشرف الأعمال بعد الإسلام، وهو قوام الدين، والأجر فيه عظيم**»[4].

ومنشأ هذه العظمة والأهمّية؛ أنه ما صلحت دنيا ولا دين إلّا بالجهاد. فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**إن الله عزّ وجلّ فرض الجهاد وعظّمه، وجعله نَصْرَهُ وناصِرَهُ، والله ما صلَحت دنيا ولا دين إلا به**»[5]. وكيف لا تكون له هذه العظمة وهو من أركان الإيمان كما قال عليه السلام: «**الإيمان أربعة أركان الصّبر واليقين والعدل والجهاد**»[6]. وقد حدّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنهج العملي للإسلام واختصره بكلمة واحدة في الجهاد في سبيل الله حيث قال: «**سياحة**[7] **أمّتي الجهاد**»[8]. فمن أراد

(1) سورة الصافات، الآية: 99.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 158.
(3) م. ن،ج 5، ص 3.
(4) م. ن، ج 5، ص 36.
(5) م. ن، ج 5، ص 8.
(6) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل،ج11،ص16.
(7) السياحة: تعني الطريق والمنهج.
(8) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص14.

اتّباع سبيل الحق لا طريق له إلى ذلك إلّا بالجهاد.

والجهاد في سبيل الله على قسمين كما أخبر بذلك رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث رُوي أنه صلى الله عليه وآله وسلم استقبل سريّة كان قد بعثها للقتال فقال لها بعد عودتها: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل له: وما الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس**»[1]. الجهاد الأصغر وهو مواجهة العدوّ الخارجي من الكفّار وأعداء الإسلام، الذين يمنعون إقامة حكم الله تعالى على الأرض، وهذه المواجهة لها أشكالٌ عديدة: عسكرية وأمنية وسياسية وثقافية واقتصادية وغيرها... وهذا الجهاد الأصغر هو درع الله الحصينة وجنّته الوثيقة، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وسوّغهم كرامة منه لهم ونعمة ذخرها. والجهاد هو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء**»[2].

أما الجهاد الأكبر فهو محاربة العدوّ الباطني، وهو الأهواء والنفس الأمّارة. ووظيفة المجاهد الأساسيّة القضاء على هذا العدوّ الباطني والانتصار عليه، وهو أشدّ فتكاً وخطراً من العدوّ الخارجي بل ومن أخطر الأعداء على الإطلاق كما أخبر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى قائلاً: «**الله الله في الجهاد للأنفس فهي أعدى العدوّ لكم، إنه تبارك وتعالى قال إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وإن أول المعاصي تصديق النفس، والركون إلى الهوى**»[3].

وقد سمّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الجهاد بالأكبر، لأن الهزيمة فيه هي الهزيمة الحقيقية، والانتصار فيه هو الانتصار الأكبر. فالهزيمة في ساحة الجهاد الأصغر ليست هزيمة في الحقيقة بل هي نيل إحدى الحسنيين، أمّا في ساحة الجهاد الأكبر فإنّ الإنسان

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص137.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص4.
(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص138.

إذا فشل في محاربة النّفس الأمّارة بالسّوء، فإنها ستسيطر عليه وتصبح هي الآمر والناهي في مملكة وجوده، فيخرج بذلك من ميدان العبوديّة لله ليدخل في ميدان عبوديّة النّفس والطاعة لها فيسقط في أسفل سافلين ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وربما لا يتمكّن من جبران هذه الخسارة بعدها أبداً.

فالنفس جرّاء التعلّق بزينة الدنيا وشهواتها تصبح مشغوفة بها، فتدعو صاحبها لارتكاب الخطايا وتزيّن له السيّئات، وهي لا تزال على هذا المنوال حتى تصبح أمّارة بالسوء لا يهدأ لها خاطر إلا إذا دعت وأمرت بالسيّئات. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. فالنّفس إذا تركت وشأنها وأهملت تربيتها تكون مبادرة إلى المعاصي وتأمر بالسوء دائماً، والاستثناء هو ما خرج برحمة الله تعالى بالتربية والمجاهدة. وعليه نصل إلى هذه النتيجة؛ أن من آمن بالله حقّ الإيمان، وهاجر إليه، وجاهد في سبيله، فهو في أعظم درجة عند الله، وهو من الفائزين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3].

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.

(2) سورة يوسف، الآية: 53.

(3) سورة التوبة، الآية: 20.

المفاهيم الرئيسة

1. لقاء الحقّ عزّ وجلّ والتقرّب إليه يحصل بثلاثة أمور: الإيمان به، حقّ الإيمان، الهجرة إليه وترك كل ما سواه، والجهاد في سبيله.
2. الإيمـان هو من شـؤون البشر وميولهم التـي خلقت معهم، فأن نقول «**إنسان**» فهذا يعني أنّنا أمام كائن يمتلك ميلاً طبيعياً نحو الإيمان بشيء ما.
3. الإيمـان وحده لا يكفي للوصول إلـى السعادة، فالإيمان إذا لم يصل إلى درجة يحرّك معها الإنسانَ نحو مفيض الخير والكمال فإنّه لن يكون مؤثّراً.
4. لا يمكـن أن يدنـو الإنسان من ساحـة الحقّ إلّا بعد أن يهجـر كل ما يعيقه عن التوجّه إليه، ومن أهم هذه الموانع: الذنوب، أهل الباطل والسوء، وحبّ النّفس والذات.
5. مـن كان يريد الله تعالـى فعليه أن يهاجر إليه. والهجـرة إلى الله هي التعبير العمليّ عن الإيمان به.
6. الجهـاد فـي سبيل الله هو أفضـل الأعمال التي تدني الإنسان مـن ربه لأنّه ما صلح الدين ولا الدنيا إلا به.
7. الجهـاد فـي سبيل الله على نحويـن؛ أصغر وهو جهاد العـدو الظاهري للدين والإسلام، وباطني وهو النفس الأمارة بالسوء والأهواء.



أسئلة الدرس

1. لم عدّ الإيمان باللّه الشرط الأوّل لسلوك طريق اللقاء والقرب من اللّه؟
2. تحدّث عن مراتب ودرجات الهجرة إلى اللّه تعالى.
3. الجهاد في سبيل اللّه على قسمين اذكرهما وتحدّث عنهما.



الهجرة والجهاد

الهجرة والجهاد هما الركنان الأساسيّان اللذان يستند إليهما الإسلام من الناحية الاجتماعيــة، وقد حرص القرآن الكريم على إحاطتهمــا بقدسيّة خاصّة كلّما تحدّث عنهما، كما أنه عظّم وقدّس درجة المهاجرين والمجاهدين أكبر تعظيم وتقديس.

الهجــرة تعني التخلّي عن البيت والأهل والوطن والابتعــاد عنها والتوجّه إلى ديار الإيمــان حفظاً للدّين من الضّياع. وفي كثير مــن الآيات القرآنية نرى كلمتي الهجرة والجهــاد قــد ذكرتــا معــاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[1].

والهجــرة هي كالجهاد، حكم غير ثابــت في الشرع الإسلامــي، ولكنه من أركانه الأساسيّــة وأحكامــه الحيّة، بمعنــى أنّ من المحتمــل أن تطرأ ظـروف تصبح معها الهجرة واجباً شرعيّاً وفرضاً يجب على المسلم أداؤه.

ولقــد ورد للهجرة وكذلك الجهاد تفسير آخر غير ما تقــدّم، فقد فسّرت الهجرة بهجر المعاصــي والذنوب والابتعاد عنهــا. إذاً، المهاجر من هجر السيّئــات. فما هو نصيب هذا التفسيــر مــن الصّحة يا تــرى؟ وهل أنّ من تلوّثــت نفسه بالذنوب ثم تــاب وأصلح واغتسل بمــاء التوبة المطهّر سيصبــح بذلك مهاجراً لأنه هجر الذنوب وابتعد عنها؟ لو أخذنا بهذا التفسير لأصبح جميــع التائبين في العالم مهاجرين لأنهم هجروا الذنوب والمعاصي ونأوا عنهــا، أمثال فضيل بــن عياض، وبشر الحافي وغيرهما كثيــر... ولهذا المنحى في تفسير الهجرة شبيه في باب الجهاد أيضاً، حيث إنّ «**المجاهد من جاهد نفسه**»[2]، والمجاهد هو

(1) سورة الأنفال، الآية: 74.

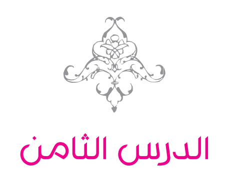
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج15، ص163.

من يجاهد النفس الأمّارة بالسّوء وأهواءها الداخلية، ومعروف أنّ الصراع الداخلي موجود باستمرار، قائم بين النفس وأهوائها من جهة، والعقل من جهة أخرى. يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «**أشجع الناس من غلب هواه**»[1]. وخلاصة ما تقدّم أنّ المعنى الآخر للهجرة هو ترك الذنوب والمعاصي، والمعنى الآخر للجهاد هو مجاهدة النفس وأهوائها، فهل يا ترى هذا التفسير صحيح أم لا؟! الجواب هو أنّه صحيح بحدّ ذاته، ولكن قد أسيء فهمه وفُهم بصورة خاطئة. فمقولتنا: «**المهاجر من هجر السيئات، والمجاهد من جاهد نفسه**» واردة في أحاديث المعصومين عليهم السلام بل إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يصف جهاد النفس بأنه «**الجهاد الأكبر**»، لكن الخطأ في الفهم والانحراف في التفسير، وقد وقع عندما لجأ البعض إلى إلغاء المعنى الأول للهجرة والجهاد، وذلك باحتجاجهم في أنّ معنى الهجرة ترك الذنوب وأنّ معنى الجهاد مجاهدة النفس، فلا حاجة إذاً لأن نترك الأهل والدّيار عند اقتضاء الضرورة، ونتغرّب في البلدان، بل بدلاً من ذلك نجلس في بيوتنا ونهجر الذنوب فنصبح بذلك مهاجرين. ويقول البعض الآخر: إنّه ما دام الجهاد هو مجاهدة النفس، إذاً، فلا ضرورة للسّير إلى محاربة أعداء الإسلام، وبدلاً من أن نتحمّل مصاعب ذلك، نجلس في بيوتنا وننشغل في مجاهدة أنفسنا وهذا هو - في نظرهم- الجهاد في سبيل الله بل هو أعظم من سابقه، لأنه الجهاد الأكبر وذاك هو الجهاد الأصغر.

إذاً، فقد اتّخذ تفسير الهجرة بترك الذنوب ذريعةً لإلغاء الهجرة بالمعنى الأول، واتّخذ تفسير الجهاد بجهاد النفس ذريعةً لإلغاء الجهاد بالمعنى الأول. وهذا هو الانحراف في الفهم، لأنّ في الإسلام هجرتين لا هجرة واحدة، ونوعين من الجهاد لا نوع واحد، وإلغاء أيّ من الهجرتين بالتذرّع بالنوع الآخر، أو إلغاء أيّ نوع من نوعي الجهاد بالتذرّع بالآخر، كل ذلك يعني انحرافاً عن الإسلام وتعاليمه.

الشهيد الشيخ مرتضى مطهري قدس سره

(1) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 394، لا ت، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1404هـ، الطبعة 2، نوادر المواعظ، ح 5840.



الدرس الثامن

كمال الإنسان في المسارعة إلى الله



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى شرطي الهجرة والجهاد في سبيل الله: المسارعة والمسابقة.

2- يبيّن أنّ كمال الهجرة إلى الله والجهاد في سبيله يكمن في المسارعة والمسابقة إليه.

3- يبيّن أنّ المسارعة إلى الله من أهم صفات المجاهدين وأهل الورع والولاية.

كمال الهجرة والجهاد

تقدم البحث في أنّ أفضل وأعظم كمال للإنسان هو في الارتباط بالحق سبحانه وتعالى، وأنّ أفضل طريق يوصل إلى هذا الكمال الإنساني هو في أن يرى الإنسان المؤمن الحق تعالى حاضراً دائماً في حياته، وأعماله، وكافّة شؤونه، من خلال المراقبة والمحاسبة الدائمة للنّفس.

فإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة سوف يحرص على عدم ارتكاب المحرّمات، وإذا صدرت عنه لا سمح الله فإنه يبادر إلى إصلاحها فوراً. وإذا لم يصدر عنه ما يخالف رضا الله، ولم يصدر عنه إلا الطاعة، فإنّه يقيس طاعاته بنعم الله عليه فيرى أنّ هذه النّعم أكثر من طاعاته، بل أكثر من أن تُحصى، فيشعر عندها بالقصور ولا يُصاب بالغرور أبداً. ولكن هذا لا يحول بينه وبين العمل الصالح أصلاً، بل يزيده إصراراً على أداء ما أوجبه الله تعالى عليه بكلّ ما أوتي من قوّة، لأنه يعلم أنه لا سبيل لشكر الإله على نعمه السابغة إلّا بمتابعة التكاليف الإلهية، والإصرار على الطّاعات والأعمال الصالحة.

مرّ في الدرس السابق أنّ أهمّ هذه العبادات والطاعات الهجرة والجهاد في سبيل الله، فهما ركنان أساسيّان لبناء النفس المطمئنّة والمجتمع الفاضل، ومن دونهما لن تتحقّق أهداف الدين الإسلامي السمحة، التي تهدف أوّل ما تهدف إلى بناء الإنسان

المؤمــن، صاحــب الصّفات والأخلاق الإلهية، وبناء الصّــرح الاجتماعي على أساس العــدل والمســاواة، وإعطــاء كلّ ذي حقّ حقّــه. وهذا غير ممكن مــن دون هجرة كلّ مــا يمنع من تحقيق هــذه الأهداف السامية، ومحاربة كلّ ما يحــول دون بلوغها. لذا كانت الهجرة والجهاد في سبيل الله أمراً ضروريّاً لكلّ إنسان مؤمن باحث عن سبيل الحــق، وعاشق للقائه، وطالب لوصالــه، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]. فللإنسان روح أبديّة وخالدة لا يشبعها كلّ ما في السموات والأرض، وهذا النّظام الواسع لنجوم الكون أصغر من أن يقنــع روح الإنســان، لأنّه نظام مادي، أمّا نفس الإنســان وروحه فهي مجرّدة ومنزّهة عــن عالم الطبيعة، فلا شيء مادي يمكن أن يكون غذاء لروح الإنسان إلّا غذاء عالم القدس، والقرب من الله.

وللهجرة والجهاد في سبيل الله تعالى شرطان أساسيّان بهما ترتقي روح الإنسان إلــى عالــم القرب، وبهما تسمو روحــه إلى ملكوت الله فرحة مطمئنّــة، فتدخل جنّته راضية مرضيّة، وهذان الشرطان هما:

- المسارعة.
- المسابقة.

المسارعة في طريق الحقّ

إنّ ترك المحرّمات وأداء الواجبات عند الإنسان الطامح إلى الارتباط بالله ولقائه ليس بالأمر الكافي، بل تراه ملحاحاً وكثير الإصرار والطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يوفّقه للقيام بأفضل الأعمال التي تقرّبه منه، لأنه لا يرضى بأن يلقى الله بأعمال عاديــة، بل يسارع إلى الأعمــال التي تبلّغه الدرجات العلى عنده عــزّ وجلّ. والإسراع فــي طريق الخير والعمل الصّالح، والصّــراط المستقيم لا خطر ولا ضرر فيه بل هو

(1) سورة البقرة، الآية: 218.

محمود شرعاً وعقلاً، وهو من أهمّ علامات أهل الآخرة، فضلاً عن أن الله تعالى أمر به في قرآنه الكريم حيث قال ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1]. وهو من أهمّ فضائل النفس، كما قال أمير المؤمنين ومولى الموحّدين علي عليه السلام: «**من فضيلة النفس المسارعة إلى الطاعة**»[2].

فالمسارعة إلى الطاعات والأعمال الصالحة والعبادات المقرّبة، وإلى هجرة الدّناءات والرذائل وسفاسف الأمور، وترك العادات البغيضة التي لا تمتّ إلى الشرع الأنور بصلة، والمبادرة دون تردّد إلى هجرة أصحاب السّوء الذين لا يزيدون المرء إلا بعداً عن الحقّ، واستغراقاً في الدنيا، والمسارعة إلى الجهاد، وعدم التباطؤ أو التلكّؤ عن القيام بالواجبات الجهاديّة الملقاة على عاتق الإنسان، أمور كلّها تكشف عن مدى حرص الإنسان واهتمامه وجدّيّته في طلب الحقّ والتقرّب إليه. لذا لم يساوِ الحقّ تعالى بين المسارعين إليه وغيرهم، بل فضّل المسارعين واعتبرهم أنهم هم الصالحون، قال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

ومما وصّى به أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في إحدى خطبه: «**فَاتَّقُوا اللهَ عزّ ذكْرُهُ، وَسَارِعُوا إِلَى رِضْوَانِ اللهِ، وَالْعَمَلِ بطَاعَته، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْه بكُلِّ مَا فيه الرِّضَا فَإِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَعْمَلُ بِمَحَابِّه، وَيَجْتَنِبُ سَخَطَهُ**»[4].

وإذا عدنا إلى كتاب الله العزيز نجد أنّ المسارعة في الخيرات هي من صفات وشمائل الإنسان المؤمن، الذي يخشى ربّه، ويؤمن بآياته، والذي طهّر الله قلبه

(1) سورة آل عمران، الآية: 133.
(2) الآمدي، غرر الحكم، ص182.
(3) سورة آل عمران، الآيتان: 113 – 114.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص173.

مـن الشّرك والنفاق، والذي يأتـي بأعمال البرّ والإحسان بسـرور لأنه على يقين أنّه منقلب إلى ربّه وراجع إليه. فمثل هذا الإنسان يسارع في الخيرات دون طلب من أحد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[1].

أمّـا الذي يسـارع إلى الكفر بدل الإيمان، ولا يتورّع عـن القبائح، بدل أعمال البرّ والإحسـان، فإنه لن يضرّ إلا نفسه، وهو فـي الحقيقة في عداد المحرومين، لأن اللّه تعالى يريد أن لا يجعل له حظّاً ونصيباً في الآخرة، لعلمه تعالى بفساد باطنه، وخبث سريرتـه ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

إنّ أهـل الآخـرة والذين يسلكون طريـق العبوديّة للّه تعالى يعبّـرون عن سلوكهم هـذا من خلال العمل. فالعمل هو طريقهم لنيل المنازل الرّفيعة والكمالات السامية. والحـقّ سبحانه وتعالى يمتحنهم بالمواقـف الكثيرة ليستفيدوا من بلائه في الرجوع إليـه ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[3]. والإنســان الذي يسعى للنجاح في هـذا الامتحـان الإلهي عليه أن يقدّم دليلاً على صدق دعواه؛ وهو أنه لا يريد إلا رضا اللّه، والزّلفـى لديه. وهنـا تأتي المسابقة إلـى الخيرات لتقدّم دليـلاً ملموساً يؤكّد صـدق نوايا الإنسان وإخلاصه. أما إذا تقدّم ببـطء وتمهّل فيمكن أن يعترضه قاطع طريـق يمنعه من إكمال سيره. لذا يلفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى أهمّية سبق

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 57 – 61.
(2) سورة آل عمران، الآية: 176.
(3) سورة المائدة، الآية: 48.

الآخريـن ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]، وأن لا يقتنـع فـي طريـق الخير بالدرجـات السّفلـى، وأن لا يقيس نفسه مع الأسـوأ، وأن لا يقارن نفسه بالمتأخّرين، بـل يجعل أئمّة سبيل الخير مقياساً لـه وأسوةً، ويسعى للتفوّق على الآخرين، والتقدّم عليهم في الفضائل وأعمال البرّ والإحسان.

الهدف من المسارعة

المقصود مـن المسابقة أن يسابق الإنسان الآخرين فـي فعل الخيرات والأعمال الصالحـة التـي تقرّبه مـن الحق نجيّـاً. فالإنسان مأمـور أوّلاً بالسعـي لاجتناب كلّ سفه وقذارة وحـرام، وثانياً الإتيان بالواجبات والطاعات المقرّبة، وفي كلا الحالين علـى الإنسان الصـادق أن يتوسّل بالمسابقة سواء في تـرك الحرام أو فعل الواجب، لكـي ينأى بنفسه فيما بعد عـن الشواغل والمعوّقات التي يمكـن أن تعترض طريقه. فالإنسان عندما يهاجر إلى الحقّ ويجاهد في سبيله عليه أن يسرع في التحرّك ويعطي لعملـه سرعة وعجلـة، ولكن هذا وحده لا يكفي، بل عليـه أن يسابق حتّى يصبح أكثر النـاس ورعاً وتقـىً، فيغدو مصداقاً حقيقيّاً لشيعة أهـل عليهم السلام، كما رُوي عن الإمام الصـادق عليه السلام أنّه دخل عليه عيسى بن عبد الله القمّي فرحّب به وقرّبه من مجلسه، ثم قال له: «**يا عيسـى بن عبد الله ليس منّا ولا كرامة من كان في مِصْـرٍ فيه مائة ألف أو يزيدون، وكان في ذلك المِصْرِ أحد أورع منه**»[2].

لذا أمر اللّه تعالى في كتابه العزيز المؤمنين بأن يتسابقوا إلى المغفرة والأعمال الصالحـة التي تقودهم إلى الجنّة، لأنها أبلغ شهادة على صدقهم وإخلاصهم. فقال عـزّ وجـلّ ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3]. كمـا أنـه عـز

(1) سورة البقرة، الآية: 148.
(2) الشيخ الكليني، الكافي،ج2، ص78.
(3) سورة الحديد، الآية: 21.

اسمه لم يورث كتابه من قبل إلّا لعباده الذين اصطفاهم ممن كانوا يسابقون في الخيرات ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[1].

لقد صنّف الله تعالى الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف ذكرهم في كتابه العزيز حيث قال ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2]. فأصحاب الميمنة؛ هم الذين يعطون يوم القيامة كتبهم بأيمانهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾[3]، وهذا الصنف وإن كان من الناجين ومن أهل السعادة والحبور، ولكنه دون الصنف الثالث الذي سوف يأتي الكلام عنه. وأصحاب المشأمة؛ هم الذين يعطون كتبهم بشمالهم، قال سبحانه وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾[4]. والمشأمة من الشؤم والتعاسة، وتسلّم صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى دليل على سوء عاقبتهم، وعظيم جرمهم وجنايتهم، نتيجة عمى البصيرة، وسقوطهم في وحل الضلال.

أما السابقون السابقون فهم الذين سبقوا الآخرين. والحق تعالى وإن كان أطلق هنا السبق ولم يبيّن إلى أيّ شيء يسبقون ويسرعون، ولكنّه تعالى بيّنه في سورة «**المؤمنون**» كما ذكرنا سابقاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[5]. فالسابقون إذاً هم الذين

(1) سورة فاطر، الآية: 32.
(2) سورة الواقعة، الآيات: 7 – 12.
(3) سورة الحاقة، الآيات: 19 ـ 22.
(4) سورة الحاقة، الآيات: 25 ـ 27.
(5) سورة المؤمنون، الآيات: 57 إلى 61.

يؤمنــون بــالله وحده لا شريك لــه، وباليوم الآخــر، ولا يتوانون عن طاعتــه خوفاً من غضبــه وعذابه، ويضحّون بالغالي في سبيله طلباً لمرضاتــه وثوابه. وهم لم يسبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل وبأعمال الخير، والأخلاق الحسنة والإخلاص لله تعالى. فهم أسوة وقدوة للناس، ولهذا السبب كانوا هم المقرّبين إلى الحضرة الإلهيّة.

وفــي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول بشأن هذه الآية الكريمة: «**يا جابر: إنّ الله تبــارك وتعالــى خلق الخلق ثلاثة أصــناف، وهو قــول الله عزّ وجلّ:** ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾. **فالســابقون هــم رســل الله عليهم السلام وخاصــة الله مــن خلقــه، جعل فيهم خمسة أرواح؛ أيّدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء، وأيّدهم بروح الإيمان فبــه خافــوا الله عزّ وجــلّ، وأيدهم بروح القــوة فبه قدروا على طاعــة الله، وأيّدهم بــروح الشــهوة فبه اشــتهوا طاعة الله عــزّ وجلّ وكرهوا معصــيته، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون**»[1].

وللتأكيــد على أهمّية السبــق وضرورته بالنسبــة لأهل الآخرة التوّاقيــن إلى لقاء ربهــم، يقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «**إنّ الله سـبّقَ بين المؤمنين كما يُسَـبَّقُ بين الخيل يوم الرّهان، ثم فضّلهم على درجاتهم في السَّبْق إليه، فجعل كل امرئ منهــم علــى درجــة سبقه لا ينقصــه فيها من حقــه ولا يتقدّم مســبوق ســابقاً، ولا مفضول فاضلاً، تفاضل بذلك أوائل هذه الأمة وأَواخرها**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص271.

(2) م. ن، ج2، ص40.



المفاهيم الرئيسة

1. أفضل طريق يوصل إلى هذا الكمال الإنساني هو في أن يرى المؤمن أنّ اللّه تعالى حاضر دائماً في حياته، وذلك من خلال المراقبة والمحاسبة الدائمة للنّفس.
2. لا سبيل لشكر الإله على نعمه السابغة إلّا بمتابعة التكاليف الإلهية، والإصرار على الطّاعات والأعمال الصالحة.
3. الهجرة والجهاد في سبيل اللّه من أهمّ العبادات والطاعات، فهما ركنان أساسيّان لبناء النفس المطمئنّة والمجتمع الفاضل، ومن دونهما لن تتحقّق أهداف الدين الإسلامي السمحة.
4. أهل الآخرة والذين يسلكون طريق العبوديّة للّه تعالى يعبّرون عن سلوكهم هذا من خلال العمل. فالعمل هو طريقهم لنيل المنازل الرّفيعة والكمالات السامية.
5. الهجرة والجهاد في سبيل اللّه من الأعمال الأساسيّة المقرّبة من الحق عزّ وجلّ، ولكنهما لا يستويان، ولا يحقّقان الهدف المنشود منهما إلا من خلال أمرين أساسيّين وهما: المسارعة إلى الحق، والمسابقة إليه.
6. المسارعة إلى القيام بالأعمال الصالحة والعبادات المقرّبة، وإلى هجرة القبائح المبعّدة، من علامات القلوب المؤمنة التائقة إلى لقاء ربها، والباحثة عن السعادة في جواره.
7. إنّ سبق الآخرين في الفضائل وأعمال البرّ من أهمّ صفات الموالي الحقيقي، الذي يبادر دائماً إلى ما فيه رضا الإمام المعصوم عنه. ولا يكتفي بذلك بل ويسبق الآخرين أيضاً طمعاً في القربى من ربّ رحيم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.



أسئلة الدرس

1. لكمال الهجرة والجهاد في سبيل اللّه شرطان أساسيّان، اذكرهما.
2. ما هو الفرق بين المسابقة والمسارعة إلى اللّه؟
3. ما هي حقيقة المسارعة إلى اللّه؟ وما هي أهميّتها؟
4. ما هي حقيقة المسابقة إلى اللّه. وما هي أهميّتها؟



تفاضل المؤمنين عند الله[1]

سأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام فقال: إنّ للإيمان درجات ومنازل يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟

قال عليه السلام: نعم.

قلت: صفه لي رحمك الله حتّى أفهمه.

قال عليه السلام: إنّ الله سبَّقَ بين المؤمنين كما يُسَبَّقُ بين الخيل يوم الرهان، ثم فضَّلهم على درجاتهم في السَّبْقِ إليه، فجعل كل امرئ منهم على درجة سبقه لا ينقصه فيها من حقّه، ولا يتقدَّم مسبوق سابقاً ولا مفضول فاضلاً. تفاضل بذلك أوائل هذه الأمّة وأواخرها، ولو لم يكن للسّابق إلى الإيمان فضل على المسبوق، إذاً للحقّ آخر هذه الأمّة أوّلها، نعم؛ ولتقدّموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الإيمان الفضل على من أبطأ عنه. ولكن بدرجات الإيمان قدّم الله السّابقين، وبالإبطاء عن الإيمان أخّر الله المقصّرين، لأنّا نجد من المؤمنين من الآخرين من هو أكثر عملاً من الأوّلين وأكثرهم صلاةً وصوماً وحجّاً وزكاةً وجهاداً وإنفاقاً، ولو لم يكن سوابق يفضل بها المؤمنون بعضهم بعضاً عند الله لكان الآخرون بكثرة العمل مقدَّمين على الأوّلين. ولكن أبى الله عزّ وجلّ أن يُدرك آخر درجات الإيمان أوّلها، ويقدّم فيها من أخّر الله أو يُؤخَّر فيها من قدّم الله.

قلت: أخبرني عمّا ندب الله عزّ وجلّ المؤمنين إليه من الاستباق إلى الإيمان.

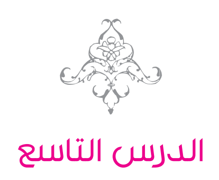
فقال عليه السلام: «**قول الله عزّ وجلّ** ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[2]، **وقال:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[3]، **وقال:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص40.
(2) سورة الحديد، الآية: 21.
(3) سورة الواقعة، الآيتان: 10 ـ 11.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[1]. **فبدأ بالمهاجرين الأوّلين على درجة سبقهم، ثمَ ثنّى بالأنصار، ثم ثلَّث بالتّابعين لهم بإحسان، فوضع كلّ قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده، ثم ذكر ما فضّل الله عزّ وجلّ به أولياءه بعضهمً على بعض، فقال عزّ وجلّ:** ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾[2] **إلى آخر الآية وقال:** ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾[3]، **وقال** ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾[4]، **وقال:** ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾[5]، **وقال:** ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾[6]، **وقال:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[7]، **وقال:** ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾[8]، **وقال:** ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾[9]، **وقال:** ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[10]، **وقال:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾[11]، **وقال:** ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[12]، **وقال:** ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[13] **فهذا ذكر درجات الإيمان ومنازله عند الله عزّ وجلّ.**

---

(1) سورة التوبة، الآية: 100.
(2) سورة البقرة، الآية: 253.
(3) سورة الإسراء، الآية: 55.
(4) سورة الإسراء، الآية: 21.
(5) سورة آل عمران، الآية: 163.
(6) سورة هود، الآية: 3.
(7) سورة التوبة، الآية: 20.
(8) سورة النساء، الآيتان: 95 - 96.
(9) سورة الحديد، الآية: 10.
(10) سورة المجادلة، الآية: 11.
(11) سورة التوبة، الآية: 120.
(12) سورة المزمل، الآية: 20.
(13) سورة الزلزلة، الآيتان: 7 - 8.



الدرس التاسع

العبودية لله هي الهدف



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يستدلّ على حقيقة الفقر والاحتياج الإنساني.

2- يشرح أنّ كلّ إنسان بفطرته يفرّ من النقص إلى الكمال.

3- يبيّن أنّ العبودية لله هي الكمال الحقيقي للإنسان.

العبودية والفطرة الإنسانية

عندما يرجع الإنسان إلى أعماق نفسه سوف يجد فيها ميلاً ورغبةً للخضوع أمام كلّ عظيـم. فعندما يجلس الإنسان في محضـر عظيم من العظماء سوف يشعر بالانجذاب نحـوه والخضوع له. وكلّمـا كان تعلقّ قلبه بهذا الشّخص أكثر، فـإنّ خضوعه له سيكون أشـدّ وأقـوى، بحيث يصبح مستعداً لتنفيذ كل ما يطلبه منه. وهذه الحالة ليست غريبةً عن الإنسان، بل هي نابعةٌ من أصل خلقته التي فطرت على الخضوع أمام كل عظيم.

ولـو أعاد الإنسان النظـر ورجع إلى أعماق ذاته من جديـد سوف يكتشف حقيقةً أخرى جليّة مفادها، أنّه مخلوقٌ ضعيف ومحتاج على الدوام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[1]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾[2]، فالاحتيـاج والضعف يخالطانـه كمـا يخالط الدم لحمه بـل أشدّ من ذلـك.. وهذا هو السبـب الجوهري والأساسي لحالة الانجذاب والخضوع التي تحدّثنا عنها آنفاً. فالإنسان عندما يعاين عجزه وضعفه سوف يلجأ لا محالة إلى موجود أكمل منه وأقوى وأغنى لكي يرفع عنه هـذا النقص والاحتياج الذي يتخبّط فيه. هذا التوجّـه نحو الموجود الأكمل والأقوى يترجـم عمليّـاً بما يسمّى بالعبـادة والخضوع. والفطرة الإنسانيـة لا تطلب الخضوع عبثاً، وإنّما لأنها تجد فيه سبيلاً للكمال والسعادة المفقودين.

(1) سورة فاطر، الآية: 15.

(2) سورة محمد، الآية: 38.

أصناف البشر

الناس في هذه الحياة الدنيا صنفان:

صنفٌ يرى كماله وسعادته في الدنيا وملذّاتها، فيتوجّه إليها ويطلبها علّه يجد فيها ريّاً لعطشه. وهذا الطلب قد يقوى ويشتدّ عند بعض الناس حتى يصل إلى درجة العبادة، بحيث يصبح الإنسان عابداً للدنيا والأهواء المتفرّعة عنها. وهذا ما كشف النقاب عنه في القرآن الكريم حيث قال عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [1].

وصنفٌ آخر من الناس أدركوا الكمال الحقيقي وشخّصوه جيداً، وعرفوا أنّ مطلوبهم الواقعي ليس الكمالات المحدودة والزائلة، بل ما يبحثون عنه واقعاً وما تعشقه فطرتهم هو الكمال اللامتناهي الذي لا نقص فيه ولا اضمحلال ولا زوال، وهو اللّه تبارك وتعالى. فتوجّهوا إليه بقلوبٍ منكسرة، خاضعة، مستبشرة، وعبدوه لأنه أهلٌ للعبادة، ولأنّه مالكُ كلّ شيء وهو على كل شيءٍ قدير ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2]. وهذا أمرٌ طبيعي وفطري لأنّ الإنسان إذا أحب موجوداً ما، فإنّ أفضل وسيلة للتعبير عن هذا الحب هو الخضوع أمامه وطاعته فيما يأمر به. فكيف إذا كان قلب الإنسان متوجّهاً إلى اللّه ومتعلّقاً به ومنجذباً نحوه؟! أمام هذه الحقيقة الجليّة يرتفع النداء الإلهي ليكشف النقاب عن سرّ وجود الإنسان في هذا العالم والهدف الأساسي من وجوده، فيقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3] وفي آية أخرى يقول ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [4]. ولو عاد الإنسان إلى نفسه مجدّداً فسيجد أنّ الطاعة ليست بالأمر الغريب والطارئ عليه، بل إنّ فطرته

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.
(2) سورة الملك، الآية: 1.
(3) سورة الذاريات، الآية: 56.
(4) سورة هود، الآية: 123.

الإنسانيــة وجبلّته الأصلية قد جبلت على الطاعة والعبــادة. إذاً، فالعبودية أمرٌ فطري في الإنسان وعليه يصبح الطريق إلى اللّه عزّ وجلّ جليّاً وواضحاً لا غبار عليه.

لماذا العبودية؟

لسائلٍ أن يســأل عــن السبب الــذي جعل العبوديــة هي الطريــق الوحيد للخروج مــن حالة النقصــ والاحتياج البشــري، وبالتالي الطريق الوحيــد للاتصال بالكمال اللامتناهــي، أي بالحق عزّ وجلّ. فما الذي يمنع من افتراض وجود طريقٍ آخر يصل الإنســان عبره؟! إن امتلاك جوابٍ صحيح عن هذا السؤال يتوقف على معرفة دقيقة بحقيقــة النفســ وتوجّهاتهــا الفطرية، ففــي الحديث عن رســول اللّه ﷺ قالً: «**من عرف نفسه عرف ربه**»[1].

إن النّفسـ الإنسانيّــة كما ذكرنــا مجبولةٌ على الطاعة والخضــوع أمام كل عظيم وكامــل، أمام كل من يؤمّن لهــا سعادتها وراحتها وكمالها. وهذه الحقيقة وصمةٌ على جبيــن الإنسانيّة لا مفرّ منها أبداً. فالإنسان لا محالة عابدٌ ومطيعٌ، والسبب في ذلك فقــره ضعفــه ونقصه. ولكن هذا الإنسان إمــا أن يكون عابداً ومطيعــاً لموجود فقير ومحتــاج مثلــه، وإما أن يكون خاضعــاً لموجود كامــل لا نقص فيه أبــداً. وما يرجوه الإنســانٌ من خضوعه وعبادته دوماً هو نيله السعادة التي يتوق إليها ويبحث عنها في الليل والنهار، وهي السعادة الخالدة والدائمة التي لا نقص فيها ولا عوج، لا السعادة المحدودة الزائلة والفانية.

وهــذه السعادة بطبيعــة الحال لن تكون عند مخلوقٍ ضعيف مثلــه، لأنه لا يمتلكها أيضــاً، ففاقد الشــيء لا يعطيه أبداً. وهو لو توجّه إلى موجــود ضعيف ومحتاج مثله، فإنّــه لن يزيــده إلّا فقراً ونقصاً، لأنّ الآخرين مثله محتاجــون أيضاً إلى من يعطيهم السعادة والكمال ولو أظهروا لنا خلاف ذلك.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص32.

العبودية أمر لا مفرّ منه

إذاً، لا مفرّ من العبودية والطاعة، ولكن الإنسان إما أن يكون عبداً للّه تعالى وإما عبداً للدنيا والأهواء. والإنسان إذا أراد أن يدرك ما عند اللّه تعالى الذي هو أصل كل غنىً وكمال، ومصدر كل جمال ومنبع كلّ سعادة وطمأنينة وراحة في هذا العالم، فإنّه لن يحصل على مراده إلَّا بعبادته وحده، لأنّ العبادة ليست سوى التعبير العملي عن التوجّه نحوه عزّ وجلّ. عن مولى الموحّدين علي عليه السلام أنّه قال: «**إنّه لا يدرك ما عند اللّه إلا بطاعته**»[1]. أما سعي الإنسان وراء الدنيا وإعمال الجهد في تحصيل ملذّاتها وكمالاتها الموهومة الفانية فلن تزيد الإنسان سوى عطشاً وحيرةً وضلالة. كما عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله**»[2]. والسبب في ذلك أنّ الدنيّا الفانيّة والنّاقصة لا يمكن أن تكون بحالٍ من الأحوال غاية الأرواح الباحثة عن الخلود والسعادة التي لا حدّ لها ولا منتهى. لذا أمر اللّه تعالى الإنسان بطاعته، وأن لا يشرك بطاعته أحداً، لأن الطاعة هي الترجمة العمليّة للخضوع والحبّ، وحبّ اللّه لا يمكن أن يجتمع معه حبٌّ آخر، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[3] فطاعة اللّه ومحبته لا تجتمع مع طاعة غيره: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[4]. وقال عزّ من قائل: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5]. ويحذّر من طاعة غيره فيقول: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[6].

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج15، ص234.
(2) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج2،ص136.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 4.
(4) سورة النساء، الآية: 36.
(5) سورة البقرة، الآية: 21.
(6) سورة الأنعام، الآية: 121.

إذاً، التحقّق بالكمال الإنساني اللامتناهي لا يتمّ إلَّا بالارتباط الحقيقي والعميق بالحق جلّ وعلا. ونحن لو أردنا أن نعطي مرادفاً آخر للارتباط الفعلي والعملي باللّه عزّ وجلّ، فلن نجد أفضل من كلمة العبودية. فمن المتعذّر على الإنسان الباحث عن السعادة والكمال الإنساني المنشود أن يجد مطلوبه عند غير اللّه تعالى. واللّه سبحانه وتعالى اختصر وجود الإنسان في هذه الدنيا بكلمة واحدة هي العبادة. فالطريق الوحيد إلى الغاية الحقيقية هو الانقياد التامّ للّه سبحانه والذي يظهر بصورة اتّباع رسله وتطبيق شريعته. فالعبودية الحقّة لا تتحقق إلّا من خلال الانقياد التامّ للّه وترك التّمرد والعناد. ونتيجة هذه العبودية: «**يا ابن آدم: أنا غنّي لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنياً لا تفتقر يا ابن آدم: أنا حيّ لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون**»[1].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص376.



المفاهيم الرئيسة

1. يخضع الإنسان بحكم ضعفه وفقره وفطرته الباحثة عن الكمال أمام كلّ من يمتلك العظمة والقدرة.
2. إذا أعاد الإنسان النظر ورجع إلى أعماق ذاته سوف يكتشف حقيقةً جليّة مفادها أنّه مخلوقٌ ضعيف ومحتاج وناقص.
3. اللّه عزّ وجلّ هو أصل كل عظمة وقدرة وكمال في هذا الوجود.
4. العبودية والخضوع للّه هي الهدف من خلق الإنسان، لأنّه أصل كلّ كمال وعظمة وقدرة في هذه الحياة.
5. الناس في هذه الحياة الدنيا صنفان: صنفٌ يرى كماله وسعادته في الدنيا وملذّاتها، فيتوجّه إليها ويطلبها، وصنف يرى كماله وسعادته مع اللّه وفي التقرب إليه فيعبده ويخضع له.
6. الإنسان لا محالة عابدٌ ومطيعٌ، والسبب في ذلك فقره ضعفه ونقصه.
7. لا مفرّ من العبودية والطاعة، ولكنّ الإنسان إما أن يكون عبداً للّه تعالى وإما عبداً للدنيا والأهواء.



أسئلة الدرس

1. مـا هـو السبب الجوهـري في صيـرورة حالة العبوديـة والخضوع مـن الأمور الفطرية عند الإنسان؟
2. لماذا كانت العبودية هي السبيل الوحيد الذي يوصل إلى الغاية الحقيقية؟
3. الناس في رؤيتهم للكمال في هذه الحياة الدنيا صنفان تحدث عنهما بإيجاز.



عزّ الربوبية وذلّ العبودية [1]

مـن الآداب القلبية في العبادات والوظائف الباطنية لسالك طريق الآخرة التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية، وهو بالنسبة للسالك من منازل السلوك المهمّة بحيث تكـون قـوّة سلوك أيّ إنسان بحسب قوّة هذا التوجّـه والنّظر، بل الكمال والنقص في الإنسانيـة يكون تابعاً لنقصانـه وكماله. وكلما كان النظر إلى الإنّيـة والأنانية ورؤية النفسـ وحبّهـا في الإنسان غالبـاً كان بعيداً عن كمال الإنسانيـة ومهجوراً من مقام القـرب الربوبي. وإنّ حجاب رؤية النفسـ وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها، وخرق هـذا الحجـاب أصعـب من خرق جميـع الحجب التي يعـدّ خرقها مقدمة لـه. بل إنّ مفتـاح مفاتيح الغيـب والشهادة وباب أبواب العـروج إلى كمـال الروحانية هو خرق هذا الحجاب. ومـا دام الإنسان قاصر النظر إلى نفسه وكماله وجماله الموهوم فهو محجـوبٌ وبعيدٌ عن الجمال المطلـق والكمال الصرف. والخروج من هذا المنزل هو أول شرط للسلوك إلى الله بل هو الميزان في حقّانية الرياضة وبطلانها. فكلّ سالك يسلـك بقـدم الأنانية ورؤيـة النفس ويطوي منـازل السلوك في حجـاب الإنيّة وحبّ النفسـ تكون رياضته باطلـة ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلـى النفس (نفسك هي أمّ الأصنـام)[2]. قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾[3]. فالهجـرة الصوريّة وصـورة الهجرة عبارة عن الهجرة بالبدن الذي هو «**المنزل الصـوري**» إلى الكعبة أو إلـى مشاهد الأولياء عليهم السلام. والهجرة المعنوية هـي الخروج مـن بيت النفس ومنزل الدنيـا إلى الله ورسوله، والهجـرة إلى الرسول

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى، الفصل الأول، ص 33.

(2) مصراع بيت للعارف الرومي المشهور.

(3) سورة النساء، الآية: 100.

والوليّ هي أيضاً هجرة إلى الله. وما دام التعلق بالنفس والتوجّه إلى الإنّيّة موجودان، فلا يكون مسافراً، وما دامت بقايا الأنانية أمام نظر السالك، وجدران مدينة النفس غيـر مختفية، وأذان إعلان حبّ النفس مسموعـاً، فهو في حكم الحاضر لا المسافر ولا المهاجر.

وفـي مصبـاح الشريعة قـال الإمـام الصـادق عليه السلام: «**العبودية جوهـرة كنهها الربوبيـة فمـا فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية**»[1].

فمن سعى بخطوة العبودية ووسم ناصيته بسمة ذلّها سيجد سبيل الوصول إلى عزّ الربوبيـة. وطريق الوصول إلى الحقائق الربوبية هـو السير في مدارج العبودية؛ فما فقد من الإنّيّة والأنانية في عبوديّته يجده في ظّل حمى الربوبية، حتى يصل إلى مقام يكون الحق تعالـى سمعه وبصره ويده ورجله كما ورد في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين. فإذا أسقط العبد تصرفاته وسلّم مملكة وجوده كلها إلى الحق وخلّى بين البيت وصاحبه وفني في عزّ الربوبية، فحينئذ يكون المتصرف في الدار صاحبها فتصير تدبيراته تدبيرات إلهية، فيكون بصره بصراً إلهياً وينظر ببصر الحق ويكون سمعه سمعاً إلهيـاً فيسمعً بسمع الحق. وبمقدار ما تزداد ربوبية النفس ويكون عزّها غايـة في نظره، ينقص من عـزّ الربوبية، لأن هذين: أي عـزّ العبودية وعز الربوبية متقابلان «**الدنيا والآخرة ضرتان**»[2].

الإمام الخميني قدس سره

(1) مصباح الشريعة، ص5. المنسوب للإمام الصادق عليه السلام.
(2) المحقّق الاحسائي، عوالي اللآلي، ج4، ص114.



الدرس العاشر

طريق العبودية إلى اللّٰه



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى الطريق الذي ينبغي له أن يسلكه ليكون عبداً حقيقياً للّٰه.

2- يبيّن أهم شروط وآداب العبودية للّٰه.

3- يبيّن أنّ اتّباع الشريعة هو الطريق الوحيد الأوحد إلى اللّٰه تعالى.

شروط العبودية

إنّ الأنبيــاء والأوصياء جاؤوا ليعلّمــوا النـاس أدب الحضور في محضر اللّه تعالى، ولينذروهــم بعاقبة ترك طاعته وعبوديتــه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[1]. فهــذا المحضــر لا يدخلــه مــن كان ملوّثاً بالذنــوب والمعاصي: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2]. لقــد جاؤوا ليعلموا النـاس العبودية للّه عزّ وجلّ. وإنّ لهذه العبودية ثلاثة شروط أساسية هي:

1. الالتــزام التامّ بأوامر اللّه ونواهيــه: فالعبد الحقيقي هو المطيع لسيده في كلّ مــا يأمر به أو ينهى عنه، إلى الحدّ الذي تصبــح فيه شريعة المولى هي الآمر الناهي في كلّ مملكة وجود هذا العبد. فإذا أراد الإنسان أن يكون عبداً شكوراً للّه عليه أن يلتزم بكل ما يأمر به مولاه، فلا يقدّم ولا يؤخّر شيئاً إلّا طبق إرادة اللّه.
2. التسليــم التام لإرادة اللّه: فلا يكفي مجــرد الالتزام والعمل، بل ينبغي لسالك طريق العبودية أن يسلّم أمره بالكامل إلى سيّده ومولاه، بمعنى ترك الاعتراض على اللّه مطلقاً. قال اللّه تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ

(1) سورة نوح، الآيتان: 2 – 3.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان: 25.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. فالمؤمن الحقيقي لا يجد في نفسه حرجاً من أدائه لحكم الله بل يسلّم أمره إليه ويرضى بحكمه، ولا يتذمر أو يتأفف على الإطلاق، لأنَّه على يقينٍ بأن الله تعالى ما شرّع من حكمٍ إلَّا لمصلحته وصلاحه في الدنيا والآخرة.

3. الإخلاص: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2]. تبيّن الآية الكريمة بشكلٍ واضحٍ شرطين أساسيين للقاء الحقّ تعالى: الأوَّل العمل الصالح وهو الذي يظهر من خلال اتّباع الشريعة والعمل بأحكامها. والشرط الثاني هو عدم الشرك بالله تعالى أي الإخلاص، لأنّ الشرك يضادّه الإخلاص، فمن لم يكن مخلصاً فهو مشرك. فالله عزّ وجل أمر النّاس بالعبادة ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[3]، ولكنّه لم يأمر بأيّ عبادة بل أمر بالعبادة الخالصة له التي لا يشاركه فيها أحدٌ سواه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[5]، وفي آية أخرى يوجّه القرآن خطابه إلى جميع المسلمين ويأمرهم قائلاً: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[6]، وفي مكانٍ آخر يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[7].

(1) سورة النساء، الآية: 65.
(2) سورة الكهف، الآية: 110.
(3) سورة الإسراء، الآية: 23.
(4) سورة البيّنة، الآية: 5.
(5) سورة الزمر، الآية: 2.
(6) سورة الأعراف، الآية: 29.
(7) سورة الزمر، الآية: 11.

طريق العبودية

إنّ الطريق إلى العبودية يُسلك بتمرين النفس وترويضها بالعبادة والطاعة. فعلى أثر دوام الطاعة، يصبح الانقياد العملي ملكةً راسخة في النفس. ومن خلال المواظبة على الصالحات يصبح الباطن صالحاً، ومن خلال التصبّر والاصطِبَار نصل إلى خُلق الصبر. وهذا أحد أهداف تكرار العبادات في الإسلام. إنّ مفهوم العبودية وجميع لوازمها من التسليم والانقياد والطاعة وترك الأنا والفناء والذوبان والانتظار وغيرها هي من المفاهيم الوجدانية التي يدركها من تصوّرها وعرفها. فإنّ الخضوع والالتزام وترك الاعتراض مطلقاً من معاني العبودية. والعبد الحقيقي هو الذي لا يملك شيئاً أمام سيده ومولاه، لأنّ سيده هو الذي يملكه ويملك جميع شؤونه. ولا يعترض عليه فيما يفعله به، ويلتزم بكل ما يأمره.

إنّ العبودية مقامٌ للنفس وحالة للباطن والقلب، وهي تتجلّى في أعمال الإنسان وظاهره. والعبد هو الذي يلاحظ إرادة سيده، فيتبعها دون حرج في نفسه، ويجعل إرادته تابعة لها مطلقاً. ولكي يتحقّق السالك بهذا المقام عليه أن يمارس هذه التبعيّة في باطنه وظاهره حتّى تصبح ملكةً راسخة لنفسه، فيكون عبداً للّه تعالى بالحقيقة. فإذا أراد سلوك طريق العبودية عليه أن يسقط من نواياه ودوافعه ومن غايات أعماله وعباداته كل ما عدا الله. فلا يصدر عنه عملٌ أو فعل أو تفكّر إلَّا للّه وحده. وهذا هو الإخلاص. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [1].

(1) سورة الأحزاب، الآية: 36.

الشريعة الإلهية هي الطريق الأوحد

خلق الإنسان ليصل إلى السعادة والكمال الذي لا حدّ له، إلى لقاء اللّه عزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [1]. والطريق الوحيد الذي يضمن للإنسان هذا الهدف السامي والشريف هو الطاعة والعبودية التامّة للّه تعالى. فعن أمير المؤمنين عليه السلام يقول في عهده إلى مالك الأشتر: «**هذا ما أمر به عبد الله عليّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه...أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتّباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلَّا باتباعها، ولا يشقى إلَّا مع جحودها وإضاعتها..**»[2].

فإذا كان ما عند اللّه لا يدرك إلَّا بطاعته، وكانت الطاعة فاضلةً على ما سواها، وكان القرب منه تعالى متوقّفاً على ما فرضه علينا من الطاعة والتسليم له كما جاء في الحديث القدسي: «**ما تقرب إليّ عبد بمثل ما يتقرب إليّ بالفرائض**»[3]، فإنّ السؤال الجوهري والأساسي الذي ينبغي لنا الإجابة عنه هو كيف نطيع اللّه وبماذا؟

لقد أرسل اللّه تعالى إلى الناس شريعةً كاملة وشاملة تحتوي على كلّ احتياجاتهم ومتطلّباتهم، وهي تتضمّن أوامر اللّه تعالى ونواهيه في كل شأنٍ من شؤون هذه الحياة، ما ظهر منها وما بطن. وإنّ المبدأ الأساس الذي قامت عليه هذه الشريعة هو مصلحة الإنسان وسعادته. فكل ما جاء فيها إنّما كان لمصلحة الإنسان وسعادته. وهي الدستور والقانون الذي ينبغي أن يطاع اللّه به. فإذا أراد الإنسان أن يكون عبداً صالحاً سالكاً نحو اللّه ورضوانه، ما عليه إلَّا أن يجتهد في اتّباع هذه الشريعة بكل تفاصيلها بعد التعرّف إليها وتعلّم أحكامها، حلالها وحرامها، فيسعى بجدٍّ ونشاطٍ لتطبيق هذه الأحكام حتّى تسري في كلّ تفاصيل حياته، فتصبح أحكام اللّه تعالى هي الحاكمة في مملكة وجود الإنسان لا الأهواء النفسية الباطلة.

---

(1) سورة الانشقاق، الآية: 6.

(2) نهج البلاغة، ج 3، ص 83.

(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص58.

فطريق الجنّة هو طريق الطاعة والتقوى للّه، وهذه الطاعة إنّما تتجلّى من خلال الالتزام بشريعة اللّه: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [1]. أما لو استكبر الإنسان وعصى فترك عبادة اللّه، فإنّ جهنم هي المثوى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [2]. فالعبد الحقيقي هو الذي يرجع إلى الشريعة قبل اتّخاذ أي موقف، علما منه بأنّها تمثّل إرادة اللّه، ومن لا يسلك طريق العبودية، فإنّه يسرع إلى اتّخاذ الموقف والقيام بالعمل من نفسه. وهذا هو السبب الأساسي في هلاك الإنسان، أي رجوعه إلى نفسه بدل الرجوع إلى ربه لمعرفة الحلال والحرام منه وما فيه مصلحته وخيره.

والشريعة الإلهية تنقسم إلى خمسة أحكام أساسية هي:

- **الحرام:** وهو الذي يعاقب الإنسان على فعله.
- **الواجب:** هو الذي يعاقب الإنسان على تركه.
- **المكروه:** وهو الذي يثاب الإنسان على تركه ولا يعاقب على فعله.
- **المستحبّ:** وهو الذي يثاب الإنسان على فعله ولا يعاقب على تركه.
- **المباح:** وهو الحكم الذي يفسح فيه الشارع المجال للمكلف ليختار الموقف الذي يريده.

فالعبد الحقيقي لا يبيح لنفسه شيئاً إلّا بعد عرضه على الأحكام الشرعية الأربعة، فإنّ لم يجده محرّماً أو واجباً أو مستحباً أو مكروهاً يحكم بأنّه مباحٌ ويتصرّف وفقه، لأنّ اللّه تعالى قد فوّض إليه في هذه الحالة التصرّف في هذا الشيء. وفي الواقع المتصرّف هنا أيضاً هو إرادة اللّه التشريعية، وليس إرادة العبد واختياره، لأنّ اللّه تعالى هو الذي أباح له هذا الأمر. وعليه لكي يصبح الإنسان من السالكين لدرب الحق عليه:

أولاً: التعرّف إلى شريعة اللّه من خلال تعلّم الأحكام الشرعية.

ثانياً: العمل على تطبيق هذه الأحكام في حياته.

(1) سورة مريم، الآية: 63.
(2) سورة غافر، الآية: 60.



المفاهيم الرئيسة

1. الأنبياء والأوصياء جــاؤوا ليعلّموا الناس أدب الحضور في محضر اللّه تعالى، جاؤوا ليعلموا الناس العبودية للّه عزّ وجلّ.

2. العبودية المطلقة للّه هي السبيل الوحيد للوصول إلى الغاية الإنسانية.

3. للعبودية ثلاثة شروط أساسية: الالتزام بالأوامر الإلهية، التسليم التام لإرادة اللّه، والإخلاص.

4. العبودية للّه تعالى تتحقّق من خلال اتّباع شريعته بكل تفاصيلها.

5. على العبد الحقيقي أن يسعى إلى التعرّف إلى الأحكام الشرعية ومن ثمَّ العمل على تطبيقها.

6. العبد هو الذي يلاحظ إرادة سيده، فيتبعها دون حرجٍ في نفسه، ويجعل إرادته تابعة لها مطلقاً.

7. إذا أراد الإنســان أن يكـون عبـداً صالحاً سالـكاً نحو اللّه ورضوانـه، ما عليه إلَّا أن يجتهـد فــي اتّباع هــذه الشريعة بكل تفاصيلها بعد التعـرّف إليها وتعلّم أحكامها.

8. طريق الجنّة هو طريق الطاعة والتقوى للّه، وهذه الطاعة إنّما تتجلّى من خلال الالتزام بشريعة اللّه.

9. العبـد الحقيقــي لا يبيح لنفســه شيئاً إلَّا بعـد عرضه على الأحـكام الشرعية الأربعة.



أسئلة الدرس

1. ما هو الطريق العملي الذي باتّباعه يتحقّق الإنسان بمقام العبودية للّه؟
2. تحدث عن شروط العبودية للّه تعالى بإيجاز.
3. لماذا لا يوجد بديل أو طريق آخر غير اتباع الشريعة؟ وما الضير في ذلك؟



العبودية للّه لا للنفس[1]!

اعلم أنّ الإنسان إذا أصبح مقهوراً لهيمنة الشهوة والميول النفسية، كان رقُّه وعبوديته وذلّتـه بقـدر مقهوريّته لتلك السلطـات الحاكمة عليه. ومعنـى العبودية لشخص هو الخضوع التام له وإطاعته. والإنسـان المطيع للشهوات المقهور للنفس الأمّارة يكون عبـداً منقـاداً لها. وكلمـا توحي هـذه السلطات بشـيء أطاعها الإنسـان في منتهى الخضـوع، ويغدو عبـداً خاضعاً ومطيعاً أمام تلـك القوى الحاكمة، ويبلـغ الأمر إلى مستـوىً يفضّل طاعتها على طاعة خالق السمـاوات والأرض، وعبوديتها على عبودية مالـك الملـوك الحقيقي. وفي هذا الحال تـزول عن نفسه العـزّة والكرامة والحرية ويحـل محلّها الذلّ والهوان، والخضوع لأهل الدنيا، فينحني قلبه أمامهما وأمام ذوي الجـاه والحشمـة، ويتحمّل لأجل البلوغ إلـى شهواته النفسية الـذلّ والمنّة، ويستسيغ لأجـل الترفيـه عـن البطن والفرج الهـوان، ولا يتضايـق من اقتراف مـا فيه خلاف الشـرف والفتـوّة عندما يكون أسيراً لهـوى النفس والشهوة. فينقلـب إلى أداة طيّعة أمـام كل صالح وطالـح، ويقبل امتنان كل وضيع عنده لمجـرّد احتمال نيل ما يبتغيه حتى إذا كان ذلك الشخص أحطّ وأتفه إنسان.

إنّ عبيـد الدّنيـا وعبيد الرّغبات الذاتيّـة، والذين رسن عبوديـة الميول النفسيّة فـي رقابهم، يعبدون كل من يعلمـون أن لديه الدنيا أو يحتملـون أنّه من ذوّي الدنيا، ويخضعـون له، وإذا تحدثوا عـن التعفّف وكبر النفس كان حديثهـم تدليساً محضاً، وأعمالهـم أقوالهم تكذّب حديثهم عن عفـة النفس ومناعتها. وهذا الأسر والرقّ من الأمـور التي تجعل الإنسان دائماً في المذلّة والعـذاب والنَصَب. ويجب على الإنسان

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث السادس عشر، الصبر، ص 283.

ذي النبل والكرامة أن يلتجئ إلى كل وسيلة لتطهير نفسه منها. ويتم التطهير من هذه القذارات، والتحرير من كل خفّة وهوان، بمعالجة النفس، وهي لا تكون إلّا بواسطة العلم والعمل الناجع. أمّا العمل فيكون بالرياضة الشرعيّة وبمّخالفة النفس فترة يتمّ فيها الوازع للنفس تجاه حبها المفرط للدنيا والشهوات والأهواء حتى تتعوّد النفس على الخيرات والكمالات.

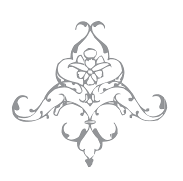
الإمام الخميني قدّس سرّه



الدرس الحادي عشر

موانع العبودية لله (1)

(الغفلة)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى أهمّ الموانع التي تحول دون لقاء الله تعالى.

2- يبيّن حقيقة الغفلة وأهم صفات الغافلين.

3- يشرح كيفيّة معالجة هذه الآفة التي تصدّ عن سبيل الله.

موانع الارتباط بالله

كان الكلام يدور حول الكمال الإنساني الذي لا يفوقه أيّ كمال، وذلك عندما يصل الإنسـان إلـى مقام الشهادة ولقاء اللّه، حيث لا خـوف ولا حزن ولا نقص هنالك لأنّ ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ﴾[1]. وللوصـول إلى هذا المقـام الشامخ على الإنسان المجاهـد أن يتعرّف إلى كلّ قاطع لطريقه أو مانع لسفره ويطرده، كما عليه أيضاً أن يتعـرّف إلـى كلّ ما يمكن أن يساعده في الوصول إلى هذه الدّرجة السّامية، والمنزلة الرفيعـة. ويعـدّ التعـرّف إلى الموانـع التي تحـول دون بلوغه هذا الهـدف الشريف، الحلقة الأولى في مسيرة الإنسان التكاملية، لأنه من المتعذّر الدخول في الصّالحين والعبـاد المكرمين ما لم يجتـز الإنسان العوائق والموانع التي تحـول بينه وبين ربّه، واجتيازها أيضاً غير ممكن قبل التعرّف إليها. ومن أهمّ الموانع التي تحبس الإنسان عن الارتباط بربّه ودخول جنّته، هي:

- الغفلة عن الحقّ تعالى.
- الرّضا بالحياة الدنيا.
- العقائد الفاسدة التي يحملها الإنسان.
- الذنوب والمعاصي واتّباع الهوى.

---

(1) سورة النحل، الآية: 96.

فعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**من رعى قلبه عن الغفلة، ونفسه عن الشهوة، وعقله عن الجهل، فقد دخل في ديوان المُنَبَّهِينَ**»[1].

حقيقة الغفلة

بعض الناس رغم امتلاكهم للأدوات والوسائل التي تؤهّلهم للوصول إلى الكمال الإنساني المطلوب، ورغم وجود الاستعدادات الفكريّة التي تؤهّلهم لذلك، إلّا أنّنا نجد أنّهم يعيشون حالة من البعد عن الله وعن الارتباط الصّحيح به. والبعض منهم أيضاً رغم علمهم بمبادئ الإسلام وبأحكامه وتعاليمه إلّا أنك لا تجد فيهم ذلك الشّوق إلى المحبوب الأوحد، ولا تجد نيران الفطرة التي تعشق الكمال تحرقهم للوصول إلى الله تعالى، وهذه الحالة سمّاها القرآن الكريم بالغفلة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[2]. وحقيقة الغفلة هي انعدام التوجّه إلى المقصد الحقيقي للإنسان وهو الله سبحانه وتعالى، والانشغال بغيره.

فعندما يعتبر الإنسان أنّ الله تبارك تعالى غائب عنه وبعيد، ولا يدرك أنّ الله قريب منه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[3]، وأنّه معه أينما حطّ رحاله ويمّم وجهه، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[4]، فإنّه سوف يغرق في الغفلة. وإذا غرق في الغفلة تهاون في أداء واجباته، ولم يعتن باجتناب المحرّمات. أمّا لو أدرك أنّ الله معه ووجد نفسه في محضر الله دائماً، فإنّه سيسعى لأداء كلّ الأعمال طبق الإرادة الإلهية. وهذه الأعمال التي تؤدّى وفق إرادة الله هي في الواقع أعمال مقرّبة إلى الله، كالصّلاة التي هي «**قربان كل تقي**»[5].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج12، ص111.
(2) سورة الروم، الآية: 7.
(3) سورة ق، الآية: 16.
(4) سورة الحديد، الآية: 4.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج3،ص265..

والهدف مـن إرسال الأنبياء عليهم السلام هو إحياء النفوس وتوجيهها نحو الحقّ، ليكون الإنســان ذاكـراً له في كلّ حركاتـه وسكناته. فما من شـيء إلا ولله فيه حكم وإرادة وحضـور. والإنسـان الغافل هو الذي ينشغل بأمور لا قيمة لهـا عن أداء واجباته تجاه خالقه، تلك الأعمال الصالحة التي تؤهّله ليكون في مصافّ المشاهدين لجمال وجهه الكريـم وكمالاته اللّامحدودة. فتراه لا يخشع في صلاته، ولا يُقبل على تلاوة القرآن والدعـاء، ولا يهتـمّ بتزكية نفسه وتهذيبهـا، ولا يزداد علماً ومعرفـة، ولا يبحث عن تكليفـه الشرعيّ بهدف خدمة المستضعفين من المؤمنين، فيقضي معظم أوقاته في اللّهو واللّعب والانشغال بتوافه الأمور وسفاسفها، فيصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾[1].

من هم الغافلون؟

يحدّثنا القرآن الكريم عن الغافلين ويصفهم لنا بأنّهم في الظاهر بشر مثل بقيّة النـاس، ولكنهم في المضمون والجوهر هم بعيـدون كلّ البعد عن حقيقة الإنسانية. فهـم رغم امتلاكهم لنعمـة السمع والبصر والفؤاد، إلّا أن البـاري عزّ وجلّ يصفهم بأنهـم كالأنعام بل أضلّ!! والسبب في ذلـك أنّهم لم يستفيدوا من هذه النّعم الإلهية بالشكل الصحيح، ولم يوجّهوها نحو المقاصد والأهداف التي يريدها الله ويرضاها لعبـاده، ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[2]. فالغافلون لهم قلوب ولكنها لا تعقل ولا تفكّر في حجج الله وبيّناته، ولهم أعين ولكنّها لا تشاهـد آياتـه، ولهـم آذان ولكنّهـا لا تسمع ولا تفقـه قوله تعالـى، ولا وعظ الأئمّة المرشديـن إلى الهدى وديـن الحق. فكانوا أسوأ حالاً من البهائم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ

(1) سورة يونس، الآية: 7.
(2) سورة الأعراف، الآية: 179.

هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ عـن حجـج الله تعالى وبيّناته، وعـن التفكير بما يصلـح حالهـم ويؤمّن مآلهم في الدنيـا والآخرة. فكانت عاقبـة أمرهم أن طبع الله على قلوبهـم وسمعهم وأبصارهـم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[1].

منشأ الغفلة وأسبابها

للغفلة عن الحقّ تعالى أسباب ومناشئ عديدة سوف نذكر أهمّها:

1. **ضـعف الإيمان**: يقول الإمام الخميني قدس سره: «**هل تعلم المسّـوغ لفتورنا هذا فـي الأمـور الدينية؟ إنّه لأجل عـدم إيماننا بالغيـب، وأنّ مرتكزات عقائدنا واهية، وإيماننا بالوعود الإلهية والأنبياء مهتز ومتزلزل، وتكون النتيجة أنّ جميع الأمور الدينية والشـرائع الإلهية عندنا تافهة وموهنة، ويفضي هذا الوهن شـيئاً فشـيئاً إلى الغفلة فإمّا أن تهيمن علينا هذه الغفلة، وتخرجنا كلياً من هذا الدين الشكلي الصوري الذي نعتنقه، أو تبعث على الغفلة لدى أهوال نزع الروح وشدائد اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان**»[2].
2. **حـبّ الدنيـا**: وهو من أهمّ أسبـاب الغفلة، لأنها تعمي وتصـمّ عن اتّباع سبيل الحـق، كمـا قال أمير المؤمنيـن عليه السلام حيث كتب إلى بعض أصحابه يعظه، وممّـا قاله له: «**فارفض الدنيا، فـإنّ حُبَّ الدنيا يُعمي ويُصِـمُّ، ويُبْكِمُ، ويُذِلُّ الرقاب**»[3].
3. **الجهـل بالهـدف النهائـي**: إنّ جهل الإنسـان بالغاية الحقيقيّـة التي خلق من أجلهـا، وبمـا وعد الله به المطيعين لـه والعاملين بأمره، وأنّـه ما لهذه الدنيا

(1) سورة النحل، الآية: 108.

(2) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث التاسع والعشرون، في بيان الصلاة الوسطى، ص: 551.

(3) الشيخ الكليني، الكافي،ج2، ص136.

الفانية خلق، يدفع الإنسان إلى الاستزادة منها والغفلة عن الآخرة وما فيها ظنّاً منه أنها نهاية الأمل وغاية المنى. فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ألا وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنّونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم، ولا منزلكم الذي خلقتم له، ولا الذي دعيتم إليه. ألا وإنها ليست بباقية لكم، ولا تبقون عليها**»[1].

4. **اتّباع الشّهوات**: فالإنسان عندما يغدو تابعاً لحاجاته المادّية، ومنقاداً لغرائزه الحيوانية، فيجعل حاجاته الشهويّة في المقدّمة دوماً، ويقلّدها زمام الأمور وينقاد إلى مطالبها كلّما أمرت، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى تقوية الجانب المادي في حياته، وتضعف التوجّهات المعنويّة فيه حتى يغفل عنها ويغطّ في سبات عميق، فتبعده عن صراط اللّه المستقيم ونهجه القويم. فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**ليس في المعاصي أشدّ من اتّباع الشهوة، فلا تطيعوها فيشغلكم عن ذكر الله**»[2]. وعن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إيّاكم وفضول النظر، فإنه يبذر الهوى، ويولّد الغفلة**»[3].

5. **العشرة السّيئة**: فمعاشرة الفجّار ومجالسة الفاسقين، والمراودة المستمرّة لأهل الدنيا، والاقتصار على مصاحبة أهل المرتبة السّفلى من الإيمان، كلها تورث الغفلة والبعد عن الحقّ، لأنّ المصاحبين كلّهم أهل غفلة واحتجاب عن الحقّ سبحانه وتعالى، كما وصفهم مولى الموحدين عليه السلام: «**وإن أهل الدنيا أهل غفلة**»[4]. و«**المرء على دين خليله وقرينه**»[5] كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج34، ص248.
(2) الآمدي، غرر الحكم، ص190.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج69، ص 199.
(4) م. ن، ج 70، ص 36.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص375.

آثار الغفلة

للغفلة عن الحقّ تعالى والدّار الآخرة عواقب وخيمة ومهلكة نذكر بعضها:

1. العذاب الإلهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1].

2. قساوة القلب: فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب**»[2]. وقال عليه السلام: «**من غلبت عليه الغفلة مات قلبه**»[3].

3. فساد الأعمال: فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاك والغفلة، والاغترار بالمهلة، فإنّ الغفلة تفسد الأعمال، والآجال تقطع الآمال**»[4].

4. رأس كلّ بليّة: فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**الغفلة مصطاد الشيطان، ورأس كل بليّة، وسبب كل حجاب**»[5].

5. عمى البصيرة: فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**دوام الغفلة يعمي البصيرة**»[6].

6. تسلّط الشيطان: إنّ التغافل عن ذكر الله يفضي إلى تسلّط الشيطان على الإنسان: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[7].

(1) سورة يونس، الآيتان: 7 - 8.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص93.
(3) الآمدي، غرر الحكم، ص266.
(4) م. ن.
(5) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 1، ص 389.
(6) الآمدي، غرر الحكم، ص266.
(7) سورة الزخرف، الآية: 36.

علاج الغفلة

إنّ إنسانيّـة الإنسان تبدأ من لحظة خروجه مـن حالة الغفلة وارتقائه إلى مرحلة الذّكـر واليقظـة، فنحـن إذا عدنا إلـى حركة الأنبيـاء عليهم السلام نجد عنـوان حركتهم الأساسـي هو «**الذّكر**»، لذا يصف القرآن الكريم النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مذكّر. ومن الأمور التي تساعد على اليقظة والذّكر:

1. المعرفة بالغاية التي خلق الإنسان لأجلها:

وأنّـه لم يخلق لهـذه الدّنيـا الفانية وملذّاتهـا الزائلة، بل خلقـه الله لمقام قربه وجـواره ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[1]، وللقائـه ومشاهـدة آياتـه ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[2]، ولدخـول جنته ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[3]. ومن لم تستحكم في نفسه المعرفـة الصحيحة بالغاية التي خلق لأجلهـا، معرّض دوماً لأن يقع في ظنّ الوصول إلـى المرام. وكثيراً ما نشاهد مـن يعيش مثل هذه الحالة التي يتصوّر فيها أنه يؤدّي مـا عليه، وكلّما فتـح دفتر محاسبة النفس وجد نفسه غيـر مقصّر. كلّ ذلك من قلّة المعرفة بالغاية الحقيقيّة وضعف حضورها. وإنّ من عرف الغاية وتفكّر بها سيسطع نورهـا على كلّ شؤونـه وحركاته، ويشعر من جرّاء ذلك بالتقصير الشديد. وهذا من موجبات اليقظة وطرد الغفلة.

2. ذكر الموت:

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابـت الغفلـة، ويقـوي القلب بمواعـد الله، ويـرقّ الطّبعَ، ويكسـر أعـلام الهوى، ويطفئ نار الحرص، ويحقّر الدنيا**»[4].

(1) سورة طه، الآية: 41.
(2) سورة الرعد، الآية: 2.
(3) سورة الفجر، الآية: 30.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص133.

3. معاشرة أهل الصلاح:

الذيـن ورد بشأنهم أنـك إذا رأيتهم ذكّروك بالله والآخـرة، فقد سئل رسول الله ﷺ أيّ الجلسـاء خير فقال ﷺ: «من تذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله»[1].

4. قراءة القرآن الكريم:

الذي هو الذّكر المقابل للغفلة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2].



(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة:ج12، ص23.
(2) سورة ق، الآية: 45.



المفاهيم الرئيسة

1. التعرّف إلى الموانع التي تحول دون بلوغه هذا الهدف الشريف، الحلقة الأولى في مسيرة الإنسان التكاملية.
2. الهدف الأساسي من إرسال الأنبياء عليهم السلام هو إحياء النفوس وتوجيهها نحو الحقّ، ليكون الإنسان ذاكراً له في كلّ حركاته وسكناته.
3. الغفلة عن اللّه من الموانع الأساسيّة التي تحول بين الإنسان والارتباط بالحقّ ودخول جنّته.
4. الغفلة هي انعدام التوجّه إلى المقصد الحقيقي للإنسان وهو الحقّ سبحانه وتعالى، والانشغال بغيره.
5. يحدّثنا القرآن الكريم عن الغافلين ويصفهم لنا بأنّهم في الظاهر بشر مثل بقيّة الناس، ولكنهم في المضمون والجوهر هم بعيدون كلّ البعد عن حقيقة الإنسانية.
6. للغفلة أسباب عديدة أهمّها: ضعف الإيمان، حبّ الدنيا، اتّباع الشهوات، الجهل والعشرة والبيئة السيّئة.
7. للغفلة آثار مهلكة وسلبيّة منها: سبب لكلّ بليّة، وقساوة القلب، وعمى البصيرة، وفساد الأعمال، وتسلّط الشيطان، وللعذاب الأليم في الآخرة.
8. معالجة الغفلة تكمن في عدّة أمور: المعرفة بالغاية الحقيقيّة التي خلق الإنسان لأجلها، ذكر الموت دائماً، معاشرة أهل الصلاح، وقراءة القرآن الكريم.



أسئلة الدرس

1. ما هي حقيقة الغفلة؟ ولماذا عدّت من الموانع التي تصدّ عن سبيل اللّه تعالى؟
2. ما هي أهمّ الأسباب التي تؤدّي إلى الغفلة عن الحق سبحانه وتعالى؟
3. تحدّث عن أهمّ آثار الغفلة عن اللّه تعالى.
4. معالجة الغفلة تكمن في عدّة أمور تحدّث عنها بإيجاز.



موعظة الإمام[1]

إنّ المرحلة الأولى من مراحل الإنسانية هي «اليقظة» وهي الاستيقاظ من نوم الغفلة، والصّحوة من سكر الطبيعة، والإدراك بأنّ الإنسان مسافر، وأنّه لا بُدَّ للمسافر من زاد وراحلة. وزاد الإنسان خصاله، وراحلته في هذه المرحلة الخطيرة المخيفة، وفي هذه الطريق الضيّقة، على الصّراط الذي هو أحدَّ من السيف وأدقّ من الشعرة، هي همّة الرجال وعزمهم.

والنور الذي ينير ظلام هذا الطريق، هو نور الإيمان والخصال الحميدة. فإذا تقاعس الإنسان ووهنت همّته أخفق في العبور، وانكبّ على وجهه في النار، وساوى تراب الذّل، وانقلب في هاوية الهلاك. فمن لم يستطع اجتياز هذا الصراط لا يستطيع اجتياز صراط يوم القيامة أيضاً.

فيا أيها العزيز، اشدد عزيمتك، ومزّق عن نفسك سجف الجهل، وانج بنفسك من هذه الورطة المهلكة! كان إمام المتّقين وسالك طريق الحقيقة ينادي في المسجد بأعلى صوته حتّى يسمعه الجيران: «**تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ الله، فَقَدْ نُودِيَ فيكُمْ بِالرَّحيل**» وما زادٌ ينفعك سوى الكمالات النفسانيّة، وتقوى القلب، والأعمال الصالحة، وصفاء الباطن، وخلوص النيّة من كلّ عيب وغشّ.

فإذا كنت من أهل الإيمان الناقص والصّوري، فعليك أن تطهّر نفسك من هذا الغشّ حتى تنضمّ إلى زمرة السّعداء والصالحين. والغشّ يزول بنار التوبة والندم، وبإدخال النفس في أتون العذاب واللوم، وصهرها في حرارة الندامة والعودة إلى الله.

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الإمام الخميني، الحديث الرابع، ص 132.

عليـك أن تعمل في هذا العالـم، وإلّا فإن ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[1] سوف تذيب قلبك.

والله أعلم كم قرناً من قرون الآخرة يستغرق إصلاحك هذا!! إن التطهّر في هذه الدنيـا سهل يسير، فالتغيّرات والتصوّرات سريعـة الوقوع فيها، أما في العالم الآخر فالتغيير يكون بشكل آخر، فزوال صفة من صفات النفس قد يستغرق قروناً عديدة.

إذاً، أيهـا الأخ، مـا دمت في مقتبل عمـرك، وزهرة شبابـك، وأوج قوّتك، وحرّية إرادتـك، سـارع لإصـلاح نفسـك، ولا تلق بـالاً لهذا الجـاه والمقام، وطـأ على هذه الاعتبارات بقدميك إنك إنسان.

الإمام الخميني قدس سره



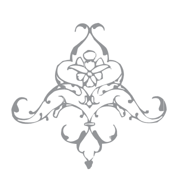
(1) سورة الهمزة، الآيتان: 6 ـ 7.



الدرس الثاني عشر

موانع العبودية لله (2)

(العقائد الفاسدة)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يبيّن كيف تكون العقيدة الفاسدة مانعة من الوصول إلى الله تعالى.

2- يذكر أهمّية العقيدة وتأثيرها على مصير الإنسان.

3- يشرح كيفية معالجة العقائد الباطلة والفاسدة التي تصدّ عن جادّة الحقّ.

مقدمة

ذكرنا سابقاً أنّ من أعظم الكمالات الإنسانية هي أن يصل الإنسان إلى الدرجة التي يصبح فيها الحقّ تعالى حاضراً دائماً في حياته فلا يغفل عنه طرفة عين أبداً، وهذا هو مقام اللقاء والشهادة، وأصحابه هم الشهداء، الذين وصفهم تعالى في كتابه الكريم بأنهم أحياء عنده يرزقون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]. وذكرنا أنّ ما يحول بين الإنسان وبلوغه هذه المرتبة الإنسانية الرّفيعة موانع ثلاثة هي: الغفلة عن الحقّ، والعقائد الباطلة التي يحملها الإنسان، والرضا بالحياة الدنيا. في الدرس السابق تحدثنا عن الغفلة، وسوف نتناول في هذا الدرس المانع الثاني وهو العقائد الباطلة.

صلاح الإنسان بصلاح معتقداته

العقيدة هي مجموعة من المسائل التي تشكّل الرؤية الكونية للإنسان حول الكون والوجود والإنسان، والتي تعتبر أهمّ ما في حياة الإنسان على الإطلاق، ولا يوجد أهمّ منها، لأنّها ترتبط بمصيره وبسعادته وشقائه، في دار الدنيا ودار القرار. فعلى سبيل المثال تتناول العقيدة مسألة وجود الحياة بعد الموت، وهذه القضيّة على درجة عالية من الخطورة والأهمّية. فإذا لم يلتفت الإنسان أو يعتقد بوجود الحياة بعد الموت، والحساب

(1) سورة آل عمران، الآية: 169.

الأخرويّ، والكمالات والنّعم التي وعد بها في الدار الآخرة، فإنّه سيتصرّف بطريقة يهمل معها العقاب الإلهي، ولا يعطي أيّ أهمّية للحياة الآخرة، وللقائه تعالى فيها. وهذا الأمر لا يؤدّي إلى الجهل والفراغ فقط بل يسمح أيضاً بدخول الآراء الفاسدة والمعتقدات الباطلة. ذلك أنّ النّفس لا تقبل الجهل أبداً ولا تستأنس به، وهي ترفض أن لا يكون لديها العلم بما تواجهه من مسائل وقضايا. فإذا لم تحصل على الأجوبة الصّحيحة عن تساؤلاتها، أسرعت إلى تعبئة الفراغ بما لديها من أهواء، وبما يزوّدها به أصحاب الشّبهات. ولا شكّ أنّ الأفكار الخاطئة ستكون سبباً للحرمان ولارتكاب الأخطاء واجتراح المعاصي.

ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهل أصل كلّ شرّ»[1]، ما يكون سبباً في الابتعاد عن الله والحرمان من فيضه العميم. فكلّ إنسان في هذه الحياة إنّما يسير بحسب ما يعتقده. لذا كان صلاح الإنسان منوطاً في المرحلة الأولى بإصلاح معتقداته ونظرته إلى الخالق والعالم ورؤيته التي يحملها فيما يتعلّق بالحياة والمصير والعلاقة مع الله سبحانه وتعالى. لأنّ للعقيدة التي يحملها الإنسان الدور الأساسي في تحديد مصيره ومدى قربه وبعده عن الحق تعالى وعن حقائق الإسلام ومعانيه الراقية. وإن من أكبر الموانع التي تقف سدّاً بين الإنسان وسلوك طريق الله المستقيم، تلك الأفكار الخاطئة التي قد يتبنّاها ويبني عليها حياته وسلوكه.

العقيدة وتأثيرها على كمال الإنسان

للعقيدة التي يحملها الإنسان إذاً تأثير مباشر على مصيره، وعلى مقامه عند الله، وعلى درجة قربه منه عزّ وجلّ. لأن للعقيدة تأثيراً أكيداً على سلوك الإنسان وحركته في الخارج، وعلى أسلوب تعامله مع الآخرين، وتفاعله مع الأحداث التي تجري من حوله. فهي تحثّ الإنسان وتدفعه للتصرّف والعمل بناء على الخلفيّة الاعتقاديّة التي يحملها ويعتقد بها.

(1) الآمدي، غرر الحكم، ص73.

فمـن كان يؤمـن بالآخرة وأنّـه لا محالة راحل عن هذا العالـم، فسوف يسعى لها سعيها، وستكون الدار الآخرة نصب عينيه دوماً؛ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1].

ومـن كان يؤمـن بأنّ الله تعالى هـو المؤثّر الحقيقيّ في هـذا العالم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾[2]، وأنـه الـرّازق الحقيقـي، والمالك لـكلّ شيء، والمدبّر لـكلّ شـيء؛ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3]، فسـوف يسلم وجهه إليه، ويتـوكّل عليه في كلّ أموره، ولن يخشى شيئاً على الإطلاق، لأنّه على يقين أنّه بين يدي ربّ رحيم لا يريد إلّا الخير والصلاح لعباده.

ومـن كان يؤمن بأنّ الله تعالـى معه دائماً أينما يمّـم وجهه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4]، وأنه تعالى أقرب إليه من مصدر حياته ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[5]، وأنّـه شاهد على كلّ أعماله وحركاته وسكناته ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾[6]، فسوف يستحيي من ربّه، ولن يتجرّأ عليه، ولن يعصيه أو يخالف له أمراً أبداً.

ومن يعتقد بأنّه لا محالة راجع إلى ربّه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ﴾[7]، وأنّه كادح إليـه كدحـاً ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[8]، فإنّـه لن يغفل عنه أبداً، ولن يهدأ له بال أو يسكن له قرار قبل أن يعدّ العدّة اللّازمة لهذا السفر الطويل، ويحضّر كل مستلزمات اللقاء بالمحبوب.

(1) سورة الإسراء، الآية: 19.
(2) سورة الأنفال، الآية: 17.
(3) سورة يونس، الآية: 31.
(4) سورة الحديد، الآية: 4.
(5) سورة ق، الآية: 16.
(6) سورة آل عمران، الآية: 98.
(7) سورة يونس، الآية: 4.
(8) سورة الانشقاق، الآية: 6.

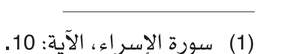
آثار الاعتقادات الباطلة

إذاً، للعقيدة التي يحملها الإنسان تأثير على أفعاله وسلوكه في هذه الدنيا، وبالتالي على مصيره في الآخرة. ولو حاولنا الآن أن نعكس الصورة قليلاً، وأتينا بشخص لا يحمل هذه المعتقدات والمبادئ الإسلامية الأصيلة التي ذكرنا بعضاً منها آنفاً فماذا ستكون النتيجة؟

فالذي لا يؤمن بالله تعالى ولا يعتقد بأنبيائه ورسله، ولا بالدار الآخرة، والذي لا يرى نفسه في سفر، وأنه راحل عن هذا العالم إلى عالم الجزاء والحساب، والذي لا يعتقد بالمقامات المعنويّة للنفس الإنسانية، وبضرورة تهذيبها حتى تصبح مهيّأة للقاء الله تعالى، والرجوع إليه راضية مرضيّة، فكيف ستكون عاقبته؟!

الله عزّ وجلّ في ذكره الحكيم يكشف لنا بعض ما سيؤول إليه حال أصحاب هذه الاعتقادات الخاطئة، ويحذّر من عواقبها الوخيمة والتي منها:

1. **العذاب الأليم:** ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].
2. **الخسران والندامة:** ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2].
3. **بطلان أعمالهم:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].
4. **النسيان:** ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[4].



(1) سورة الإسراء، الآية: 10.
(2) سورة الأنعام، الآية: 31.
(3) سورة الأعراف، الآية: 147.
(4) سورة الجاثية، الآية: 34.

5. **العقاب الإلهيّ في الدنيا:** ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

6. **الحرمان من المغفرة:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[2].

وما ينبغي التنبّه إليه جيداً أيضاً، أنّ العقائد الباطلة مع ما لها من عواقب وخيمة على الإنسان المعتقد بها إلّا أنّ آثارها السلبيّة ليست محصورة فيه، بل إنّ ضررها وتأثيرها السلبي قد يصل إلى الآخرين أيضاً، وذلك عندما تدفع هذه المعتقدات الخاطئة بصاحبها من حيث يقصد أو لا يقصد إلى الصدّ عن سبيل الحق وعن صراطه المستقيم. فعندما يعتقد شخص ما أن تهذيب النفس وتزكيتها من الأهواء والأمراض الباطنية ليس أمراً ضروريّاً، أو ينكر والعياذ بالله مسألة لقاء الله والرجوع إليه، أو يعتقد بأنّ الإنسان الموالي لأهل البيت عليهم السلام لن يدخل النار ولن يعذّب مهما ارتكب من موبقات وآثام، وغيرها من الاعتقادات الخاطئة... فمثل هذه الاعتقادات إذا كان صاحبها ذا شأن أو تأثير في محيطه فمن الممكن أن يكون سبباً في دفع الآخرين إلى الاعتقاد بمثل هذه المبادئ وبالتالي الانحراف عن جادّة الصواب، والصدّ عن سبيل الله، ومنع الخير عن عباده ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾[3]، وهو يحسب نفسه من المهتدين ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[4]، والحق أنه من الضالّين ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾[5]. والله عزّ وجلّ قد نهى عن الصدّ عن سبيله ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ

(1) سورة القصص، الآيتان: 39 – 40.
(2) سورة محمد، الآية: 34.
(3) سورة القلم، الآية: 12.
(4) سورة الزخرف، الآية: 37.
(5) سورة إبراهيم، الآية: 3.

﴿ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾[1]، بل ولعن الذين يصدّون عن صراطه ووصفهم بأنهم ظالمون ﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾[2].

علاج العقائد الباطلة

بعد معرفة دور العقائد الفاسدة وتأثيرها على سلوك الإنسان في الحياة الدنيا وبالتالي على مصيره في الحياة الآخرة، على اللبيب أن يفكر مليّاً في كيفيّة التخلّص من هذه الشبهات العقائدية التي تحول دون ارتباطه بالله عزّ وجلّ، وتحرمه من لقائه، ولا يوجد طريق للتخلّص من هذا المانع والعائق الخطير سوى وسيلة واحدة؛ هي التعرف إلى مبادئ وعقائد هذا الدين الحنيف وتعلّمها. فالعلم والمعرفة بأسس هذا الدين ومعتقداته الأصيلة هو الذي يهدي الإنسان إلى صراط الله المستقيم، وينجيه ويعصمه من الوقوع في المهالك والمزلّات. ومن الطبيعي أن العلم وحده لا يكفي، بل لا بدّ أن يصحبه العمل بهذه المبادئ والمعتقدات الإسلامية حتى لا يغدو مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3]، ولأنّ العلم لا يثبت ولا يمكن أن يستقرّ في النفس إلّا بالعمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلّا ارتحل عنه»[4]. كما أنّ هناك بعض الآداب والأمور التي ينبغي للإنسان المتعلّم التنبّه إليها ومراعاتها وهي:

1. أن يعلم أنّ ما يعلمه فيما لا يعلمه قليل، لذا عليه أن لا يجيز لنفسه إنكار كل ما لا يرقى إلى مستوى فهمه وعقله، بل عليه أن يذره في بقعة الإمكان فعسى أن يأتي عليه يوم يفتح الله عليه باب العلم به.

(1) سورة الأعراف، الآية: 86.
(2) سورة الأعراف، الآيتان: 44 - 45.
(3) سورة الصف، الآية: 3.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص33.

2. الاعتراف المسبق باحتمال وجود الأفكار الخاطئة والآراء الفاسدة لديه، لأنّ الثّقة المطلقة بالنفس تكون عائقاً في بعض الأحيان دون الاطّلاع على حقائق الأمور، كما في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**اتّهموا عقولكم، فإنّه من الثّقة بها يكون الخطأ**»[1].

3. الصدق والإخلاص في طلب المعارف الإلهية حيث يقصد بعمله وجه اللّه تعالى، وامتثال أمره، وإصلاح نفسه، وإرشاد عباده إلى معالم دينه، ولا يقصد بذلك عرض الحياة الدنيا من تحصيل مال أو جاه أو شهرة، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**من تعلّم لله عزّ وجلّ، وعمل لله، وعلّم لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً**»[2].

4. إنّ تبادل وجهات النّظر بعيداً عن التعصّب من الشروط المهمّة أيضاً لتصحيح العقيدة، فمن وصيّة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**اضربوا بعض الرأي ببعض يتولّد منه الصواب**»[3]، وعنه عليه السلام أيضاً: «**من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ**»[4]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**من تعلّم العلم ليماري به السفهاء، أو يباهي به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه ليرئّسوه ويعظّموه، فليتبوّأ مقعده من النار**»[5].

5. عدم التسرّع في إعطاء الرأي وإبداء وجهة النظر، والانتظار حتى تتبلور وتتّضح الفكرة فتكون قابلة للاعتماد عليها. فعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**الرأي مع الأناة**»[6]، وممّا أوصى به عليه السلام ولده الإمام الحسن

(1) الآمدي، غرر الحكم، ص56.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص35.
(3) م. ن، ج 1، ص 1024.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص29.
(5) م. ن، ج2، ص31.
(6) م. ن،ج75، ص 81.

المجتبى عليه السلام: «**أنهاك عن التسرّع في القول والفعل**»[1].

6. الدعـاء وطلـب العناية من الله تعالـى من خلال التوسّـل بأهل البيت عليهم السلام. وهذا له تأثير كبير جداً في التوصّل إلى المعتقدات العلميّة والمعارف الحقّة.

وعليه نصل إلى هذه النتيجة ومفادها أنّ سرّ السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة منـوط بعلاقة الإنسان بربّـه وبحضوره تعالى في حياته، فكلما كان حضور الله تعالى أقـوى كان القـرب منه أشدّ وأكثر. وشرط هذا الحضـور الاعتقاد السليم والصحيح بأنه تعالى معنا دائماً، وشاهد علينا، وقريب منّا إلى الحدّ الذي يحول فيه تعالى بيننا وبين قلوبنا ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[2]، وأنّنا إليـه راجعون. مثل هذا الاعتقـاد والعمل بمقتضاه، مقدمة ضروريّـة وأساسيّة تؤهّل الإنسـان للارتباط الصحيح والقويّ بالله عزّ اسمـه، وتساعده على دوام استحضار وجوده وعدم الغفلة عنه أبداً.



(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج27، ص167.
(2) سورة الأنفال، الآية: 24.



المفاهيم الرئيسة

1. العقيدة هي مجموعة من المسائل التي تشكّل الرؤية الكونية للإنسان والتي ترتبط بمصيره وبسعادته وشقائه، في دار الدنيا ودار القرار.
2. العقيدة منشأ سلوك الإنسان وحركته في الخارج. فهو يتصرّف ويعمل بناء للخلفيّة الاعتقاديّة التي يحملها ويعتقد بها.
3. للعقيدة تأثير مباشر على مصير الإنسان، لأن للعقيدة تأثيراً أكيداً على سلوك الإنسان وحركته في الخارج.
4. إذا كانت اعتقادات الإنسان خاطئة وباطلة فمن الطبيعي أن تكون أعماله باطلة أيضاً وغير مقبولة وبالتالي سوف ينعكس الأمر على مصيره في الآخرة المرهونة بالأصل بأعماله.
5. العقائد الباطلة مع ما لها من عواقب وخيمة على الإنسان المعتقد بها إلّا أن آثارها السلبيّة ليست محصورة فيه، بل إنّ ضررها وتأثيرها السلبي قد يصل إلى الآخرين أيضاً.
6. تصحيح الاعتقادات الباطلة يكون بتعلّم العقائد الصحيحة مع مراعاة بعض الآداب الأساسيّة.
7. العلم والمعرفة بأسس هذا الدين ومعتقداته الأصيلة هو الذي يهدي الإنسان إلى صراط اللّه المستقيم، وينجيه ويعصمه من الوقوع في المهالك والمزلّات.
8. إنّ العلم وحده لا يكفي، بل لا بدّ أن يصحبه العمل بهذه المبادئ والمعتقدات الإسلامية.
9. إنّ سرّ السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة منوط بعلاقة الإنسان بربّه وبحضوره تعالى في حياته، فكلما كان حضور اللّه تعالى أقوى كان القرب منه أشدّ وأكثر. وشرط هذا الحضور الاعتقاد السليم والصحيح بأنّه تعالى معنا دائماً.



أسئلة الدرس

1. ما هي العقيدة؟ ولماذا رُبط صلاح الإنسان بصلاح معتقده؟
2. تحدّث عن بعض الآثار الطيّبة للعقيدة الصالحة على حياة الإنسان.
3. تحدّث عن بعض الآثار السلبيّة للمعتقدات الباطلة على مصير الإنسان.
4. ما هو العلاج الناجع للتخلّص من المعتقدات الباطلة والفاسدة؟



حجاب الآراء الفاسدة[1]

... ومـن الحجب، حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة، وهذا قد يكـون من سوء استعداد الشخص والأغلب أنّه يحصل من التبعيّة والتقليد. وهذا من الحجب التي حجبتنا بالأخصّ عن معارف القرآن.

مثـلاً إذا رسـخ في قلوبنا اعتقاد بمجـرّد الاستماع مـن الأب أو الأم أو من بعض جهلـة أهل المنبر تكون هذه العقيدة حاجبـة بيننا وبين الآيات الشريفة الإلهية. فإن وردت آلاف من الآيات والروايات تخالف تلك العقيدة، فإمّا أن نصرفها عن ظاهرها أو أن لا ننظـر فيها نظر الفهم. والأمثال على ذلك فيما يرجع إلى العقائد والمعارف كثيـرة، ولكنّـي أكفّ نفسي عـن عدّها لأنني أعلم بأنّ هذا الحجـاب لا يخُترق بكلام مثلي، ولكن أشير إلى واحد منها حيث إنّه سهل المأخذ في الجملة.

قد وردت الآيات الكثيرة الراجعة إلى لقاء اللّه ومعرفة اللّه، ووردت روايات كثيرة في هذا الموضوع مع كثير من الإشارات والكنايات والصّراحات في الأدعية والمناجاة للأئمـة عليهم السلام. فبمجـرّد ما نشأت عقيدة في هذا الميدان مـن العوامّ وانتشرت بأنّ طريق معرفة اللّه مسدود بالكلّية، فيقيسون باب معرفة اللّه ومشاهدة جماله على باب التفكّر في الذات على الوجه الممنوع بل الممتنع، فإمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيات والروايـات، وكذلك الإشارات والكنايات والصراحات فـي أدعية الأئمّة ومناجاتهم، وإمّـا ألّا يدخلـوا في هذا الميـدان أصلاً ولا يعرّفوا أنفسهـم بالمعارف التي هي قرّة العين للأنبياء والأولياء.

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية، في بيان رفع الموانع والحجب بين المستفيد القرآن.

فممّا يوجب الأسف الشديد لأهل الله أنّ باباً من المعرفة الذي يمكن أن يقال إنّه غاية بعثة الأنبياء، ومنتهى مطلوب الأولياء قد سدّوه على الناس بحيث يعدّ التفوّه به محض الكفر وصرف الزندقة. إنّ هؤلاء يرون معارف الأنبياء والأولياء فيما يختصّ بذات الحقّ تعالى وأسمائه وصفاته مساوية لمعارف العوامّ والنساء فيه، بل يظهر من هؤلاء أحياناً ما هو أعظم من ذلك فيقول أحدهم: إنّ لفلان عقائد عامّية حسنة! فيا ليت لنا مثلما له من العقيدة العامّية.

وهذا الكلام منه صحيح، لأنّ هذا المسكين الذي يتفوّه بهذا الكلام قد أخرج من يده العقائد العامّية، ويرى معارف الخواصّ، وأهل الله باطلة، فهذا التمنّي منه مطابق لتمنّي الكفّار. وقد نقل عنهم في الكريمة الإلهية: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [1]. ونحن إن أردنا أن نذكر الآيات والأخبار في لقاء الله بالتفصيل لفضح هذه العقيدة الفاسدة الناشئة عن الجهل والغرور الشيطاني، لاستلزم ذلك كتاباً على حدة؛ فضلاً من أن نذكر المعارف التي وقعت وراء ستر النسيان، بسبب هذا الحجاب الغليظ، حتى يُعلم أنّ أحد مراتب مهجورية القرآن، وهجران القرآن، ولعلّ الأسف عليها أشدّ هو هذه؛ كما يقول تعالى في الكريمة الشريفة ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [2].

الإمام الخميني قدس سره



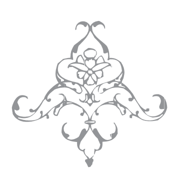
(1) سورة النبأ، الآية: 40.
(2) سورة الفرقان، الآية: 30.



الدرس الثالث عشر

موانع العبودية لله (3)

(الرضا بالحياة الدنيا)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يبيّن منشأ حبّ الدنيا ومخاطر تعلّق القلب بها.

2- يذكر الفرق بين الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة.

3- يشرح كيفيّة علاج آفة حبّ الدنيا.

مقدمة

إذا كان لقــاء اللّه تعالى، والفوز بمقام الشهادة أمنية كلّ إنسان صادق يبحث عن السعــادة التي لا ينغّصها ألم، والكمال الذي لا يشوبه نقص، والراحة التي لا يعتريها نصــب، فإنّ بلوغ هذا الهــدف السّامي شرطه الأساسيّ صــدق النيّة في طلب الحقّ، وقطــع كلّ العوائــق التي تمنع مــن التوجّه والانقطــاع إليه. وفي الدرسيــن السابقين ذكرنا مانعين من هذه الموانع هما الغفلة والعقائد الفاسدة، وفي هذا الدرس سوف نذكر المانع الثالث وهو الرضا بالحياة الدنيا.

آفة الاكتفاء بالدنيا وحبّها

يقــول اللّه تعالــى فــي كتابــه الكريــم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1].

تبيّن هذه الآية بشكل واضح، أنّ الاكتفاء والرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها يمكن أن يكون سبباً لدخول النّار، لأنّ الرضا بالحياة الدنيا يكشف عن غفلة الإنسان عــن الحياة الحقيقيّــة في الآخرة. فالآية لم تــذمّ الذين يعيشون فــي الدنيا، يأكلون ويشربــون، ويتمتّعون، بل الذين تعلّقت قلوبهم بالدنيــا واطمأنّوا بها، واختاروها بدلاً

(1) سورة يونس، الآيتان: 7 – 8.

عـن الآخرة وتشبّثوا بها، فلا يرغبون في شـيءٍ آخر ولا يشعرون بنقصٍ إلى جانبها. ولقـد استفاضت الآيات والروايات في الحديـث عن الدنيا والتحذير من مغبّة التعلّق بهـا، وحبّها والاكتفاء بها، لأنّه يحرف الإنسـان عن جادّة الحق وصراطه المستقيم، منهـا قوله تعالـى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[1]، وقوله عزّ اسمـه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[2]، وقولـه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[3]، وقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4].

وفـي الحديـث عن أمير المؤمنيـن عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فـي خبر المعراج، قال: «**قال الله تبارك وتعالى: يا أحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض، ويصـوم صـيام أهـل السـماء والأرض، ويطوي عن الطعـام مثل الملائكـة، ولبس لباس العابديـن، ثـمّ أرى فـي قلبه مـن حبّ الدنيـا ذرّة أو سـمعتها أو رئاسـتها أو صيتها أو زينتها، لا يجاورني في داري، ولأَنزعنَّ منْ قلبه محبتي، ولأُظلمنّ قلبه حتّى ينساني، ولا أذيقه حلاوة محبتي**»[5].

وعـن الصّادق عليه السلام في تفسير قوله تعالـى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: «**هو القلب الذي سلِم من حبّ الدنيا**»[6].

وعـن الإمام علـيّ عليه السلام قال: «**إن كنتم تحبّـون الله فأخرجوا مـن قلوبكم حبّ**

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: 2 – 3.
(2) سورة البقرة، الآية: 86.
(3) سورة النازعات، الآيات: 37 – 39.
(4) سورة الأعلى، الآيتان: 16 – 17.
(5) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج12، ص36.
(6) م. ن، ج12، ص40.

الدنيا»[1]. وعنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «**إنّك لن تلقى الله سبحانه بعملٍ أضرُ عليك من حب الدنيا**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**في مناجاة موسى** عليه السلام : **يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبة، عاقبتُ فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان فيها لي. يا موسى إنّ عبادي الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم، وما من أحد عظّمها فقرّت عيناه فيها، ولم يحقّرها أحد إلا انتفع بها**»[3].

منشأ التعلّق بالدنيا

أمّا منشأ حب الدنيا والتعلّق بها والاستغراق في ملذّاتها وشهواتها فيعود إلى أمرين أساسيّين:

الأوّل: هو رؤية الإنسان أنّ كماله وسعادته وراحته إنّما هي محصورة في هذه الحياة الدنيا، على حساب الحياة الآخرة، ولقاء الله تعالى والارتباط به.

الثاني: الجهل بحقيقة الحياة الدنيا، ودورها الحقيقيّ في حياة الإنسان.

فعندما يرى الإنسان أنّ سعادته وكماله يكمن في نعم الدنيا وملذّاتها وشهواتها، دون أن يخطر في بال هذا المسكين أنّ الدنيا فانية وزائلة في الأصل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[4] وأنّها لم تدم لغيره حتى تبقى له. فكيف يجد الإنسان سعادته في أمر فانٍ؟! وكيف يعلّق آماله على شيء زائل؟! فكلّ من يركن إلى الحياة الدنيا وينجذب إليها، ولا يتورّع عن الدخول في حرامها، ويسرف في حلالها، فلن يلبث أن يقع في المعصية التي إن أصرّ عليها أهلكته لا محالة. لذا كان بغض الدنيا من أفضل الأعمال، كما ورد

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 40.
(2) م. ن، ج12، ص41.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 317.
(4) سورة الرحمن، الآية: 26.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**ما من عمل أفضل عند الله بعد معرفة الله، ومعرفة رسوله، وأهل بيته من بغض الدنيا**»[1].

إنّ الحياة الحقيقيّة والأبديّة للإنسان والخلود متيسّر في عالم الآخرة فقط، أمّا الحياة الدنيا فمتاعها قليل، وهي فانية وزائلة ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[2]، ولكنّ هذا لا يعني أن لا قيمة لهذه الحياة الدنيا. فإذا عرف الإنسان حقيقة الحياة الدنيا ودورها، وأدرك أنها مقدّمة للحياة الحقيقيّة الخالدة في عالم الآخرة، والتفت إلى أنّ اللحظات القصيرة التي جعلها الله تعالى له في الدنيا ستكون مفتاحاً لكنوزه الأخرويّة الأبديّة، وفهم ماهيّة العلاقة بين الدنيا والآخرة، وتأثير حياته الدنيويّة على حياته الأخرويّة الخالدة، وعرف أنه لا بدّ من الزراعة هنا حتى يتمّ الحصاد هناك، فممّا قاله عيسى عليه السلام: «**بحق أقول لكم إنّ الدنيا خلقت مزرعة يزرع فيها العباد الحلو والمرّ والشر**»[3]، وأنّ أولي النعمة هناك هم الذين أنجزوا أعمالاً هنا، وسعوا وجدّوا من أجل تلك الحياة وتحصيل السعادة فيها. عندها سوف يدرك أنّ للدنيا دوراً وتأثيراً إيجابياً جدّاً في ارتقائه وتكامله، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «**إنّما الدنيا دار ممرّ والآخرة دار مستقر، فخذوا من ممرّكم لمستقرّكم**»[4]. والإنسان الذي يتمتّع بهذه المعرفة، فإنّه لن يعادي الحياة الدنيا، لأنّه سيدرك هذه الحقيقة وهي أنّه كلّما استمرّ وجوده في الدنيا أكثر كان قادراً على التكامل أكثر، وإنجاز المزيد من الأعمال الصالحة وبالتالي بلوغ مقامات أخرويّة أسمى.



(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج12، ص36.

(2) سورة النساء، الآية: 77.

(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج14، ص 312.

(4) الآمدي، غرر الحكم، ص 149.

فالروايـات والأدعيــة المرويّة عن الأئمّــة المعصومين عليهم السلام والتــي تتحدّث عن طلبهم طول العمر من الله قائمة على هذه الرؤية والاستنتاج المذكور. لقد كانوا على علم بأنّ الحياة الدنيا يمكن أن تكون وسيلة لنيل السعادة الأخرويّة. والتعابير الواردة فــي الروايات نظير «**الدنيـا مزرعة الآخرة**»[1] تشير إلى هــذه الحقيقة وهي أنّ على الإنسان أن يعمل في الدنيا لكي ينـال السعادة الدائمة في الآخرة. فهذه الحياة طريق لا بــدّ أن نجتازه، ووسيلــة ينبغي أن نستخدمها في مجالها وبصــورة صحيحة، وأداة يجــب الاستفادة منها بدقّة كي ننال سعادتنا، والحياة اللائقة بنا في العالم الخالد. وفــي هذه الحالة فقط يرغب الإنسان أن تطول فترة حياته الدنيويّة كي يوفّق للمزيد مــن الأعمال الصالحة. أمّا تمنّي الموت من قبل أولياء الله كما قال مولى الموحدين علــي بن أبي طالــب عليه السلام: «**والله لابن أبي طالــب آنس بالموت مــن الطفل بثدي أمــه**»[2]، فهو من أجل لقاء محبوبهم بعد الموت حيــث فصلتهم الحياة المادّية عنه، وبالموت يرتفع هذا المانع، وينالون لقاء محبوبهم. وهذا لا يتنافى مع طلبهم البقاء، والــدوام في هذا العالم كما ذكرنا، فهم من جهة يطلبون بقاءهم لكي يستعدّوا بنحوٍ أفضل للّقاء، ويتمنّون الموت من جهة أخرى شوقاً للقاء محبوبهم، فالمقصود الأصلي للإنسان هو النعم الأخرويّة والكرامات الإلهية ورضا الله تعالى.

الدنيا الممدوحة والدنيا المذمومة

في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**حبّ الدنيا رأس كل خطيئة**»[3]. وليس المقصود من حب الدنيا والتعلّق بها، حبّ الطبيعة من الجبال والأنهار وغيرها أو حــبّ النـاســ، بل المــراد بحبّ الدنيا تعلّــق القلب بهذه الأمور بحيــث تشكّل عائقاً أمــام ارتقاء الإنسان، وسفره نحــو الآخرة والحق. وبشكل أدقّ إنّ تعلّق القلب بملذّات

(1) المحقق الإحسائي، عوالي اللآلي، ج1، ص 267.
(2) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج 28، ص 234.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج16، ص 9.

الدنيا وشهواتها وأموالها وزينتها إلى الحدّ الذي يحول دون توجّه عقل الإنسان وقلبه وفكـره وعمله إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى الحدّ الذي يدفعه إلى الوقوع في الحرام هـو الأمر القبيح والمذموم، وهو الذي قالت عنه الروايات الشريفة إنّه رأس كل ذنب وخطيئة، ففي الحديث أنه ممّا وعظ به الله تعالى عيسى عليه السلام: «**يا عيسى.. واعلم أَنّ رأس كلّ خطيئة وذنب هو حبّ الدنيا فلا تحبها، فإني لا أحبها**»[1]. وذلك لأنّ الدنيا والآخرة لا يجتمعان، وحبها وحب الله في القلب لا يلتقيان، كما جاء عن مولى الموحدين عليه السلام أنه قال: «**كما أَنّ الشمس والليل لا يجتمعان، كذلك حبّ الله وحبّ الدنيا لا يجتمعان**»[2].

وإذا أردنا أن نختصر الأمر نقول إنّ الدنيا في الحقيقة دنياءان: دنيا ممدوحة ودنيا مذمومة، كما قال إمامنا السجاد عليه السلام: «**الدنيا دنياءان: دنيا بلاغ**[3]**، ودنيا ملعونة**»[4]. فليس طلب مطلق الدنيا وطيّباتها حراماً ومذموماً ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[5]، وذات يوم جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: «**إنّا لنطلب الدنيا، ونحبّ أن نؤتاها، فقال: تحبُّ أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأَصِلُ بها وأتصدّق، وأحجّ وأعتمر، فقال أبو عبد الله** عليه السلام: **ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة**»[6]. وورد في نهج البلاغة أنّ شخصاً ذمّ الدنيا في محضر الإمام علي عليه السلام فعارضه الإمام عليه السلام بشدّة قائلاً: «**أيّها الذامّ للدنيا، المغترّ بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغترّ بالدنيا ثم تذمّها؟** - إلى أن

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص 131.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج12،ص 42.
(3) بلاغ: أي بقدر ما يبلغ به إلى الآخرة.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 131.
(5) سورة الأعراف، الآية: 32.
(6) م.س،ج5، ص72.

قال -: إنَّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلّى ملائكة الله ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله...»[1].

فالحياة الدنيا بنفسها غير مذمومة، بل إنّ علاقة الإنسان بها وانخداعه واغتراره بها وغفلته عن الآخرة، وانشغاله بالدنيا إلى الحدّ الذي ينسى معه الله تعالى ولقاءه هو المذموم. فالذمّ يتوجّه أوّلاً إلى سلوك الإنسان وعلاقته بالدنيا. بمعنى آخر المذموم من حبّ الدنيا هو الدنيا التي توقع الإنسان في الحرام، وتكون سبباً للبعد عن الحق عزّ وجلّ، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2]. كما وإنّ الإسراف في طلب حلال الدنيا دون حسيب أو رقيب، ودون الرجوع إلى الحدود والضّوابط الشرعيّة والأحكام الإلهية، بحيث يضرّ ذلك بواجباته تجاه ربه، هو بدوره يعدّ من مصاديق الدنيا وحبّها الذي يؤدّي إلى عواقب وخيمة، والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3]، ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[4].

إنّ نقطة الانحراف الأساس والتي تنشأ منها كلّ العيوب هي الإفراط في اهتمام الإنسان بالدنيا، وتعلق قلبه بها وابتغاؤها بصورة مستقلّة. هذه الرؤية والتعلّق ناشئان عن جهل الإنسان وقلّة بصيرته، لأنه لو عرف أنّ الدنيا ليست دار بقاء، بل ماهيّتها الانقضاء وأنّنا في حال تحرّك دائم فيها، ولا نتوقّف حتّى لحظة واحدة لا في النوم ولا في اليقظة ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[5]، لو كانت للإنسان مثل هذه الرؤية لم يتعلّق قلبه بالدنيا أبداً.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار،ج70، ص 100.
(2) سورة الأعراف، الآية: 51.
(3) سورة الأعراف، الآية: 31.
(4) سورة طه، الآية: 81.
(5) سورة النجم، الآية: 42.

إذاً، ممّا ذكرنا نستنتج أنّ المشكلة ليست في الحياة الدنيا، بل في كيفيّة تعاملنا واستفادتنا منها، فالإخلاد إليها والرّضا بها هو المشكلة، وهو الذي يكون ضارّاً وخطيراً ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[1]. لذا يسأل الله تبارك وتعالى الناس ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2]!!!

علاج حبّ الدنيا

أمام هذا الواقع يرى العاقل أنّه لا بدّ من اجتناب حبّ الدنيا والتعلّق بها لأنّها «**المهلكة طلابها، المتلفة حُلاّلها**[3]، **المحشوّة فالآفات، المشحونة بالنكبات**»[4]، كما قال إمامنا زين العابدين عليه السلام، والسبيل إلى ذلك يكون من خلال ثلاثة أمور:

الأوّل: أن يعرف أنّ الدنيا ليست هي الهدف ولا الغاية، وأنّ السعادة فيها زائلة وغير باقية ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5]، والأهمّ من ذلك عليه أن يتعرّف إلى الآثار السلبية المترتّبة على حبّ الدنيا، من العذاب والبعد والطّرد وغيرها... لعلها تردعه وتجعله يفكّر مليّاً قبل أن يقدم على هذه الحماقة.

الثاني: على الإنسان العاقل أن يتذكّر الموت دائماً، ويعتبر منه، ويحدّث نفسه به بالليل والنهار، لأنه أبلغ حقيقة، وأقوى برهان على أنّ الإنسان لم يُخلق لهذه الحياة الدنيا، ولا للبقاء فيها. سأل أحدهم الإمام الباقر عليه السلام: «**حدّثني بما أَنتفع به**

(1) سورة الأعراف، الآية: 176.
(2) سورة التوبة، الآية: 38.
(3) حلاّلها: أي نزّالها.
(4) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية: مناجاة الزاهدين، ص 421.
(5) سورة القصص، الآية: 60.

فقال: يا أَبا عبيدة: أَكثر ذكر الموت، فإنه لم يكثر إنسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا»[1].

الثالث: عليه أن يصحّح نظرته إلى الدنيا، ويدرك أنّ حياته ليست محصورة بهذه الحياة، بل هناك حياة أخرى خالدة وراءها، وأن يكتشف العلاقة الواقعيّة بين الدنيا والآخرة، من خلال المقارنة بينهما ليدرك أنّ علاقة الدنيا بالآخرة هي علاقة الطريق والهدف، أو الوسيلة والغاية، فالدنيا «**دار ممرّ لا دار مقر**»[2] كما قال مولى الموحّدين علي بن أبي طالب عليه السلام.

أمّا لو نظر إليها نظر إعجاب وافتتان بزينتها واتّخذها هدفاً نهائيّاً له، فسوف تكون رؤيته الخاطئة هذه منشأ للكثير من الأخطاء الفكريّة والسلوكيّة في المستقبل، لأنه اتّخذ الوسيلة هدفاً والطريق مقصداً. إنّ حال صاحب هذه الرؤية حال من يوفّر مستلزمات السفر إلى بلد ما لأداء عمل ما ضروريّ، ثمّ أثناء الطريق ينجذب إلى الخُضرة والمشاهد الجميلة حتى ينسى هدفه الأساس من الرحلة.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 131.
(2) نهج البلاغة، ج4، ص 33.



المفاهيم الرئيسة

1. الرّضا بالحياة الدنيا والتعلّق بها يحجب الإنسان عن الحقّ تعالى ولقائه.
2. الحيــاة الدنيــا وسيلــة وأداة لنيل السعــادة الأخرويّــة، ولتحصيــل الكرامات والمقامات السَّنيّة.
3. منشأ حبّ الدنيا والاستغراق في ملذّاتها وشهواتها فيعود إلى أمرين أساسيّين: الأول رؤية الإنسان كماله في هذه الحياة الدنيا، والثاني الجهل بحقيقة ووظيفة الحياة الدنيا.
4. الدنيا دنيا آن دنيا مذمومة ودنيا ممدوحة.
5. ليــس المقصود من حــب الدنيا، حبّ الطبيعة أو حبّ النــاس، بل المراد منها تعلّــق القلب بهذه الأمور بحيث تشكّل عائقاً أمــام ارتقاء الإنسان، وسفره نحو الآخرة والحقّ.
6. الدنيا بنفسها غير مذمومة، بل انشغال الإنسان بها وغفلته عن الآخرة، ولقاء اللّه هــو المذموم. فالذمّ يتوجّــه أوّلاً إلى سلوك الإنســان لا إلى الدنيا بما في دنيا.
7. للتخلّــص من حبّ الدنيــا لا بدّ: من معرفة حقيقة الغايــة التي خلق من أجلها الإنسان، ومعرفة حقيقة الدنيا ودورها، وذكر الموت والاعتبار منه دائماً.

أسئلة الدرس

1. لماذا يعتبر حبّ الدنيا والتعلّق بها من الموانع الأساسيّة التي تصدّ عن لقاء الله تعالى؟
2. قيل إنّ الدنيا دنياءان، دنيا مذمومة ودنيا ممدوحة، ما الفرق بينهما؟
3. ما هو منشأ حبّ الدنيا وتعلّق القلب بها؟
4. ما هو السبيل للتخلّص من حبّ الدنيا وتعلّق القلب بها؟



أهل الآخرة [1]

لا يخفـى على كلّ ذي وجدان أنّ الإنسان، بحسب فطرته الأصيلة وجبلّته الذاتيّة، يعشـق الكمـال التامّ المطلق، ويتوجّـه قلبه شطر الجميل علـى الإطلاق والكامل من جميع الوجوه. وهذا من فطرة اللّه التي فطر الناس عليها. وبهذا الحبّ للكمال، تتوفّر إرادة المُلك والملكوت، وتتحقّق أسباب وصول عشّاق الجمال المطلق إلى معشوقهم.

غير أنّ كلّ امرئ يرى الكمال في شيءٍ ما، حسب حاله ومقامه، فيتوجّه قلبه إليه. فأهـل الآخـرة يرون الكمال في مقامـات الآخرة ودرجاتها، فقلوبهـم متوجّهة إليها. وأهـل اللّه يـرون الكمال في جمال الحـق، والجمال في كمالـه سبحانه يقولون ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾[2] ويقولـون: «**لي مَعَ اللّه حال**» وفيهـم حبّ وصاله وعشق جمالـه. وأهل الدنيا عندمـا رأوا أنّ الكمال في لذائذها، وتبيّن لأعينهم جمالها، اتّجهوا فطرياً نحوها.

ولكـن علـى الرغم من كلّ ذلك، فإنه لمّا كانَ التوجّـه الفطري والعشق الذاتي قد تعلّقـا بالكمال المطلق، كان ما عدا ذلك من التعلّقـات عرضياً، ومن باب الخطأ في التطبيـق. إنّ الإنسان مهما كثـر مُلكه وملكوته، ومهما نال من الكمـالات النفسية أو الكنوز الدنيويّة أو الجاه والسلطان، ازداد اشتياقه شدّة، ونار عشقه التهاباً.

فصاحـب الشّهوة، كلّما ازدادت أمامـه المشتهيات، ازداد تعلّـق قلبه بمشتهيات أخـرى ليست في متنـاول يده، واشتدّت نـار شوقه إليها. وكذلـك النفس التي تطلب الرئاسة، فهي عندما تبسط لواء قدرتها على قطر من الأقطار، تتوجّه بنظرة طامعة

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث السادس، ص 163.
(2) سورة الأنعام، الآية: 79.

إلــى آخر، بل لو أنّها سيطــرت على الكرة الأرضية برمّتهــا، لرغبت في التحليق نحو الكــرات الأخرى للاستيلاء عليها. إلّا أنّ هــذه النفس المسكينة لا تدري بأنّ الفطرة إنّما تتطلّع إلى شيءٍ آخر.

إنّ العشــق الفطــري الجبلّــي يتّجه إلــى المحبوب المطلــق. إنّ جميــع الحركات الجوهريّة والطبيعيّة والإراديّة، وجميع التوجّهات القلبية والميول النفسية تتوجّه نحو جمال الجميل الأعلى على الإِطلاق، ولكنهم لا يعلمون، فينحرفون بهذا الحب والعشق والاشتيــاق - التي هي براق المعــراج وأجنحة الوصول - إلى وجهة هي خلاف وجهتها، فيحرّرونها ويقيّدونها بلا فائدة.

لقد بعدنا عن القصد، وهو أنه لمّا كان الإنسان متوجّهاً قلبيّاً إلى الكمال المطلق، فإنــه مهما جمع من زخرف الحياة، فإنّ قلبه يزداد تعلّقــاً بها. فإذا اعتقد أنّ الدنيا وزخارفها هي الكمال ازداد ولعه بها، واشتدّت حاجته إليها، وتجلّى أمام بصره فقره إليها.

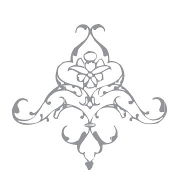
بعكــس أهــل الآخرة الذيــن أشاحوا بوجوههم عــن الدّنيا، فكلّمــا ازداد توجّههم نحــو الآخــرة، قلّ التفاتهم واهتمامهــم بهذه الدنيا، وتلاشت حاجتهــم إليها، وظهر فــي قلوبهم الغِنى، وزهــدوا في الدنيا وزخارفها. كما أنّ أهــل اللّه مستغنون عن كلا العالميــن (الدنيا والآخرة)، متحــرّرون من كلتا النشأتيــن وكلّ حاجتهم نحو الغنيّ المطلق، متجلّياً الغِنَى بالذات في قلوبهم، فهنيئاً لهم.

الإمام الخميني 



الدرس الرابع عشر

موانع العبودية للّٰه (4)
(الذنوب- إتباع الهوى)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يبيّن كيف تكون الذنوب والمعاصي حائلاً دون وصول الإنسان إلى الغاية.

2- يتعـرّف إلى بعض الآثـار السلبية للذنوب وتأثيرهـا على سلوك الإنسان المعنوي.

3- يطّلع على الطريق العملي للتخلّص من الذنوب والمعاصي.

حجاب الذنوب والمعاصي

إذا كان الإنســان باحثــاً عن الله بحكم فطرته، والأنبياء يسعــون على الدوام إلى ربطــه بخالقــه وحثّه على التوجه إليــه، فإنّ ما يحول بين الإنســان وبلوغ هذا الهدف السامــي المنشــود هو عصيانــه لإرادة الله ومخالفتــه لحكمه. فالحــقّ تعالى ولأجل إيصــال الإنسان إلى مقام الخلافة الكبرى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، جعل له برنامــج الشريعة الذي يضبط من خلاله شهواتــه ونزواته ويمكّنه من السيطرة على حاجاته، لتتفتح بعدها استعداداته الكامنة نحو الخير المطلق والجمال اللامتناهي. ففــي الحديث القدسي أنّ الله عزّ وجلّ يقول: «**يـا ابن آدم: أنا غنيّ لا أفتقر، أطعني فيمـا أمرتـك أجعلك غنياً لا تفتقر، يا ابن آدم أنا حيّ لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلـك حيـاً لا تموت يا ابـن آدم: أنا أقول للشـيء كن فيكون أطعنـي فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون**»[2].

هذا البرنامــج الإلهي يهدف بالدرجة الأولى إلى تنظيم علاقة الإنسان بالملذّات والشهــوات لأجل كـفِّ النفس وكبح جماحهــا وانفلاتها، وبالدرجة الثانيــة إلى إبراز مكامن الجمال فيها من خلال العبادة والطاعة، لذا حذّر الباري جلّ وعلا من تعدّي

(1) سورة البقرة، الآية: 30.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص376.

هذه الحدود الإلهية فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾[1]. لأنه عندما يخالف المرء هذا البرنامج، ويطلق العنان لشهواته، ويعصي خالقه، فإنّ الآثار السلبية لهذه المخالفة والعصيان ستبرز في النفس والقلب، وتلوّث باطن الإنسان، ما يمنع من بروز الجمال الحقيقيّ وسطوع أنوار الكمال فيه.

الآثار السلبية للذنوب

من آثار الذنوب السلبية أنها سببٌ في:

1. كدورة القلب وظلمته: وانسداد باب الفيض الإلهي عنه، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**في القلب نكتة بيضاء، فإذا أذنب العبد خرج من تلك النكتة نقطة سوداء، فإذا تاب العبد زال ذلك السواد، وإذا تمادى في الذنوب زاد السواد حتى يغطي القلب كله، وعندها لا يعود صاحبه إلى خير أبداً. ثمّ تلا قوله تعالى:** ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾»[2].
2. دخول النار: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].
3. عدم تقبّل الحقائق الإلهية: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[4].
4. قسوة القلب: فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**ما جفّت الدموع إلّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب**»[5].



(1) سورة البقرة، الآية: 229.
(2) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج2،ص273.
(3) سورة النساء، الآية: 14.
(4) سورة الروم، الآية: 10.
(5) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص 55.

5. الحرمان من الخيرات: فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنَّ الله قضى قضاء حتما ألَّا ينعم على عبد بنعمة فيسلبها إياه حتّى يحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة**»[1].

6. تسلّط الأعداء على الإنسان: فعن إمامنا الصادق عليه السلام: «**يقول الله عزّ وجلّ: إذا عصاني من عرفني، سلّطت عليه من لا يعرفني**»[2].

علاج الذنوب والمعاصي

فالعاصي بمعصيته كأنّه يقول لله الذي بيده كلّ خير: أنا لا أريدك! ومن هنا نفهم لماذا كانت الذنوب حجاباً بين الإنسان المذنب وكماله. ومن اللازم الالتفات إلى أنّ ترك الذنب هو أهون عملٍ يمكن أن يقوم به الإنسان. ولهذا جُعِل بالعموم على رأس المطالب الإلهية. ولعلّ هذا المعنى متضمّنٌ في حديث أمير المؤمنين عليه السلام حينما يقول: «**إنّ ترك الذنب أهون من طلب التوبة**»[3] لأنَّه عندما يصل الأمر بالإنسان من خلال التمادي في الذنوب إلى صيرورة المعصية ملكةً راسخة وعادةً مستحكمة في نفسه، فإنّ الإقلاع عنها يصبح أمراً في غاية الصعوبة. ولكن لا نقول مستحيلاً، لأنّ باب التوبة يبقى مفتوحاً أمام الإنسان، وعندما يقرّر الإنسان العودة إلى الله والرجوع إليه فسوف يجد رباً رحيماً تواباً غفوراً؛ ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[4]، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

(1) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج2،ص273.
(2) م. ن، ج2، ص276.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 07، ص 364.
(4) سورة الأعراف، الآية: 156.
(5) سورة الزمر، الآية: 53.

حجاب الهوى وحبّ النفس

الهـوى هو حبّ الشيء والميل إليـه والتعلّق به واشتهاؤه. وهـوى النفس هو عبارة عـن حبّ النفس وميل الإنسان إلى اتّبـاع الأوامر الصادرة عنها بدل اتّباع أوامر الله والالتزام بأحكامه.

فالأمـر الصـادر عن النفس إن كان خيراً ولم يكن فـي طاعة الله ولأهداف إلهية فهـو مخالـفٌ لإرادة الله وبالتالي باطل، وإن كان شراً فهو صـادرٌ عن النفس الأمّارة بالسـوء التي تأمر الإنسان بالسـوء دائماً وتدفعه إلى معصية الـرب ومخالفة أمره. وقـد تحدث الله تعالى عن هذه الحقيقة وأشار إلى أن المتّبع لهواه في الحقيقة عابدٌ لغير الله ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [1].

الآثار السلبية لاتّباع الهوى

المشكلـة الكبـرى في هذه التبعيّـة للنفس تكمن في أنّها تضـلّ الإنسان عن جادة الحـقّ والصـراط المستقيم، كما قـال عزّ اسمـه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [2]. والأخطـر مـن ذلك أن اتّباع الهـوى يصدّ عن سبيل الحـقّ، ويحـول دون الوصـول إليـه، وهل بعـد سبيل الحـقّ إلّا الضـلال!؟ فعن أمير المؤمنيـن علي عليه السلام قال: «**إنّما أخاف عليكم اثنتين: اتّبـاع الهوى وطول الأمل، أمـا اتّبـاع الهـوى، فإنه يصّـد عن الحـق، وأمّا طول الأمل فينسـي الآخـرة**»[3]. لذا كان أمـر الله وحكمه واضحـاً وصريحاً بضرورة تجنّب هوى النفـس وطاعتها، لأنّها لن تـورث الإنسان إلّا العذاب والضلال ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [4].

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.
(2) سورة الأنعام، الآية: 119.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2،ص 355.
(4) م. ن، ص 26.

علاج اتّباع الهوى

المؤمن الواعي والصادق يكفيه أن يعرف الأضرار والمساوئ الناجمة عن اتّباع الهوى وحبّ النفس، وما وعد الله به الذين يخافونه في الغيب من الجنان، حتى يقلع عنه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [1]. فإذا كان اتّباع الهوى دعوةً لاتّباع أوامر النفس على حساب أوامر الحق وإرادته، فإنّ العلاج يكمن في أمرٍ واحد هو مخالفة هذه الأوامر النابعة من النفس والاحتكام عوضاً عنها إلى أحكام الشريعة في كافّة شؤون حياتنا لأنه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [2]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**خالف نفسك تستقم**»[3]. فمخالفة النفس وإشغالها دائماً بالطاعات والواجبات الشرعيَّة بحيث لا يعود لها أي فرصة لتلبية الأهواء والشهوات يشكّلان السبيل الوحيد للتكامل والرقيّ الإنساني، كما أنّ معاشرة الصالحين وترك صحبة رفاق السوء لها الأثر الأكبر في توجيه الإنسان نحو معالي الأخلاق وعدم التلوّث في مستنقع الرذائل.

(1) سورة النازعات، الآيتان: 40 – 41.

(2) سورة المائدة، الآية: 44.

(3) الآمدي، غرر الحكم، ص237.



المفاهيم الرئيسة

1. الأنبياء يسعون على الدوام إلى ربط الإنسان بخالقه وحثّه على التوجّه إليه، ولكن ما يحول بين الإنسان وبلوغ هذا الهدف السامي المنشود هو عصيانه لإرادة اللّه ومخالفته لحكمه.
2. الشريعة الإلهية تهدف أوّلاً إلى تنظيم علاقة الإنسان بالملذّات والشهوات لأجل كفِّ النفس وكبح جماحها وانفلاتها، وثانياً إلى إبراز مكامن الجمال فيها من خلال العبادة والطاعة.
3. للمعاصي آثار سلبية عديدة منها: قساوة القلب وكدورته، عدم تقبّل الحقائق والعلوم الإلهية، العذاب الإليم في النار، تسلط الأعداء.
4. علاج الذنوب يكمن بالإقلاع عنها من خلال الالتزام التام بشريعة اللّه وأحكامه ونواهيه.
5. الهوى هو حبّ الشيء والميل إليه والتعلق به واشتهاؤه. وهوى النفس هو عبارة عن حبّ النفس وميل الإنسان إلى اتّباع الأوامر الصادرة عنها بدل اتّباع أوامر اللّه والالتزام بأحكامه.
6. المشكلة الكبرى في هذه التبعيّة للنفس تكمن في أنّها تضلّ الإنسان عن جادة الحق والصراط المستقيم، والأخطر من ذلك أنّ اتّباع الهوى يصدّ عن سبيل الحق.
7. التخلّص من حجاب حب النفس يمكن بمخالفتها من خلال الالتزام التام بطاعة اللّه واتّباع شريعته.



أسئلة الدرس

1. كيف تصدّ الذنوب والمعاصي عن سبيل اللّه وتكون مانعاً من التقرّب إليه؟
2. عدّد الآثار السلبية للذنوب والمعاصي وتحدث عن واحدة منها.
3. ما هو حجاب الهوى؟ ولماذا عدّ من أخطر الموانع التي تصدّ عن صراط اللّه المستقيم؟
4. كيف يتخلّص الإنسان من الهوى وحبّ النفس؟



حقيقة التوبة [1]

اعلـم أنّ التوبـة من المنازل المهمّـة الصعبة. وهي عبارة عـن الرجوع من عالم المـادة إلى روحانية النفس، بعد أن حُجبت هذه الروحانية ونـور الفطرة، بغشاوات ظلمانية من جراء الذنوب والمعاصي.

وتفصيل هذا الإجمال بإيجاز هو: أنّ النفس في بدء فطرتها خالية من كلّ أنواع الكمال والجمـال والنور والبهجة، كمـا أنّها تكون خالية أيضاً من أضداد هذه الصفات. المذكورة الأربعـة. فـكأنّ النفس صفحة نقية من كلّ رسم ونقش، لا توجد فيها الكمالات الروحية ولا تتّصـف بالنعوت المضادة لها. ولكنّ اللّه تعالى قـد أودع فيها نور الاستعداد والأهليّة لنيل أي مقام رفيع أو وضيع، وأُنشئت فطرتها على الاستقامة، وعجنت طينتها بالأنوار الذاتية.

وعندمـا تجترح النفس سيئة تحصل في القلب ظلمة وسـواد، وكلما ازدادت المعاصي تضاعفـت الظلمة والسواد، إلى أن يغشى الظلام والسواد القلب كلّه، وينطفئ نور الفطرة ويبلـغ مرتبـة الشقاء الأبدي. فإذا انتبـه الإنسان قبل أن يستوعب الظـلام القلب كلّه، ثم اجتاز منزل اليقظة ودخل على منزل التوبة واستوفى حظوظ هذا المنزل حسب الشرائط، زالت الحـالات الظلمانية والكدورات الطبيعية وعاد إلى الحالـة الفطرية النوريّة الأصيلّة والروحانية الذاتية وكأنّها تنقلب. النفس. إلى صفحة خالية من جميع الكمالات وأضدادها. كما ورد في الحديث الشريف المشهور «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ**»[2].

فتبيـن إنّ حقيقة التوبة هي الرجوع من عالم الطبيعـة وآثارها ومضاعفاتها إلى عالم الروحانيـة والفطرة. كما أن حقيقة الإنابة رجـوع من الفطرة والروحانية إلى اللّه والسفر والهجرة من بيت النفس نحو بيت القصيد. فمنزل التوبة سابق ومقدّم على منزل الإنابة.

الإمام الخميني قدس سره

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث السابع عشر، التوبة، ص 304.

(2) الشيخ الكيلني، الكافي، ج2، ص435.



الدرس الخامس عشر

تهذيب النفس باب الإصلاح



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعرّف إلى حقيقة النفس الأمّارة بالسوء وتأثيرها على الإنسان ومصيره.

2- يبيّن حقيقة المجاهدة ودورها في إصلاح النفس.

3- يبيّن أنّ مجاهدة النفس تقوم على ركنين أساسيّين هما: التخلّي والتحلّي.

أعدى الأعداء

عندما يشمّر الإنسان عن ساعد الهمّة، ويعقد النيّة على اتّباع طريق الحق وسلوك درب الآخـرة ولقـاء المحبوب الأوحـد والكمال المطلـق، وينزل إلـى ساحات العمل والجهـاد، فإنه سيصطـدم بمجموعة من الموانـع والعراقيل التي تقـف حجر عثرة أمـام تكامله وتدرّجه في مراتب القربٍ مـن الحق. في الدروس السابقة ذكرنا بعضً أهـمّ هذه الموانع، ولكن يبقى في البين مانـع وعدوّ هو أخطرها وأشدّها فتكاً وأذىً، ّإنّهـا نفسـه التي بيـن جنبيه! فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قـال: «**أعدى عدوّك نفسـك التي بيـن جنبيـك**»[1]. والمقصـود بالنفس هنا النفس الأمّارة بالسّـوء التي توقع الإنسان فـي المعاصي والأخطاء، وارتكاب المخالفات حتى تتلوّث نفسه بالذنوب المبعدة عن ساحة القدس الإلهي وجنّة لقائه. ويصفها الإمام السجّاد عليه السلام في مناجاة الشاكين فيقول: «**إلهي إليك أشـكو نفسـاً بالسّـوء أمّارة، وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصـيك مولعة، ولسـخطك متعرّضـة، تسلك بي مسـالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك كثيرة العلل، طويلة الأمل**»[2].

(1) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص64.

(2) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.

حقيقة النفس الأمّارة

النفس الإنسانية بحدّ ذاتها جوهرة لطيفة وطاهرة من كلّ دنس وخبث ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]. ولكنّها عندما تعلّقت بعالم المادّة، واستغرقت بعالم الطبيعة أكثر من الحدّ المطلوب، نسيت الحياة الروحيّة الحقيقيّة في الآخرة والعيش المعنويّ، وأخلدت إلى الأرض حتى تلوّثت بالمعاصي والصّفات السيّئة، والأخلاق الرذيلة، من البخل والحسد والطمع والأنانيّة والحرص والشهوة والغضب وغيرها من الصّفات الخبيثة. وما ذلك إلّا لأجل استجلاب الفوائد والمنافع الماديّة، والتوسّع في الحياة الدنيا، وتحصيل اللذّات الحسّيّة فقط. وكانت النتيجة أن ردّه اللّه تعالى إلى أسفل سافلين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[2]، ولو شاء اللّه لرفعه إليه مجدّداً وقرّبه منه، ولكنّه أخلد إلى الأرض فكان مثله كمثل الكلب الذي يلهث من شدّة العطش أو الإعياء فإنّه يستمرّ في اللهاث سواء تركته أو زجرته، وهذا هو حال من أخلد إلى الحياة الدنيا واتّبع هواه، فإنه ضالّ في كلّ حال سواء أرشدته إلى الحق ووعظته أم لم تعظه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[3].

إذاً، فمشكلة النّفس تكمن في تعلّقها بالحياة الدنيا والاستغراق في ملذّاتها وشهواتها، وما ينتج عن هذا التعلّق من الوقوع في المعاصي والذّنوب، بسبب مخالفة الأوامر والأحكام الإلهيّة، واتّباع أوامر النفس وما تهواه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4]. فتتغيّر مسيرة الإنسان وينغمس شيئاً فشيئاً في ظلمة الشهوات والأهواء النفسيّة وتصبح النفس هي الآمر والناهي في مملكة الإنسان لا الحقّ سبحانه وتعالى

(1) سورة التين، الآية: 4.
(2) سورة التين، الآية: 5.
(3) سورة الأعراف، الآية: 176.
(4) سورة ص، الآية: 26.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]، فيغفل الإنسان تماماً عن مسيرته الأصليّة، وعن برنامج سعادته وكماله، وعن عالم النور الواسع، وعن جنّة الرّضوان، بسبب انشغاله بزينة الحياة الدنيا والعرض الأدنى.

مجاهدة النّفس وتزكيتها عمدة الطريق

إذا أراد الإنسان أن يعالج مشكلة النّفس التي تأمره بالسّوء، من سلطة الأهواء النفسيّة والشهوات الحيوانيّة، فلا سبيل له إلى ذلك إلّا بالمجاهدة. والمقصود من المجاهدة مخالفة أوامر هذه النّفس بهدف إخراج الأنا وحبّ النفس والدنيا من القلب حتى تصفو وتصبح مستعدّة لاستقبال النّعم والفيوضات الإلهيّة. لأنّه كلّما تطهّر القلب من الأنا والأهواء كلّما سما وارتقى في مراتب القرب والكمال ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. والإنسان كادح إلى ربّه لا محالة شاء ذلك أم أبى، ولكنّ هذا الكدح وهذه المجاهدة تارةً تكون عن وعي واختيار كما هو الحال عند أهل الآخرة، وأخرى عن قهر وإكراه كما في حالة أهل النار والعذاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[3]. فما لم يقطع الإنسان أغلال التعلّقات الماديّة والأهواء النفسيّة، ولم يتحرّر من قيود عالم الطبيعة، بواسطة المجاهدة والتزكية وتحمّل الكدح والتّعب، فإنه لن يصل إلى منزل اللقاء المنشود. فبعد أحد عشر قسماً يحصر الله تعالى فلاح الإنسان بأمر واحد فقط، وهو تزكية النفس وتهذيبها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[4]. وفي آية أخرى يذكر الحقّ تعالى المجاهدة والتزكية كهدف ومقصد أساسي من بعثة الأنبياء والرّسل إلى الناس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.
(2) سورة المائدة، الآية: 6.
(3) سورة الانشقاق، الآية: 6.
(4) سورة الشمس، الآيات: 7 - 10.

﴿مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1].

وإذا أردنا أن نختصر برنامج المجاهدة فيمكن أن نختصره بأمرين أساسيّين هما:

1. **التخلّي**: وهو تصفية الباطن وتخلية النفس من الأهواء النفسيّة والصفات الرذيلة والأخلاق السيّئة، الناتجة عن حب النفس والدنيا والتعلّق بهما.
2. **التحلّي**: وهو تحلية النفس بالصفات الحميدة والأخلاق الإلهيّة.

التخلّي عن الصفات الذميمة

كلّ إنسان معرّض لأن يتلوّث بالصفات الرذيلة بحدود تعلّقه بالحياة الدنيا وغفلته عن الآخرة. وليس أمام سالك طريق الآخرة واللقاء من حلٍّ سوى إزالة هذا التلوّث، وتصفية باطنه من الصفات الناشئة عن حبّ الدنيا والتعلّق بها، حتى يتمكّن بقلب طاهر وصاف من تحلية نفسه بالصفات الحميدة وتهيئتها لإشعاع الأنوار الإلهية.

والمقصود من التخلية؛ تنزيه الباطن وتطهيره من الصفات الرذيلة، وكلّ ما لا يلائم الحياة الأخرى. ومنشأ هذه الصفات عموماً كما ذكرنا هو حبّ الحياة الدنيا والتعلّق بها. فعندما يشغف الإنسان بالحياة الماديّة ويتعلّق قلبه بها، ويرى أنّ نعم الحياة ولذائذها وزخارفها محدودة، وفي المقابل طلّابها ومنافسوه كثر، فبطبيعة الحال سيميل إلى ردّ منافسيه ودفعهم، والسعي المتواصل لتحصيل أكبر قدر ممكن من المنافع الدنيويّة. من هنا تظهر الصفات الأخلاقية الرذيلة من البغض والحقد والعداء والغضب والحسد، وسوء الظنّ والحرص والطمع والتكبّر والمفاخرة والتعصّب، وقساوة القلب وحبّ الجاه وطول الأمل والغفلة وغيرها من الصفات الذميمة التي تتولّد من فرط التعلّق بالدنيا. لذا على الإنسان الباحث عن طريق الحقّ أن يلتفت إلى هذه الحقيقة، ويدقّق كثيراً في حالاته وصفاته النفسانيّة، ويعمل على إخراج القبيح والسيّئ منها من نفسه:

(1) سورة الجمعة، الآية: 2.

أوّلاً: من خلال محاربة منشأ ظهور هذه الصفات وهو حبّ الدنيا، بواسطة التفكّر والدراسة الموضوعيّة لحقيقة الحياة الدنيا، ودورها، ومخاطر الرضا والاكتفاء بها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1]، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

ثانياً: من ناحية الهدف، فبما أنّ هدف الإنسان ومقصده المنشود هو الوصول إلى الله تعالى ولقاؤه ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3]، لذا ينبغي أن يكون هذا الهدف دائماً نصب عينيه، فلا يغفل ولا يحيد عنه قيد أنملة كي لا يسقط في متاهات الدنيا الفانية وملذّاتها الموهومة التي لا تزيده عن الحقّ تعالى إلا بعداً، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[4].

ثالثاً: إن برنامج محاربة الصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة هو بالعمل بأضدادها. وتوضيحه أنّ لكلّ صفة من الصفات الذميمة صفة ضدّها لا يمكن أن تجتمع معها في مورد واحد. فإذا تحقّقت إحدى الصفات انتفى ما يقابلها من ضدّ مباشرة. فمثلاً كفران النعمة ضدّه الشكر، والجزع ضدّه الصبر، والتكبّر ضدّه التواضع، والغضب ضدّه الحلم، والطمع ضدّه القنوع، والشهوة ضدّها التقوى، والرياء ضدّه الإخلاص، والبخل ضدّه العطاء، والحسد ضدّه الرضا، والغفلة ضدّها التوجّه والانتباه، والجهل ضدّه العلم، والظلم ضدّه

(1) سورة البقرة، الآية: 86.
(2) سورة التوبة، الآية: 38.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 5.
(4) سورة يونس، الآيتان: 7 - 8.

العـدل، والجبن ضدّه الشجاعة والخيانة ضدّها الأمانة... وأفضل علاج لدفع هـذه المفاسد الأخلاقيّة، هو ما ذكره علماء الأخـلاق، وهو أن يأخذ الإنسان كلّ واحـدة مـن الصّفـات القبيحة التي يراهـا في نفسه، وينهض بعزم وجدّ علـى مخالفة نفسه إلى أمد، ويعمل عكس مـا ترجوه وتطلبه منك تلك الصفة الرذيلـة، كما يقـول إمامنا الخمينـي: «**فـإنّ الأسـلوب الوحيـد للتغلّب على النفس الأمّـارة، وقهر الشـيطان، ولاتّباع طريق النجـاة، هو العمل بخلاف رغباتهمـا**»[1]. ومع الوقـت والمداومة على هذه المخالفـة سيزول هذا الخلق السيّئ من النفس، ويحلّ محلّه الخلق الحميد بإذن اللّه تعالى.

رابعاً: التقوى، وهي وقاية النفس من الأمور التي يمكن أن تضرّها وتسبّب الأذى لها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]. فالمتّقـي هو الذي يكون فـي حالة إشغال دائمـة للنفس بما يرضي اللّه، من خلال الاتّباع الدائم لأوامره وأحكامـه الشرعيّـة، والابتعاد عـن نواهيه. وبذلك يبـدأ الإنسان شيئـاً فشيئاً بالتخلّص من سلطة النفس الأمّارة بالسوء والأهواء التي لا همّ لها سوى ملذّات الدنيا وشهواتها. فإذا داوم الإنسـان على الطاعات، وأداء الواجبات الشرعيّة، فسـوف يخرج من سلطة النفسـ الأمّارة والأهواء، فتتعافـى نفسه بالكامل من الصفات الذميمة والأخلاق القبيحة، وتصبح طاهرة مطهّرة من كلّ رجز وسوء.

خامسـاً: التوسّـل بـاللّه بواسطـة الأدعيـة والمناجـاة، وبأهـل بيـت العصمـة والطهـارة عليهم السلام، لرفع هذه الصفـات الخبيثة عن قلب الإنسان ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[3].

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث الرابع، في بيان معالجة الكبر، ص 130.
(2) سورة البقرة، الآية: 223.
(3) سورة النساء، الآية: 32.

فالخير كلّه بيده وهـو على كلّ شيءٍ قدير ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

التحلّي بالصفات الفاضلة

بعـد أن يفـرغ الإنسـان من تنزيـه الباطـن وتطهيره عـن الصفـات الخبيثة إثر مجاهدتـه والتوفيـق الربّاني، يبـدأ بتحلية النفـس بالصفات الروحانيّـة والأخلاق الإلهيّـة. وعلى ضوء مـا عرف سابقاً، فـإنّ الصفات الرذيلة تنشـأ بمقتضى الحياة الماديّة المحدودة والمظلمة، وكلّما انقطع الإنسان عن التعلّق بالحياة الدنيا ومحبّتها تتهيّأ الأرضيّة المناسبة لحياة الآخرة الروحانيّة والنوارنيّة ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[2]، حتـى يتخلّص الإنسان بالكامل من ظلمة العالم المادي وتقييده، ويدخل في عالم الآخرة الروحاني، وتشرق في قلبه لمعات القرب من الله، متّصفاً بصفاته ومتخلّقاً بأخلاقه.

ففي عالـم الآخرة لا يوجد أثر للأنانيّة والاستكبار والتكبّر، ولا لسوء النيّة وإرادة الإفساد، ولا أثر هناك للكدورة والاختلاف والنفاق. وبمقتضى هذا المناخ الروحاني ينبغي أن تتلاءم صفات كلّ إنسان وحالاته مع تلك الظروف والأجواء الأخرويّة، وينبغي لمـن يسلـك طريق اللقاء ويطلـب الحياة الروحانيّـة الخالـدة، أن يتّصف بالحالات والصفـات المناسبة والملائمة مـع حياة الآخرة. وهذا الأمر ضـروريّ للغاية، فبعد أن يخلـي الإنسان ساحة نفسه ويطهّرها من التعلّقـات الدنيويّة والصفات الذميمة، تصبح أرضيّة النفس صالحة ومُهيّأة لاستقبال نعم الله وفيوضاته وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾[3]، فـكلّ خير ينزل على الإنسـان هو من الله عزّ وجلّ ﴿مَّآ أَصَابَكَ

(1) سورة آل عمران، الآية: 26.
(2) سورة القصص، الآية: 83.
(3) سورة الإسراء، الآية: 20.

مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1]، و﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2]، أمّـا الإنسان، فإنّه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، لأنّه مخلوق ضعيف ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[3]، وفقير ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[4].

إذاً، تكليف الإنسان الأساسيّ هو تطهير النفس والقلب من المفاسد والرذائل، لأنّ الصفات الخبيثة إذا انتفت تحقّق مقابلها مباشرة. فإذا طابت النفس وطهرت، وانجلت ظلمة الرّين عنها، تبدأ الأخلاق الإلهيّة والصفات الربانيّة بالظهور فيها شيئاً فشيئاً، وتعود النفس إلى أحسن تقويم.



(1) سورة النساء، الآية: 79.
(2) سورة النساء، الآية: 78.
(3) سورة الروم، الآية: 54.
(4) سورة القصص، الآية: 24.



المفاهيم الرئيسة

1. أعدى أعداء الإنسان نفسه الأمّارة بالسوء، وهي التي توقع الإنسان في المعاصي والأخطاء، وارتكاب المخالفات حتى تتلوّث بالذنوب المبعدة عن ساحة القدس الإلهي وجنّة لقائه.
2. النفس الأمّارة بالسوء حالة مرضيّة سببها حبّ الإنسان لذاته وشغفه بالحياة الدنيا الفانية.
3. النفس الإنسانية بحدّ ذاتها جوهرة لطيفة وطاهرة من كلّ دنس وخبث، لكنّها عندما تعلّقت بعالم المادّة، وأخلدت إلى الأرض تلوّثت بالمعاصي والأخلاق الرذيلة.
4. إنّ مشكلة النّفس تكمن في تعلّقها بالحياة الدنيا والاستغراق في ملذّاتها وشهواتها، وما ينتج عن هذا التعلّق من الوقوع في المعاصي والذّنوب، بسبب مخالفة الأوامر والأحكام الإلهيّة.
5. إذا أراد الإنسان أن يعالج مشكلة النّفس التي تأمره بالسّوء، ومن سلطة الأهواء النفسيّة والشهوات الحيوانيّة، فلا سبيل له إلى ذلك إلّا بالمجاهدة.
6. المجاهدة تقوم على ركنين أساسيين هما: التخلية والتحلية.
7. التخلّية تعني تصفية الباطن وتخلية النفس من الأهواء النفسيّة والصفات الرذيلة والأخلاق السيّئة، الناتجة عن حبّ النفس والدنيا والتعلق بها.
8. التحلّي يعني تحلية النفس بالصفات الحميدة والأخلاق الإلهيّة.



أسئلة الدرس

1. اشـرح معنى قول رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أعدى عدوّك نفسـك التـي بين جنبيك**» وبيّن العلّة في ذلك.
2. ما هي حقيقة النفس الأمّارة بالسوء؟ وكيف تصبح هذه النفس أمّارة بالسوء؟
3. ما هو طريق معالجة مشكلة النفس التي تأمر الإنسان بالسوء؟
4. ما معنى التخلية؟ وما هو الطريق إليها؟



أسر الشهوة مصدرٌ لكل أسر[1]

اعلـم أنّ الإنسـان إذا أصبح مقهوراً لهيمنـة الشهوة والميـول النفسية، كان رقّه وعبوديتـه وذلّتـه بقـدر مقهوريّته لتلـك السلطات الحاكمـة عليه. ومعنـى العبوديّة لشخص هـو الخضوع التامّ له وإطاعته. والإنسان المطيـع للشهوات المقهور للنفس الأمّـارة يكون عبداً منقاداً لها. وكلّما توحي هذه السلطات بشيء أطاعها الإنسان في منتهى الخضوع، فيغدو عبداً خاضعاً ومطيعاً أمام تلك القوى الحاكمة.

ويبلـغ الأمر إلـى مستوىً يفضّـل طاعتها على طاعـة خالق السمـاوات والأرض، وعبوديّتها على عبوديّة مالك الملوك الحقيقيّ، وفي هذا الحال تزول عن نفسه العزّة والكرامة والحرية ويحلّ محلّها الذلّ والهوان والعبودية، ويخضع لأهل الدنيا، وينحني قلبـه أمامهم وأمـام ذوي الجاه والحشمة، ويتحمّل لأجل بلـوغ شهواته النفسيّة الذلّ والمنّة، ويستسيغ لأجل الترفيه عن البطن والفرج الهوان، ولا يتضايق من اقتراف ما فيه خلاف الشرف والفتوّة والحريّة عندما يكون أسيراً لهوى النفس والشهوة.

وينقلب إلى أداة طيّعة أمام كلّ صالح وطالح، ويقبل امتنان كلّ وضيع عنده لمجرّد احتمـال نيل مـا يبتغيه حتى لـو كان ذلك الشخص أحـطّ وأتفه إنسـان، وكان ذلك الاحتمال موهوماً، حيث يزعمون أنّ الوهم في دائرة الأطماع حجّة.

إنّ عبيـد الدنيا وعبيـد الرغبات الذاتيّـة، والذين رسن عبوديّة الميـول النفسيّة فـي رقابهم، يعبدون كلّ من يعلمـون أنّ لديه الدنيا أو يحتملـون أنه من ذوي الدنيا، ويخضعون له، وإذا تحدّثوا عن التعفّف وكبَر النفس كان حديثهم تدليساً محضاً، وإنّ أعمالهم وأقوالهم تكذّب حديثهم عن عفّة النفس ومناعتها.

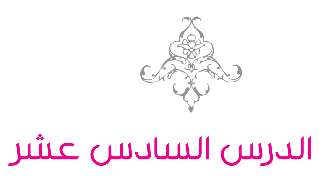
(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث السادس عشر، ص 304.

وهـذا الأسـر والرقّ من الأمـور التي تجعـل الإنسان دائمـاً في المذلّـة والعذاب والنَّصَـب. ويجب علـى الإنسان ذي النبل والكرامة أن يلتجئ إلـى كلّ وسيلة لتطهير نفسه منهـا. ويتمّ التطهير من هذه القذارات، والتحرّر من كلّ خفّة وهوان، بمعالجة النفس، وهي لا تكون إلاّ بواسطة العلم والعمل الناجع.

أمّـا العمـل فيكـون بالرياضة الشرعيّـة وبمخالفة النفـس فترةً يتـمّ فيها الوازع للنفس تجاه حبّها المفرط للدنيا والشهوات والأهواء حتّى تتعوّد النفس على الخيرات والكمالات.

وأمّـا العلم فيتمّ بتلقين النفس وإبـلاغ القلب: بأنّ الناس الآخرين يضاهونه فـي الفقر والضعـف والحاجة والعجز، وأنهم يشبهونه أيضاً فـي الاحتياج إلى الغنيّ المطلـق القادر على جميـع الأمور الجزئيـة والكلّية، وأنهم غير قادريـن على إنجاز حاجة أحد أبداً، وأنهم أتفه من أن تنعطف النفس إليهم، ويخشع القلب أمامهم، وأنّ القادر الذي منحهم العزّة والشرف والمال والوجاهة، قادر على المنح لكلّ أحد. ومن العار حقيقةً على الإنسان أن يتذلّل وينحطّ في سبيل بطنه وشهوته، ويتحمّل الامتنان من مخلوقٍ فقير ذليل لا حول له ولا علم ولا وعي.

الإمام الخميني قدس سره



الدرس السادس عشر

الإخلاص



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يبيّن العلاقة التي تربط الإخلاص بلقاء اللّه تعالى.

2- يتعرّف إلى أهم النتائج والآثار الطيّبة للإخلاص.

3- يشرح كيفيّة تحقّق الإخلاص.

مقدمة

ذكرنا في الدروس السابقة، أنّه لا يوجد مقام أعلى وأرفع لدى الإنسان من لقاء الله، حيث يرتقي الإنسان إلى أن يصبح الحقّ تعالى حاضراً دائماً في حياته، فلا يغيب عنه لحظةً ولا يغفل عنه طرفة عين أبداً، بل أينما ولّى وجهه يرى آية من آيات ربه تذكّره به، وتجذبه إليه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

وقلنا أيضاً إنّ بداية الطريق تكون بإزالة الموانع والعوائق التي تعترض مسير الإنسان، وذكرنا أهمّ هذه الموانع، وقلنا إنّه بالمجاهدة والمثابرة والعزم يستطيع الإنسان التغلّب عليها.

ولكن في البين شرطٌ آخر فائق الأهمّيّة على الإنسان السالك دربَ الآخرة أن يلتفت إليه ويتحقّق به، لأنّه شرط أساسيّ في قبول الأعمال عند الله تعالى. والأعمال إذا لم تكن مقبولة فلن ينال الإنسان رضا الله وبالتالي لن ينعم بجنّته والقربى منه.

(1) سورة البقرة، الآية: 115.

الإخلاص ولقاء الله

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

تبيّن الآية الكريمة بشكل واضح شرطين أساسيّن للقاء الحقّ تعالى، الأول العمل الصالح، وقد تحدّثنا عن مصداقين مهمّين له، وهما الهجرة والجهاد في سبيل الله. والشرط الثاني؛ هو عدم الشرك بالله تعالى أي الإخلاص، لأنّ الشرك يضادّه الإخلاص، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك. عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**إنّ أفضل ما يتوسّل به المتوسّلون الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وكلمة الإخلاص، فإنّها الفطرة**»[2].

فالله عزّ وجلّ أمر الناس بالعبادة ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3]، ولكنّه لم يأمر بأيّ عبادة بل أمر بالعبادة الخالصة له التي لا يشاركه فيها أحدٌ سواه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[5]، وفي آية أخرى يوجّه القرآن خطابه إلى جميع المسلمين ويأمرهم قائلاً: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[6]، وفي مكان آخر يخاطب الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[7].

(1) سورة الكهف، الآية: 110.
(2) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه،ج1، ص205.
(3) سورة الإسراء، الآية: 23.
(4) سورة البينة، الآية: 5.
(5) سورة الزمر، الآية: 2.
(6) سورة الأعراف، الآية: 29.
(7) سورة الزمر، الآية: 11.

حقيقة الإخلاص

الإخلاص لله هو غاية الدين كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإخلاص غاية الدين**»[1]، وهو أفضل العبادات، بل هو روح العبودية لله وجوهرها كما أخبر عن ذلك إمامنا الصادق عليه السلام: «**أفضل العبادة الإخلاص**»[2]. وهو سرّ من أسرار الله استودعه الله تعالى في قلوب من اجتباهم لقربه وولايته كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخبراً عن جبرئيل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ أنّه قال: «**الإخلاص سرٌّ من أسراري، استودعته قلب من أحببت من عبادي**»[3].

وحقيقة الإخلاص تخليص نيّة الإنسان وعمله من شائبة غير الله تعالى، وهو لا يتصوّر إلّا ممّن كان محبّاً لله عزّ وجلّ، ومستغرق الهمّ في الآخرة بحيث لا يبقى لحبّ الدنيا وشهواتها وملذّاتها وسمعتها وجاهها ومناصبها في قلبه قرار، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إنّ لكلّ حقّ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يُحمد على شيء من عمل لله**»[4]. فالمخلص هو الذي لا يطلب من وراء أيّ عملٍ يقوم به سوى الله تعالى، ولا يكون له مقصد أو دافع سوى رضاه، والتقرّب إليه، ونيل الزّلفى لديه.

فالأعمال مرهونة بالنيّات وإذا لم تكن النوايا خالصةً، فهذا يعني أنّه يشوبها الشرك والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[5]، لأنّ الشّرك ظلم عظيم ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[6]، والله تعالى لا يهدي القوم

(1) الآمدي، غرر الحكم، 1340.
(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص249.
(3) م. ن، 214.
(4) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج8، ص304.
(5) سورة النساء، الآية: 48.
(6) سورة لقمان، الآية: 13.

الظالمين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. لذا لا يقبل الله تعالى إلا ما كان له خالصاً، كما في الحديث القدسيّ المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال الله عزّ وجلّ: أنا خير شريك؛ من أشرك معي غيري في عمل عمله، لم أقبله إلّا ما كان لي خالصاً**»[2]. وإذا لم يكن العمل مقبولاً عند الله فلا قيمة له على الإطلاق.

فالله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص حيث قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[3]، فإذا كان لشيءٍ من الأهواء النفسيّة والحظوظ الدنيويّة دخلٌ في الدين فلا يكون خالصاً، وما كانت فيه شائبة الغيريّة والنفسانيّة فهو خارج عن حدود دين الحقّ. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه**»[4]. وعليه نستشفّ من هذه الآيات والروايات أنّ الإخلاص أساس الدين ودعامته التي يرتكز عليها في عمليّة بناء الإنسان على خطّ الإيمان بالله والتوجّه الدائم إليه وتوحيده. وهو رأس الفضائل، والمناط في قبول الأعمال وصحتها، فلا قيمة لعملٍ لا إخلاص معه، كما ورد عن مولى الموحّدين الإمام عليّ عليه السلام: «**من لم يصحب الإخلاص عمله لم يقبل**»[5]. لذا قال عليه السلام في شأن المخلصين: «**طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره**»[6].

(1) سورة الصف، الآية: 7.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 295.
(3) سورة الزمر، الآية: 3.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1،ص90.
(5) الآمدي، غرر الحكم، ص155..
(6) الحر العاملي، وسائل الشيعة،ج1، ص60.

آثار الإخلاص

إنّ للوصول إلى مرتبة الإخلاص والتحقّق بهذا المقام الرفيع آثاراً وخصائص هي ليست إلّا من نصيب الإنسان المخلص، أما الآخرون فمحرومون من هذه النِّعم والكرامات السّنيّة والتي منها:

أولاً: ما نصّت عليه الآية الكريمة من عدم تسلّط الشيطان على الإنسان المخلص، حيث لا يعود للشيطان قدرة على إغوائه. لأن اللّه تعالى حاضر دائماً في حياته، فهو لا يرى غيره، ولا يفكّر إلّا فيه، ونيّته دائماً متوجّهة إليه، فكيف يكون للشيطان إليه سبيلٌ! ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

الثاني: الإنسان المخلص مُعفى من الحساب في يوم الحشر وعند الوقوف في عرصة يوم القيامة. فقد جاء في القرآن الكريم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[2]. تشير الآية الكريمة إلى وجود فئة من الناس تأمن صعقة يوم القيامة وفزعه، وإذا ضممنا إليها الآية الشريفة ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[3]، يتّضح أنّ هذه الطائفة من النّاس هي عباد اللّه المخلصون، لأنّه ليس لهؤلاء أعمال توجب حضورهم في عرصة يوم القيامة، فهم قد قتلوا النفس الأمّارة بالسوء في ساحات جهاد النفس وترويضها بالمراقبة والعبادة والأعمال الصالحة، وخرجوا من أبدانهم ونالوا شرف الشهادة عند جهادهم لأعداء الدين والحقّ، وتمّ لهم حسابهم خلال فترة جهادهم لعدوّهم الباطنيّ والظاهريّ في الحياة الدنيا.

(1) سورة ص، الآيتان: 82 – 83.
(2) سورة الزّمر، الآية: 68.
(3) سورة الصافات، الآيتان: 127 – 128.

الثالث: كلّ ما يُعطى الإنسان في يوم القيامة من ثوابٍ وأجرٍ فهو مقابل ما عمله في الحياة الدنيا إلّا طائفة المخلَصين من الناس، فإنّ الكرامة الإلهيّة لهم تتعدّى حدود الأجر على العمل كما أخبر تعالى بذلك في كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]. فالمعذّبون يُجزون بحسب أعمالهم، أما عباد الله المخلَصون فلن يكون جزاؤهم بحسب أعمالهم، بل الله المنّان سوف يعطيهم بفضله وكرمه. فعباد الله المخلَصون لا ينالون الجزاء مقابل العمل وإنّما كلّ ما تتعلّق به مشيئتهم يُتاح لهم بل وأكثر، فيتّضح أنهم يُعطَون من الكرامات الإلهيّة فوق ما تتعلّق به الإرادة والمشيئة، وأعلى من مستوى التصوّر.

الرابع: أنّ لهؤلاء المقام المنيع والمنصب الرّفيع والمرتبة العظيمة التي يستطيعون فيها أداء الحمد والشّكر والثناء للذّات المقدّسة كما هو لائق بها. قال عزّ من قائل: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]. وهذه غاية كمال المخلوق ومنتهى الدرجة الممكنة. فهذه الآية وصفت المخلصين بأنهم الوحيدون الذين يصحّ منهم وصف الذات الإلهيّة المقدّسة، ما يدلّ على عمق معرفتهم بالله سبحانه وتعالى، فلم يكن في وصفهم لله تعالى أيّ إشكال بخلاف سائر الناس.

الخامس: من يخلص لله يرزقه الله العلم والحكمة كما في الحديث عن رسول الله  أنه قال: «**ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجلّ أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[3]. فالمداومة على الإخلاص تورث الإنسان العلم الإلهي الّذي ليس فوقه أيّ علم.

---

(1) سورة الصافات، الآيات: 39 - 41.

(2) سورة الصافات، الآيتان: 159 - 160.

(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص 242.

السادس: مـن يخلص لله تعالى فـي النيّة والعمـل يرزقه الله تعالـى البصيرة فـي دينه، فلا تلتبس عليه الأمور، ولا يقع في مضـلّات الفتن، ويصبح عارفاً بطريقـه جيّداً وموقناً بما يفعله. فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**عند تحقق الإخلاص تستنير البصائر**»[1].

كيف يتحقّق الإخلاص

يتحقّـق الإخلاص مـن خـلال إزالـة المانع الـذي يحـول دون تحقّقـه. ويمكن أن نختصـر هـذا المانـع بأمـر أساسـيّ وجوهـريّ وهـو هـوى النفـس. فعـن أمير المؤمنيـن عليه السلام أنّه قال: «**كيف يسـتطيع الإخلاص من يغلبـه الهوى**»[2]. الهوى هو حبّ النفس واتّباع الأوامر الصادرة عنها واتّباعها، ويُعدّ شركاً لأنّ المُطاع فيه هو النّفـس لا الحقّ عزّ وجلّ. وهو يضلّ عن سبيـل الله، لأن سبيله محصور بأمرين هما التوحيد والطاعة: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[3]. ففي كثير من الموارد نجعل أهواءنـا مـكان الله، وميولنا النفسيّة مكان أحكام الشّـرع. من هنا يقول الحقّ تعالى في كتابه العزيـز ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[4]. فـلا سبيل للإنسان إلى الإخلاص إلّا بترك الأنـا وحبّ النفس، لأنّ حبّها سيؤدّي إلى طاعتهـا، وطاعتها تعني اتّباع أوامرهـا، واتّباع أوامرها يعنـي أن المُطاع هو النفس وليـس الله تعالى، ممّا يكـون سبباً في وقوع الإنسان فـي المعصية والمخالفة لأوامر الحق عزّ وجلّ، وبالتالي البعد عن الله والحرمان من الهداية.

لأنّـه مـا معنـى الإخلاص؟ الإخلاص هـو أن لا يكـون للإنسـان مـن وراء نيّته وعملـه قصـدٌ إلّا رضا الله والتقرّب إليـه، بحيث تكون نيّته متوجّهـة دائماً إلى الله، فـلا تطلـب إلّا رضـاه ووجهه الكريم، حبّـاً به، وطمعاً فـي فضله وإحسانـه. فالعمل

(1) الآمدي، غرر الحكم، ص198.
(2) الآمدي، غرر الحكم، ص65.
(3) سورة ص، الآية: 26.
(4) سورة النّازعات، الآيتان: 41 – 42.

الخالص هو الذي لا تريد أن يمدحك عليه إلّا اللّه تعالى، كما في الحديث عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ**»[1]. أمّا إذا صار همّ الإنسان الناس وما يقولونه فيه، وأصبح هدفه وقصده الملذّات الدنيويّة والشهوات الرخيصة، اتّباعاً لأهواء النفس وأوامرها فمن الطبيعي أن لا يصل إلى درجة الإخلاص، لأنّ المطاع ليس اللّه، كما أنّ المقصد والمطلوب أيضاً ليس الحق عزّ اسمه، بل المطاع هو الأنا والأهواء، والمراد هو الملذّات والشهوات، والدنيا الفانية. والنتيجة الحتميّة لطاعة النّفس والهوى هي الضّلالة كما أخبر تعالى في كتابه العزيز حيث قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

ومن الأمور التي تساعد أيضاً على تحقّق الإخلاص اليقين. لأنّ الإخلاص للّه هو وليد الإيمان واليقين العميق بالمعارف الإلهيّة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإخلاص ثمرة اليقين**»[3]. فالإنسان المخلص يجب أن يكون صاحب يقين على مستوى التوحيد، ومؤمناً بأنه لا مؤثّر في الوجود إلّا اللّه، وأنّ كلّ شيءٍ في هذا العالم يبدأ من الله ويعود إليه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[4]. والخطوة الأولى نحو اليقين الصحيح تكمن بالعلم والمعرفة بأسس هذا الدين ومبادئه ومعارفه الإلهية، ومن دون هذه المعرفة يبقى يقين الإنسان ضعيفاً ومتزلزلاً، وبالتالي محروماً من فضيلة الإخلاص. وقد تناول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام المسألة بشيءٍ من التفصيل فقال: «**أوّل الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له**»[5].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص16.
(2) سورة الجاثية، الآية: 23.
(3) الآمدي، غرر الحكم، ص197.
(4) سورة البقرة، الآية: 156.
(5) نهج البلاغة، الخطبة 1.

المفاهيم الرئيسة

1. لا يمكن لأحدٍ أن يتحقّق بمقام اللّقاء والقرب الإلهيّ إلّا بواسطة الإخلاص.
2. حقيقة الإخلاص تخليص نيّة الإنسان وعمله من شائبة غير اللّه تعالى.
3. لا يتصوّر الإخلاص إلّا ممّن كان محبّاً للّه عزّ وجلّ، ومستغرق الهمّ في الآخرة بحيث لا يبقى لحبّ الدنيا وشهواتها وملذّاتها وسمعتها وجاهها ومناصبها في قلبه قرار.
4. فالأعمال مرهونة بالنيّات وإذا لم تكن النوايا خالصةً، فهذا يعني أنّه يشوبها الشرك واللّه تعالى لا يغفر أن يشرك به.
5. اللّه تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص، فإذا كان لشيءٍ من الأهواء النفسيّة والحظوظ الدنيويّة دخلٌ في الدين فلا يكون خالصاً، وما كانت فيه شائبة الغيريّة والنفسانيّة فهو خارج عن حدود دين الحقّ.
6. للإخلاص آثارٌ عديدة على المخلص منها: عدم تسلّط الشيطان عليه، الإعفاء من الحساب يوم القيامة، يرزقه اللّه العلم والحكمة والبصيرة في دينه.
7. يتحقّق الإخلاص من خلال إزالة المانع الذي يحول دون تحقّقه، ويمكن أن نختصر هذا المانع بأمرٍ أساسيّ وجوهريّ وهو هوى النفس.



أسئلة الدرس

1. اذكر شاهداً قرآنيّاً بارزاً تظهر فيه العلاقة بشكل واضحٍ بين الإخلاص ولقاء اللّه.
2. ما هو الإخلاص؟ ما هي حقيقته؟
3. ما هي أهمّ خصائص الإخلاص ونتائجه على الإنسان المخلص؟
4. كيف يصل الإنسان إلى مقام الإخلاص الرفيع؟

الخطوة الأولى نحو اللّه[1]

اعلم أنّ ما ورد في الحديث الشّريف «**الإِبْقَاءُ عَلَى العَمَلِ حَتَّى يَخْلُصَ، أَشَدُّ مِنَ العَمَلِ**» حثٌّ على لزوم المحافظة والمواظبة على الأعمال، التي تصدر عن الإنسان حين إنجازها وبعد تحقّقها، إذ قد يأتي الإنسان بالعمل من دون عيب ونقص، ويكون خالياً من الرياء والعُجب وغيره، ولكنه بعد العمل وبواسطة ذكره للآخرين يُعاب بالرّياء. كما ورد في الحديث الشريف المنقول عن الكافي:

عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**الإبقاء على العمل أشدّ من العمل. قال: وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصلُ الرجل بصلَة، وينفق نفقة للّه وحده لا شريك له، فتكتب له سرّاً، ثم يذكرها فتُمحى فتكتبُ له علانيّة، ثم يذكرها فتكتب له رياء**»[2].

إنّ الإنسان حتى نهاية حياته لا يأمن أبداً من شرّ الشيطان والنفس، وعليه أن لا يظنّ أنه عندما أتى بعملٍ ما لوجه اللّه، من دون ملاحظة رضى المخلوق، أصبح في مأمن من شرّ النفس الخبيثة. وعليه أنّ يعلم أنه إذا لم يراقب العمل ولم يواظب عليه، فمن الممكن أن تجبره نفسه على إظهاره أمام الآخرين. وقد يتمّ الإظهار بالإيماء والتلويح، فمثلاً إذا أراد أن يكشف عن صلاة اللّيل التي أتى بها للنّاس، التجأ إلى أساليب اللفّ والدوران، فيتحدّث عن حسن جوّ السَحَرِ أو رداءته، وعن مناجاة الناس أو جمال الأذان في السحر، وضيّع عمله من جرّاء المكائد الخفيّة للنفس، وألغاه من الاعتبار.

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث العشرون، ص 378.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص16.

يجب أن يكون الإنسان مثل الطبيب الرحيم، والمرافق الرؤوف يراقب نفسه، ولا يسمح بفلتان زمامها منْ يده، لأنها في لحظة من الغفلة تنفلت من يده وتقوده إلى الذلّ والهلاك. وعلى أيّ حال نستعيذ بالله من شرّ الشيطان والنفس الأمّارة ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

الإمام الخميني قدّس سرّه



(1) سورة يوسف، الآية: 53.



الدرس السابع عشر

القرآن ثقل الله الأكبر



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعـرّف إلى حقيقـة القـرآن الكريم، وأنّـه أسـاس الدين وأحد الثقلين.

2- يبـيّن أن التمسّـك بالقرآن الكريم مـن أهم علامـات العبودية الحقّة للّه تعالى.

3- يتعرّف إلى أهـم الآداب الظاهرية والباطنيـة للتمسّك بالقرآن الكريم.

القرآن أساس الدين

قال رسول الله ﷺ: «**إنّي تاركٌ فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً؛ كتاب الله، وعترتي أهل بيتي**»[1]. إنّ الله سبحانه وتعالى أودع شريعته وحقائق دينه في كتابٍ أنزله للناس هادياً، وأمر نبيّه والأوصياء من بعده أن يفسّروا آياته ويبيّنوا تعاليمه. فهو كتاب الله وهم كلماته التامات؛ وفيه أودع إرادته الكاملة للبشرية لكل عصر ومكان، وهم المتّصفون بالالتزام التام. ومن أراد الوصول إليه سلك سبيله؛ ومن اهتدى فإنّما يهتدي به، والضّال هو الذي يزيغ عنه. فهذا الكتاب هو مظهر هداية الله التامة، وصراط العروج في مراتب الكمال. فإنّ كلّ آية فيه تمثّل درجةً من درجات الجنّة التي حوت كل كمال. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**عدد درج الجنّة عدد آيات القرآن، فإذا دخل صاحب القرآن الجنّة قيل له اقرأ وارقَ، لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة**»[2]. فمن ضرورات شريعة الإسلام التمسّك بالقرآن، لأنّه مصّدر التشريع، وحافظ العقيدة وملهم الأرواح. فمن تركه، فقد ترك دينه وأعرض عن الله. ولهذا، كان التمسّك بالقرآن باب الدخول إلى الدين، لأنّه سند النبوة الخاتمة والمعجزة الإلهية الخالدة، والحجّة على العالمين.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص99.
(2) م.ن، ج89، ص22.

حقيقة القرآن الكريم

إن حقيقة القرآن التي يصل إليها الأولياء هي النور الخالص والغنى الذي لا فقر بعده أبداً، والكمال الذي لا منتهى له. فعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**القرآن غنى لا غنى دونه، ولا فقر بعده**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**واعلموا أنَّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال. فاسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه..**»[2].

فهو الشافي لأمراض النفوس والمزيل لأمراض القلوب. وهو إكسير السعادة في الدارين. ومن أراد تطهير باطنه من الأمراض والرذائل الأخلاقية، فليتمسّك به. وفيه الشفاء من أكبر الداء وهو الكفر. عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور**»[3]. حتى عدّ قارئ القرآن عن حقٍ ودراية ممّن أدرجت النبوة بين جنبيه، كما في الحديث عن مولى الموحدين عليه السلام: «**من قرأ القرآن فكأنّما أُدرجت النبوة بين جنبيّه إلّا أنّه لا يوحى إليه**»[4].

أمّا من أعرض عنه وجعله وراءه قاده إلى النار، ومن استقلّ شأنه أو قدّم غيره عليه فقد استصغر عظمة الله. فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**تعلّموا القرآن واقرأوه، واعلموا أنّه كائنٌ لكم ذكراً وذخراً، وكائنٌ عليكم وزراً. فاتّبعوا القرآن ولا يتبعنّكم. فإنّه من تبع القرآن تهجّم به على رياض الجنّة، ومن تبعه القرآن**

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص168.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص239.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص36.
(4) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج2، ص604.

زجّ في قفاه حتى يقذفه في جهنّم»[1].

وعليه، فإنّ القرآن المجيد كتاب الهداية إلى الغنى الذي لا فقر فيه والكمال الذي لا نقص فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]، وهو كتاب السفر إلى الله تعالى وباب الوصول إليه، وكتاب تهذيب النفوس والصدور وشفائها من الأمراض الخبيثة والمهلكة كما يقول الإمام الخميني قدس سره: «**هذا الكتاب الشريف الذي هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله والكتاب الأحدي في تهذيب النفوس والآداب والسنن الإلهية، وأعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق والعروة الوثقى والحبل المتين للتمسّك بعزّ الربوبية**»[3].

آداب التمسّك بالقرآن الكريم

إنّ للقرآن الكريم ظاهراً وباطناً كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ الْقُرْآنَ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ**»[4]، والتمسّك بالقرآن الكريم لا بدّ أن يراعي فيه الإنسان كلا البعدين الظاهري والباطني، ومن دون مراعاتهما لن تتجلّى فيه آثار القرآن النورانية.

آداب القرآن الظاهرية

1. **الطّهارة**: وهي من الأحكام الأساسيّة كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[5].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص239.
(2) سورة يونس، الآية: 57.
(3) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنويّة للصلاة، الفصل الثالث في بيان طريق الإستفادة من القرآن الكريم.
(4) الحر العاملي، وسائل الشيعة:ج25، ص10.
(5) سورة الواقعة، الآيات: 77 - 79.

2. **تنظيفُ الفم:** عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نظّفوا طريق القرآن، قيل: يا رسول الله وما طريق القرآن؟ قال: أفواهكم. قيل: بماذا؟ قال: بالسّواك**»[1].

3. **الاستعاذة:** لا بدَّ قبل البدء بالقراءة من الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم، واللجوء إلى كهفه الحصين، لأنّ الشَّيطان قد أقسم على القعود على الصراط المستقيم ليصد المؤمنين عنه: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[2]. لذا أمرنا الله تعالى باللجوء إليه، والاستعاذة من شره: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[3].

4. **الترتيل:** قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[4]. والترتيلُ هو القراءة بتأنٍّ وتمهّلٍ مصحوباً بالصَّوت الحسن، والقراءة الصَّحيحة والفصيحة الخالية من الأخطاء. والغرض من هذه القراءة أنّ يتدبر القارئ معاني القرآن ومراميه، وينتفع بأحكامه وعظاته وبوعده ووعيده. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**الترتيل أنْ تتمكَّثَ به وتحسن به صوتك، وإذا مررت بآية فيها ذكر النَّار فتعوّذ بالله من النَّار، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنَّة، فاسأل الله الجنَّة**»[5]. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ حُسن الصَّوت زينة للقرآن**»[7].

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج2، ص22.
(2) سورة الأعراف، الآية: 16.
(3) سورة النحل، الآية: 98.
(4) سورة المزمل، الآية: 4.
(5) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص207.
(6) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89.، ص190
(7) م. ن، ج89، ص190.

5. **مكان القراءة:** بالإضافة لخصوصية الأماكن المقدّسة والمساجد، ينبغي للمسلم أنْ يقرأ القرآن في بيته لما في ذلك من أثر هام؛ يقول الإمام علي عليه السلام: «**البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، وإنّ البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله فيه تقلّ بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين**»[1].

6. **مقدار القراءة:** يقولُ الإمام الصادق عليه السلام: «**القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أنْ ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آية**»[2]. وقد ورد التأكيد على التروي في القراءة: جاء عن الإمام الصادق لما سئل عن ختم القرآن كلّ يوم فقال عليه السلام: «**لا يعجبني أنْ تقرأه في أقل من شهر**»[3].

7. **الحزن والخشوع:** من آداب قراءة القرآن وتلاوته أنْ يستشعر المرءُ حالةَ الحُزن والخشوع. روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إنّ القرآن نزل بالحُزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا**»[4]. وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: «**إنّ القرآن نزل بالحُزنِ فاقرأوه بالحُزن**»[5].

8. **التدبّر:** قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[6]. ويقول الإمام علي عليه السلام: «**ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر**»[7].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص610.
(2) م. ن، ص609.
(3) م، ن، ج2، ص617.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص270.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص614.
(6) سورة محمد، الآية: 24.
(7) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص210، ب26.



المفاهيم الرئيسة

1. أودع اللّه سبحانه وتعالى شريعته وحقائق دينه في كتابٍ أنزله للناس هادياً، وأمر نبيّه والأوصياء من بعده أن يفسّروا آياته ويبيّنوا تعاليمه.
2. القرآن الكريم أحد الثقلين وهو دستور الإسلام ومن يبتغي الإسلام ديناً عليه التمسّك بدستوره.
3. القرآن الكريم هو كتاب اللّه وكلماته التامات؛ وفيه أودع إرادته الكاملة للبشرية لكل عصرٍ ومكان.
4. القرآن الكريم هو مظهر هداية اللّه التامة، وصراط العروج في مراتب الكمال، فإنّ كل آية فيه تمثّل درجةً من درجات الجنّة التي حوت كلّ كمال.
5. حقيقة القرآن أنّه النور الخالص والغنى الذي لا فقر بعده أبداً، والكمال الذي لا منتهى له.
6. القرآن هو الشافي لأمراض النفوس والمزيل لأمراض القلوب. وهو إكسير السعادة في الدارين. ومن أراد تطهير باطنه من الأمراض والرذائل الأخلاقية، فليتمسّك به. وفيه الشفاء من أكبر الداء وهو الكفر.
7. للقرآن آدابٌ وأحكامٌ ظاهرية ومعنوية ينبغي مراعاتها والالتزام بها لمن يريد أن يصبح مصداقاً حقيقاً لآياته الكريمة.



أسئلة الدرس

1. لماذا عدّ التمسّك بالقرآن الكريم من ضرورات الشريعة الإسلامية؟
2. في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده**». ماذا تستنتج من هذا الحديث الشريف؟
3. كيف تستدل على أنّ لهذا القرآن آداباً ظاهرية وباطنية؟

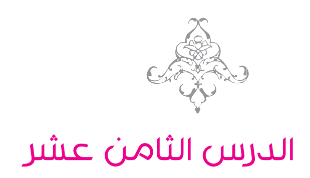


الرحمة الإلهية الكبرى [1]

هذا القرآن هو أكبر رحمة إلهية. فإن كنت تطمع في رحمة أرحم الراحمين وتأمل رحمته الواسعة فاستفد من هذه الرحمة. فإنّه قد فتح طريق الوصول إلى السعادة وبيّن طريق الهداية من الضلالة، وأنت تلقي بنفسك في بئر الهلاك وتنحرف عن الطريق المستقيمة. فأين النقصان في الرحمة! ولو كان من الممكن أن يُري الله الإنسان طريق الخير والسعادة بطريقة أخرى لكان سبحانه أراه إيّاه بمقتضى سعة رحمته. ولو كان من الممكن أن يوصل الإنسان إلى السعادة إكراهاً لكان الأنبياء يوصلونه. لكن هيهات، إنّ طريق الآخرة لا يمكن أن يسعى فيها إلَّا بقدم الاختيار، وإنّ السعادة لا تحصل بالجبر، وإنّ الفضيلة والعمل الصالح بلا اختيار ليسا فضيلة ولا عملاً صالحاً، ولعل هذا معنى الآية الشريفة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [2]. نعم ما يمكن أن يُعمل فيه الاكراه والاجبار هو صورة الدين الإلهي لا حقيقته، وإنّ الأنبياء  كانوا مأمورين أن يفرضوا على الناس صورة الدين ما استطاعوا، وبأي نحو ممكن، حتى تصبح صورة العالم صورة العدل الالهي. ولكنَّهم بالنسبة إلى الباطن ليس لهم إلَّا مجرَد الإرشاد، حتى يمشي الناس في هذه الطريق بأنفسهم، وينالوا السعادة باختيارهم.

الإمام الخميني قدس سره

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى، الفصل الثامن، في بيان حضور القلب، ص 77-80.
(2) سورة البقرة، الآية: 256.



الدرس الثامن عشر

آداب القرآن المعنوية (1)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يتعرّف إلى الهدف الأساسي من تلاوة القرآن.

2-يبيّن أن تنوّر القلب بالقرآن لا يحصل إلّا بالتأدب بآدابه المعنوية.

3-يتعرّف إلى بعض آداب القرآن المعنوية والباطنية.

القراءة الواعية والهادفة للقرآن الكريم

إنّ جميع أعمال النبي وآله وتضحياتهم التي لا تقدّر، إنّما كانت بشكل رئيسيّ وأساسيّ لأجل تحكيم أسس القرآن في المجتمع، وجعله الكتاب الهادي للبشرية جمعاء. فكل تحركاتهم كانت من أجل أن يصبح القرآن المصدر الأوحد للتشريع والفكر والروحانية والكمال. وإنّ عنوان الدخول إلى ساحة القرآن المقدسة، والوسيلة الوحيدة للسير في آياته هي القراءة. وإذا اجتمعت القراءة مع تلك التوجّهات القلبية النابعة من المعرفة بمقامه العظيم، حصل المطلوب من نزول هذا الكتاب المقدّس. يقول الإمام الخميني قدس سره: «**إن المبتغى من خلال قراءة القرآن هو ارتسام صورته في القلب وتأثير الأوامر والنواهي فيه، وتثبيت الأحكام والتعاليم الإلهية، ولا يتحقّق هذا إلّا في ظل مراعاة آداب القراءة**»[1]. والمقصود من آداب القراءة القراءة الواعية الهادفة، القراءة التي يبحث فيها الإنسان عن المعاني المقصودة والهدف من ورائها، القراءة التي لا يقتصر فيها على ظاهر المعاني بل يغوص في أعماقها محاولاً البحث عن حقائقها المعنوية وأسرارها الباطنيّة للتأدّب بها والاستنان بسنّتها.

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث التاسع والعشرون، ص 557.

آداب القراءة الواعية والهادفة للقرآن

من أهمّ هذه الآداب المعنويّة للتمسّك بالقرآن الكريم:

1. التعظيم:

التعظيـم أدبٌ يمارسه العقلاء بالوجدان، وهو ينشأ من خلال إدراك عظمة شيءٍ أو شخـص، حيـث يظهر في حركات أعضائهم وأقوالهـم وأفعالهم. إنّه أمرٌ وجدانيٌّ فطريٌّ مغـروزٌ في طبيعة البشر. وإدراك عظمة الشـيء يقتضي وجود مبادئ ومعانٍ للعظمـة فـي النفس والذهـن. فعظمة كلّ شيءٍ فـي الحقيقة ترجع إلـى كماله، وإلى مرتبتـه الوجودية. ولأنّ القرآن هو مظهر أسماء الله وصفاته، وأسماء الحقّ وصفاته ليـس لها حدّ وبالتالي فالقـرآن الكريم هو مظهر الكمال الذي ليس له حدّ أيضاً، لذا نحن البشر عاجزون عن الإحاطة به، وغاية ما ندركه فيه هو أنّنا لن ندركه أو نحيط بعظمتـه. فهذا أكبر تعظيم قلبي. يقول الإمام: «**إنّ الله تبارك وتعالى لسـعة رحمته بعبـاده أنـزل هـذا الكتاب الشـريف من مقـام قربه وقدسـه، وتنزّل به على حسـب تناسـب العوالم حتّى وصـل إلى هذا العالم الظلمانيّ وسـجن الطبيعة وصار على كسـوة الألفاظ وصـورة الحروف، لتخليص المسجونين في سجن الدنيا المظلم، وخلاصـ المغلوليـن بأغـلال الآمـال والأماني، وإيصـالهم من حضـيض النفس والضـعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوّة والإنسـانيّة، ومن مجاورة الشـيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقاصد أهل الله ومطالبهم**»[1].

لقد حوى هذا الكتاب الحكيم جميع مراتب العظمة الممكنة في أيّ كتاب. فمُنزله وكاتبه على الحقيقة هو الله سبحانه، جامع كلّ صفات الجمال والجلال على الإطلاق الـذي عجـزت العقول عن إدراك كُنه عظمتـه. فلا يمكن الإشارة إليـه بعينٍ أو اسمٍ أو رسـمٍ لأنّـه أكبر من أن يوصف. عن الإمام الصـادق عليه السلام قال: «**لقد تجلّى الله**

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنويّة للصلاة، في مطلق آداب قراءة القرآن الكريم، ص 324.

لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون»[1]. وحامله هو جبرائيل أمين الوحي وسيّد الملائكة، وهو الذي عند ذي العرش مكين. أمّا شارحه ومبيّنه فهو الرسول الأعظم صاحب المقام الأكرم أعظم خلق اللّه وأفضل أنبيائه ورسله، وخلفاؤه العظام أصحاب السرّ المكنون والمقام المصون الّذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. أمّا وقت تنزيله فهو ليلة القدر الّتي هي خيرٌ من ألف شهر.

2. رفع الموانع وإزالة الحجب:

إذا علمنا أنّ التمسّك بالقرآن تكليفٌ أساسيٌّ يعطي جميع الأعمال قيمتها وهويّتها الإلهيّة، وأردنا البدء بأداء هذا التكليف، سنجد أحياناً أنّ بيننا وبينه حجاباً غليظاً ومانعاً نفسيّاً كبيراً يسدّ علينا طريق الإقبال عليه أو تحصيل الفوائد الموعودة منه. فهذا الكتاب الإلهيّ وعدُ اللّه بالرحمة المطلقة والهداية الشاملة لكلّ من تمسّك به: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] ومع ذلك فغالباً ما لا نلحظ هذه الآثار الّتي وعدنا اللّه بها في أنفسنا إذا قرأنا القرآن. والسبب هو وجود مجموعة من الموانع والعوائق الّتي تحول دون تحقق هذه الإستفادة كما يقول الإمام الخميني ولا بدّ من رفع هذه الموانع وإزالتها: «**اللازم على المتعلّم والمستفيد من كتاب اللّه أن يجري أدباً آخر من الآداب المهمّة، حتّى تحصل الاستفادة، وهو رفع موانع الاستفادة. ونحن نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن**»[3].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص107.
(2) سورة المائدة، الآيتان: 15 – 16.
(3) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنويّة للصلاة، الفصل الرابع، في بيان رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن، ص 43.

وأهمّ هذه الموانع:

أ. حجاب رؤية النفس مستغنية:

حيث يرى المتعلّم نفسه بسبب هذا الحجاب مستغنياً أو غير محتاج إلى الاستفادة من كتاب اللّه. حيث يزيّن الشيطان للإنسان دائماً الكمالات الموهومة ويقنعه بها، فيحرمه من فهم الكتاب الإلهيّ النورانيّ والاستفادة منه.

ب. حجاب الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة:

منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، والتحريفات المتعمّدة تنصبّ على كتاب اللّه. ويعرض كلّ تيارٍ بضاعته الكاسدة في أسواق المسلمين لتتبعه فرقة وتحيد عنه أخرى. فالقرآن كان ولا يزال أقدس المقدّسات عند المسلمين. ولهذا وجد المنحرفون فيه فرصة لتحقيق مآربهم من خلال تفسير بعض آياته وتوجيهها بما يحلو لهم.

ج. حجاب شبهة التفسير بالرأي:

من الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانيّة الاعتقاد بأنّه ليس لأحد حقّ الاستفادة من القرآن الكريم إلّا ما يكتبه المفسّرون أو يفهمونه. وقد اشتبه على الناس التفكّر والتدبّر بالتفسير بالرأي الّذي جاء المنع عنه في الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار**»[1]. وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع أوجه الاستفادة واتّخذوه مهجوراً بالكلّيّة. في حين أنّ الاستفادات الأخلاقيّة والإيمانيّة لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي؟ فمثلاً، إذا استفاد أحدنا من قوله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾[2] التواضع للأستاذ والمربّي، وضرورة جعل التعلّم لأجل الوعي والنباهة، لا يكون قد فسّر القرآن، أو فسّره برأيه. فلا ربط لهذا بالتفسير حتّى يسمّى بالتفسير بالرأي.

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 189.
(2) سورة الكهف، الآية: 66.

د. حجاب الذنوب والمعاصي:

إنّ القلـب هو محلّ انعكاس أنوار القـرآن. فإذا كان المحلّ متكدّراً بظلمة الذنوب ومحجوبـاً بحجاب المعاصـي، فلن يرى من القرآن سوى الألفـاظ والحروف، بل قد يؤدّي ذلك إلى عدم رؤية القرآن كلّيّاً.

هـ. حجاب حبّ الدنيا:

التعلّـق بالدنيـا يصرف القلب عن القـرآن ويجعل تمام همّة الإنسـان في الدنيا، فيغفل عن ذكر اللّه. وكلّما ازداد التعلّق بالدنيا وشؤونها ازداد حجاب القلب ضخامةً، فينســى صاحبه كلّ خير حقيقيّ وجمالٍ معنويّ ولا يرى الكمال إلّا في الدنيا والمادّة. ولأنّ القرآن دعوةٌ إلى الآخرة والكمالات المعنويّة، فإنّ الطالب للدنيا قد يراه مخالفاً لمشتهياتـه ورغباتـه وسدّاً أمام تحقيق مآربه فتنفـر النفس منه ويعرض عنه. وهذه هي عاقبة الإقبال على الدنيا وزينتها.



المفاهيم الرئيسة

1. جميع أعمال النبي وآله وتضحياتهم التي لا تقدّر، إنّما كانت لأجل تحكيم أسس القرآن في المجتمع، وجعله الكتاب الهادي للبشرية، ومن أجل أن يصبح القرآن المصدر الأوحد للتشريع والفكر.
2. الهدف من تلاوة القرآن انتقاش صورته وحقيقته في باطن الإنسان وقلبه.
3. التمسّك بالقرآن يتحقّق من خلال مراعاة مجموعةٍ من الشروط الظاهريّة والباطنيّة.
4. يعتبر التعظيم ورفع الحجب والموانع من آداب القرآن المعنوية ومقدمة لبقية الآداب.
5. القرآن هو مظهر أسماء الله وصفاته، وبالتالي مظهر الكمال الذي ليس له حدّ، ونحن البشر عاجزون عن الإحاطة به، وغاية ما ندركه منه هو أنّنا لن ندركه أو نحيط بعظمته.
6. على المتعلّم والمستفيد من كتاب الله أن يجري أدباً آخر من الآداب المعنوية المهمّة، وهو رفع موانع الاستفادة، والتي نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن.
7. من الحجب أن يرى المتعلّم نفسه مستغنياً أو غيرٍ محتاج إلى الاستفادة من كتاب الله.
8. من الحجب المانعة من الاستفادة من القرآن التحريفات المتعمّدة التي تنصبّ على كتاب الله.
9. من الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانيّة الاعتقاد بأنّه ليس لأحدٍ حقّ الاستفادة من القرآن الكريم إلّا ما يكتبه المفسّرون أو يفهمونه.
10. من الحجب المانعة أيضاً التي تحول دون الاستفادة المعنوية الصحيحة من كتاب الله؛ حجاب الذنوب والمعاصي وحبّ الدنيا.



أسئلة الدرس

1. تحدّث عن التعظيم، وبيّن دوره في آداب القرآن المعنوية.
2. ما هو حجاب الاستغناء؟ وكيف يكون مانعاً من التمسك الصحيح بالقرآن؟
3. كيف يكون حبّ الدّنيا مانعاً من الاستفادة الحقيقيّة من القرآن الكريم؟



مهجورية القرآن [1]

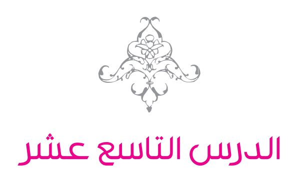
إنّ مهجورية القرآن لها مراتب كثيرة ومنازل لا تحصى، ولعلّنا متّصفون بالعمدة منها. أترى أننا إذا جلّدنا هذه الصحيفة الإلهية جلداً نظيفاً وقيّماً وعند قراءتها أو الاستخارة بها قبّلناها ووضعناها على أعيننا ما اتّخذناه مهجوراً؟ أترى إذا صرفنا معظم عمرنا في تجويده وجهاته اللغويّة والبيانيّة والبديعيّة قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن المهجورية ؟ هل أننا إذا تعلّمنا القراءات المختلفة وأمثالها قد تخلّصنا من عار هجران القرآن ؟ هل أننا إذا تعلمنا وجوه إعجاز القرآن وفنون محسّناته قد نجونا من شكوى رسول اللّه؟ هيهات.. فإنّه ليس شيء من هذه الأمور مورد نظر القرآن ومنزّله العظيم الشأن.. إنّ القرآن كتاب إلهيّ وفيه الشؤون الإلهيّة. القرآن هو الحبل المتصل بين الخالق والمخلوق ولا بدّ أن يوجد الربط المعنوي والارتباط الغيبي بتعاليمه بين عباد اللّه ومربّيهم، ولا بدّ أن يحصل من القرآن العلوم الالهيّة والمعارف اللدنيّة. إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال حسب ما رواه الكافي «**انّما العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنّة قائمة**»[2].

فالقرآن الشريف حامل لهذه العلوم، فعندما نتعلم من القرآن هذه العلوم فما اتّخذناه مهجوراً. وإذا قبلنا دعوات القرآن وأخذنا التعاليم من قصص الأنبياء عليهم السلام المشحونة بالمواعظ والمعارف والحكم، إذا اتعظنا نحن من مواعظ اللّه تعالى ومواعظ الأنبياء والحكماء المذكورة في القرآن فما اتّخذناه مهجوراً، والّا فالغور في الصورة الظاهرية للقرآن أيضاً إخلاد إلى الأرض ومن وساوس الشيطان ولا بدّ من الاستعاذة باللّه منه.

الإمام الخميني قدس سره

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، الباب الرابع، الفصل الرابع، في بيان رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن، ص 343 – 443.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص32.



الدرس التاسع عشر

آداب القرآن المعنوية (2)



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يتعرّف إلى المزيد من الآداب المعنوية للتمسك بالقرآن الكريم.

2-يتعرّف إلى كيفيّة التفكّر والتدبّر في القرآن الكريم.

3-يبيّن كيفيّة الاستفادة العمليّة من القرآن الكريم من خلال آليات التطبيق الصحيح.

من الآداب المعنوية الأخرى للتمسّك الصحيح بالقرآن الكريم:

معرفة أهداف القرآن ومقاصده

إنّ لمعرفة أهداف القرآن الأساسيّة واستحضارها دوراً فعّالاً ومؤثراً في الاستفادة منه. لأنّ اللّه تعالى لم ينزّل كتابه إلى الناس لغواً وعبثاً بل لأهداف واضحة ومحدّدة. ويمكن أن نلخّص الهدف الأوّل والأخير لهذا الكتاب الشريف بأنّه كتاب هداية الإنسان إلى اللّه تعالى. فكلّ آية من آياته إنّما تهدف إلى توثيق الصلة وتعميقها بين الإنسان وخالقه لكي يهتدي في نهاية المطاف إليه. ويتفرّع عن هذا الهدف الأساسي أهدافٌ أخرى كلّ واحدٍ منها يأخذ بيد الإنسان إلى المقصد النهائي وأهمّها:

1. الدعوة إلى معرفة اللّه.
2. الدعوة إلى تهذيب النفس.
3. بيان كيفيّة تربية الأنبياء من جانب الحقّ تعالى.
4. بيان كيفيّة سلوك الأنبياء الذين هم قدوة البشر.
5. بيان أحوال الكفار وأسباب انحرافهم.
6. بيان قوانين الشريعة والآداب والسنن.
7. ذكر المعاد وأحواله.

ومـا على قـارئ القرآن أثنـاء تلاوته لكتـاب الله سوى البحث عن مغـزى كل آية ومقصدهـا والوقوف عند هـذا المقصد ومن ثمّ ربطه بالهـدف الأساسي وهو ربط الإنسان بخالقه لكي تتحقق الهداية المطلوبة والفائدة المرجوّة.

التفكّر

قـال الله تعالـى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾[1]. التفكّـر هـو البحث عـن المقصـد والمقصود في الآيـات. وحيث إنّ مقصـد القرآن هـو الهداية إلى سبل السـلام والخروج من الظلمـات إلى النّور، فعلـى القارئ أن يتفكّر في الآيات باحثاً عن الهداية والنور فيها. وقد جعل الله تعالى التفكر غاية إنزال هـذا الكتاب السماوي ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، وذلك لسببٍ أساسي وجوهـري هو أنّ التفكّر حياة القلب كما في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ هـذا القـرآن فيـه منـار الهـدى ومصـابيح الدجـى، فليجل جال بصـره ويفتح للضـياء نظره، فإنّ التفكر حياة قلب البصـير كما يمشـي المسـتنير في الظلمات بالنّـور**»[4]. لـذا يحـذّر الحقّ تعالى من عـدم التدبر في القـرآن والتماس البصيرة والمعرفة المطلوبة للوصول إلى مقصد كل آية، لأنّ في ذلك الخسران المبين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[5].



(1) سورة سبأ، الآية: 46.
(2) سورة النحل، الآية: 44.
(3) سورة الأعراف، الآية: 176.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 600.
(5) سورة محمد، الآية: 24.

برنامجٌ عمليٌّ للتفكّر في القرآن:

رغـم أنّ التفكّـر أمرٌ نفسانـيّ لا يمكن أن ينفصل عن الإنسان طـوال حياته، فإنّ البعضـ يجدون فـي التفكّر في القرآن صعوبـةً بالغة. وكلما حاولـوا التفكّر في آياته وجـدوا آلاف الأفـكار الأخرى تنهال عليهم من كل حدبٍ وصـوب، كلّ واحدة تمنعهم مـن التأمّل والتدبّر المطلـوب. ولأجل تحصيل ملكة التفكّر الهـادئ والمركّز، ينبغي الالتفات إلى المسائل التالية:

1. ليسـ مجـرّد التفكّر هو المطلوب، بل التفكّر الهادف الـذي يبحث فيه المفكّر عن أمرٍ ما.
2. التفكّر المركّز يدلّ على الاهتمام. فإذا لم تكن مهتماً أو كان لديك ما هو أهم، لن تتمكن من تحصيل التركيز المطلوب.
3. ويحتـاج المفكّـر إلى موادَّ خـامٍّ يستخدمها في عملية البحـث عن ذلك الأمر المطلـوب. وهـذه المواد ينالها من خـلال التعلّم والمطالعـة. وإذا كنت تريد التفكّر في آيةٍ ما، فاقرأ حولها بعض التفاسير والروايات.

التطبيق

وهو من الآداب الأساسية، والمقصود منه تطبيق ما تعلّمه الإنسان من القرآن في حياتـه العمليـة. عن رسول الله ﷺ قال: «**من تعلّم القـرآن فلم يعمل به وآثر عليه حب الدنيا وزِينتها اسـتوجب سـخط الله، وكان في الدرجة مع اليهود والنصـارى الذيـن ينبـذون كتـاب الله وراء ظهورهـم**»[1]. فعندمـا يتفكّـر القـارئ فـي الآيات الشريفـة التي يمرّ عليها وينظـر إلى أهدافها عليه أن يستخـرج منها الأمور العملية ويقوم بتطبيقها على نفسه. فإذا قرأ قصة آدم عليه السلام وما جرى عليه وفكّر في سبب

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6،ص183.

مطروديــة الشيطان من مقام القرب مع كل عباداته الكثيرة وسجداته الطويلة، فإنّه ســوف يتعرّف إلى الأوصاف الإبليسية والأخــلاق الشيطانية ويعلم أنّ كلّ من يتّصف بها مطرودٌ لا محالة. فتكون العبرة والفائدة العملية هي: لزوم تطهير النفس من هذه الصفات لأنّ مقام القرب الإلهي مقام المطهّرين.

كيفيّة التطبيق:

عندما يتفكّر القارئ في كلّ آية يمرّ عليها، عليه أن يستخرج مفادها العملي ويقوم بتطبيقــه على نفسه. مثلاً، إذا قرأ قصــة آدم عليه السلام وما جرى عليه، وفكّر في سبب مطروديّة الشيطان من جناب القدس، مع تلك العبادات الطويلة والسجدات الكثيرة، وســأل نفســه لماذا أخرج الله تعالــى إبليس من جوار قدسه، بعــد أن كان في مجمع الملائكــة. سيعلم أنّ كثرة العبادة لا تشفع للإنسان، وأنّ الصفات الإبليسية الّتي هي التكبّر والاستعلاء تكون سبباً للطرد والبعد.

مثــالٌ آخــر: التفكّر في سبب امتياز آدم وأفضليته على الملائكة المقربين الذين كانوا من أهل التسبيح والتقديس والعبادة. فالملائكة بعد أن تساءلت عن خليفة الله المقبل، عرّفها الله تعالى إلى صفة أساسية له وهي: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1]. فمــا هي حقيقــة تعلّم الأسماء؟ إنّ التفكّر في هذه الأسئلــة يوصل القارئ إلى حقيقة وهي أنّ هذا التعليم للأسماء هو التحقّق بحقيقتها. يقول الإمام الخميني: «**الإنســان يستطيع أن يكون مظهراً لأسماء الله والآية الإلهية الكبرى بالارتياضات القلبية، حتى يصــبح وجــوده وجوداً ربانياً**»[2]. وإذا أدرك قــارئ القرآن سرّ وجوده وهبوطه إلــى الأرض، ربما يلتفت إلى مــا أودع الله فيه، ويعلم أنّ الوصــول إلى تلك الحقيقة التــي من أجلها وُجِد إنّما يكون بتعلّم الأسماء، وهــذا ما لا يتيسّر إلّا بترك الأوصاف الإبليسية التي على رأسها العجب والتكبّر.

(1) سورة البقرة، الآية: 31.

(2) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، ص 355.



المفاهيم الرئيسة

1. إنّ لمعرفة أهداف القرآن الأساسيّة واستحضارها دوراً فعّالاً ومؤثراً في الاستفادة منه. لأنّ اللّه تعالى لم ينزّل كتابه إلى الناس لغواً وعبثاً بل لأهداف واضحة ومحدّدة.
2. من آداب القرآن المعنوية البحث عن مغزى كلّ آية ومقصدها والوقوف عندها والتفكر فيها.
3. على قارئ القرآن أثناء تلاوته لكتاب اللّه البحث عن مغزى كل آية ومقصدها والوقوف عند هذا المقصد ومن ثمّ ربطه بالهدف الأساسي.
4. التفكر في القرآن يعني البحث عن المقصد والمقصود من كل آية وهو من الآداب أيضاً.
5. على القارئ أن يتفكّر في الآيات باحثاً عن الهداية والنور فيها. وقد جعل اللّه تعالى التفكر غاية إنزال هذا الكتاب السماوي.
6. تطبيق التلاوة على النفس من آداب القرآن المعنوية، والمقصود منه تطبيق ما تعلّمه الإنسان من القرآن في حياته الخاصة.
7. عندما يتفكّر القارئ في كلّ آية يمرّ عليها، عليه أن يستخرج مفادها العملي ويقوم بتطبيقه على نفسه فيكون قد طبّق القرآن على نفسه والتزم بأدب عملي مهم جداً من آداب التمسك بالقرآن الكريم.



أسئلة الدرس

1. ما هو البرنامج العملي للتفكّر والتدبّر بالقرآن الكريم؟
2. أعط مثالاً على كيفيّة التطبيق العملي للقرآن الكريم على النفس.
3. أذكر ثلاثة آيات من القرآن الكريم وبين المقصد والهدف من كل آية.



المربّي والشافي [1]

اعلـم أنّ هـذا الكتـاب الشريف كمـا صرّح بنفسه كتـاب الهداية وهـادي سلوك الإنسانية ومربّي النفوس وشافي الأمراض القلبية ومنير طريق السير إلى الله.

وبالجملـة، فإنّ الله تبارك وتعالى لسعـة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف مـن مقام قربه وقدسه وتنـزّل به على حسب ما يناسب العوالـم حتى وصل إلى هذا العالـم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الألفاظ وصورة الحروف لخلاص المسجونيـن في سجـن الدنيا المظلـم ونجاة المغلوليـن بأغلال الآمـال والأماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة الإنسانية، ومـن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين بل الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبـة لقـاء الله التي هـي أعظم مقاصد أهـل الله ومطالبهم. فمن هـذه الجهة إنّ هـذا الكتاب هـو كتاب الدعوة إلـى الحقّ والسعـادة. وبيان كيفيّة الوصـول إلى هذا المقام ومحتوياته إجمالاً ممّا له دخلٌ في هذا السير والسلوك الالهي أو يعين السالك والمسافـر إلـى الله، وعلى نحوٍ كلّـي أحد مقاصـده المهمّة الدعوة إلـى معرفة الله وبيان المعارف الإلهية من الشؤون الذاتيّة والأسمائية والصفاتية والأفعالية وأكثرها مطلوبيـةً هو توحيد الـذات والأسماء والأفعال، وقد ذكر على نحـوٍ مستقصىً بعضه بالصراحة وبعضه بالإشارة.

وليعلم أنّ المعارف من معرفة الذات إلى معرفة الأفعال قد ذكرت في هذا الكتاب الجامـع الإلهي على نحوٍ تدركه كلّ طبقة على قدر استعدادها. كما أنّ علماء الظاهر والمحدّثيـن والفقهاء رضـوان الله عليهم يبيّنون ويفسّرون آيـات التوحيد الشريفة،

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنويّة للصلاة، الفصل الثاني،في بيان مقاصد الكتاب الشريف،ص 324 - 325.

وخصوصاً توحيد الأفعال علـى نحوٍ يخالف، ويباين ما يفسّرها أهل المعرفة وعلماء الباطن.

والكاتـب يرى كلا التفسيرين صحيحاً في محلّـه، لأنّ القرآن هو شفاء الأمراض الباطنيّة ويعالج كل مريض على نحو خاص، كما أنّ الكريمة ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [1] والكريمـة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [2] والكريمة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [3] والكريمـة ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ [4] والكريمـة ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [5] إلـى غيـر ذلـك في توحيد الـذات والآيـات الكريمة في آخر سـورة الحشر وغيرها فـي توحيد الصفـات والكريمـة ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [6]. والكريمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [7] والكريمة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [8] في توحيد الأفعال التي يدلّ بعضها بوجه دقيق وبعضها بوجهٍ أدقّ دلالة عرفانية، هي شفاءٌ للأمراض بنحوٍ ما عند كل طبقة من طبقات علماء الظاهر والباطن. وفي نفس الوقـت الـذي تكون بعض الآيات الشريفة مثل الآيـات الأوّل من سورة الحديد وسورة التوحيـد المباركـة قد نزلت للمتعمّقين في آخر الزمـان حسب الحديث الشريف في الكافـي، فلأهل الظاهر منها نصيـبٌ كاف، وهذا من معجزات هذا الكتاب الشريف ومن جامعيته.

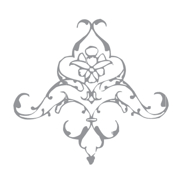
الإمام الخميني قدس سره

(1) سورة الحديد، الآية: 3.
(2) سورة النور، الآية: 35.
(3) سورة الزخرف، الآية: 84.
(4) سورة الحديد، الآية: 4.
(5) سورة البقرة، الآية: 115.
(6) سورة الأنفال، الآية: 17.
(7) سورة الفاتحة، الآية: 2.
(8) سورة الحشر، الآية: 24 .



الدرس العشرون

أهل البيت عليهم السلام ثقل الله الأصغر



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يتعرّف إلى حقيقة الحبّ ومحوريّته في الإسلام.

2-يدرك أهميّة المحبة ودورها بالنسبة لسلوك الإنسان ومصيره.

3-يبيّن أنّ أهل البيت عليهم السلام هم المصداق الواقعي والحقيقي للحبّ في الإسلام.

المحبة ودورها في حياة الإنسان

الحــبّ من الميول الفطرية المودعة فــي كلّ إنسان، وهو كامنٌ في نفوس الجميع، ولا يمكن أن يخلو منه أيّ إنسان. وحقيقة الحبّ عبارة عن التعلّق الخاص والانجذاب المخصوص بين المرء وكمالـه. وكل واحد منّا يعلم حضوراً بوجـود تعلّقٍ وانجذابٍ في قلبه، وإن اختلف هذا المتعلّق بين شخصٍ وآخر. فالثابت والمشترك بين الجميع هــو أنهم يتعلّقون بالكمــال أو الكامل الذي يرونه بحسب اعتقادهــم وتصوّرهم. أمّا دور الحــبّ فهــو لا ينحصــر فقط في طمأنينــة الباطن وسكينته، بــل للحب دور آخر أكثــر أهميّــة. إنّ هذا الحبّ هو المسؤول عن جميع توجهــات البشر وتحركاتهم. لأنّ الحــبّ كمــا يعرّفه العلامة نصير الديــن الطوسي: «**هو الذي يكون مبدؤه مشــاكلة العاشق لنفس المعشوق في الجوهر. وهو يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد ورقّة منقطعة عن الشواغل الدنيوية**»[1].

فالمحب سوف يسعى على الدوام إلى مشاكلة محبوبه في صفاته وشمائله وأفعاله. فــإذا كان المحبــوب كاملاً تامّــاً، وشمائله عظيمةً رفيعة، اتّجه وجــوده وصفاته نحو المشاكلــة التامّة. فلا يبقى بينه وبين المحبوب أي فــارق، فلا يعصيه ولا يخالف له

(1) أبو علي سينا، الإشارات والتنبيهات، ج 4، ص 602، تحقيق وشرح نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، شرح الشــرح للعلّامــة قطب الدين محمد بن محمد أبي جعفر الــرازي، الناشر نشر البلاغة – قم، مطبعة القدس – قم، 1383ش، الطبعة 1.

أمراً. ذلك لأنّ الحبّ الذي لا ينطلق من الأنا وحب النفس (وهذا هو الحبّ الحقيقي)، هو عبارةٌ عن النظر إلى المحبوب وإلى ما يريده وما يرتضيه.

القلب أمير البدن

من هنا كان الحبّ من أهم العوامل التي تسهّل سبيل الطاعة. بل بإمكاننا القول أيضاً إنّ الطاعة ليست سوى أحد لوازم الحبّ، فبمقدار الحبّ تكون الطاعة. ذلك لأنّ القلب هو أمير البدن كما في حديث النبي الأكرم ﷺ: «... **إنّ الله تعالى ما فرض الإيمان على جارحة من جوارح الإنسان إلا وقد وُكّلت بغير ما وُكِّلَت به الأخرَى فمنها قلبه الذي يعقل به ويفقه ويفهم ويحلّ ويعقد ويريد وهو أمير البدن**»[1]. وكل الأعمال التي تصدر عن الأعضاء والجوارح، إنّما تكون بإمرة القلب، وليس العقل كما يتصوّر أحياناً. فعقولنا ليست سوى مصباح، يضيء لنا طريقنا. أما المحرّك الواقعي والمسؤول الحقيقي عن أيّة حركة وفعل مهما كان بسيطاً فهو القلب. وإذا أردنا أن نعرف كيفيّة صدور العمل عن الإنسان ينبغي الالتفات إلى المراحل التالية:

1. **مرحلة التصوّر**: عندما يستحضر صورة العمل مستعيناً بالخيال، ويتصوره في نفسه.
2. **مرحلة التصديق**: فيقوم العقل بتحليل هذا العمل ومدى فائدته. فإذا كان العقل أسير الأهواء فسوف يبقى معطلاً، فتكون الأهواء هي الحاكمة وفق ما تراه ودون الأخذ بعين الاعتبار رضا الحقّ سبحانه أو موافقة شريعته.
3. **مرحلة التعلّق**: وهنا يأتي دور القلب، حيث ينظر إلى العمل ويزنه على أساس ما يحبّ. فإذا كان حبّ الدنيا مسيطراً على القلب، فإنّ القلب سيتعلّق به، ويحرّك البدن باتجاهه. وإذا كان القلب متعلّقاً بالله، فلن يتعلّق القلب بهذا

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 66، ص73.

العمل، بل سينفر منه لأنّه سيبعده عن محبوبه، ولن تتحرّك الأعضاء نحو العمل المذكور.

4. **مرحلة التنفيذ**: وهي مرحلة ظهور العمل بواسطة الآلات والجوارح في الخارج.

من نحبّ واقعاً؟

كما لاحظنا سابقاً إنّ للقلب الدور المركزيّ في صدور الأفعال كافّة. وهذا الدور مرتبطٌ بالشيء المحبوب الذي تعلّق القلب به. ولهذا إذا صلح القلب صلح الإنسان بصلاح أعماله واستقامتها. ومن هنا نعرف معنى كلام الإمام الصادق عليه السلام: «**وهل الدين إلَّا الحبّ**»[1]. ونقترب من جواب الإمام الباقر عليه السلام لسائل سأله إذا كان فيه خيرٌ أم لا، فقال عليه السلام له: «**إذا أردت أنّ تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك...**»[2]. وسيكون من نتائج هذا الفهم وضوح أحد معاني الآية الكريمة: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[3].

فالحبّ بدوره المركزي أضحى أحد أهمّ مميّزات الإسلام. والتركيز على الحبّ ودوره في حياة الإنسان ومصيره ليس أمراً هامشياً أو عبثياً، لأنّ الإسلام أراد إصلاح الإنسان من خلال إصلاح مركز وجوده ومعدنه. هذا الإصلاح يتحقّق عندما يتعلّق القلب بالكمال الحقيقي الذي تعشقه الفطرة الإنسانية وتميّل إليه.

فقلب الإنسان بحسب الفطرة التي فطر عليها لا يمكن أن يتعلّق بالنقص أو بما يسبّب له الضرر. بل ولا يمكن أن يتعلّق بالكمال المحدود والفاني، ففي أعماق كل إنسان فطرةٌ ينبثق منها هذا الحبّ، وهي لا تريد ولا تطلب سوى الكمال المطلق اللامتناهي. وقد أرسل الله تعالى الأنبياء إلى النّاس، ليس لأجل وضع الفطرة فيهم

(1) الشيخ الكليني، روضة الكافي، ج8، ص79.
(2) الشيخ الكليني، أصول الكافي، ج2، ص126.
(3) سورة الشعراء، الآيتان: 88 – 89.

أو إنشائها في بواطنهم، بل من أجل هدايتهم إلى ما تصبو إليه هذه الفطرة الكامنة فيهم، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم مَنسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول**»[1].

بعبارة أخرى بُعثوا ليدلّوهم على المصداق الواقعي للكمال الذي ينشدونه، وهو الحق جلّ وعلا، حتى إذا سيطرت محبته على القلب زالت كل التعلّقات الأخرى وعلى رأسها حبّ الدنيا على قاعدة «**عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم**»[2]، فيزول الانجذاب والتعلّق بالكمال الزائل الفاني، ولا تتعلّق قلوبهم إلّا بما يرتبط بمحبوبهم.

أهل البيت هم مظاهر الحبّ الواقعي

ولكن لأنّ طبيعة الناس ونفوسهم مستغرقةٌ في عالم الدنيا والظاهر، ولا يمكنهم في البداية أن يتعرّفوا إلى المصداق الحقيقي للكمال المطلق وهو الله، فقد أنزل الحقّ تعالى إليهم مظاهر هذا الكمال بجلباب البشرية لكي يتعرّفوا إليه من خلالها. فكان أعظم ما في هذا الوجود هو خلق هذا الخليفة لله بصورة البشر ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3] فكان هذا الخليفة الواقعي هو المظهر والممثّل الحقيقي للمستخلف. أي مظهر إرادة الحق وكمالاته المطلقة في هذا العالم. ولهذا كان خلق أهل البيت عليهم السلام حيث يشاهد الناس أمامهم بشراً يمشون في الأسواق، ويأكلون الطعام، وينامون، ويتزوّجون، ومع ذلك فهم مظاهر تامّة للكمال الإلهي اللامتناهي. وهذا مما سيلهب وجدانهم ويزيد من شوقهم ويلقي الحجّة التامّة عليهم.

(1) نهج البلاغة، ج 1، ص 23.
(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 64، ص 315.
(3) سورة البقرة، الآية: 30.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إذا أردت أنَّ تعلم أنّ فيك خيراً فانظر إلى قلبك. فإذا كان يحب أهل طاعة الله، ويبغض أهل معصيته، ففيك خيرٌ، والله يحبك. وإذا كان يبغض أهل طاعة الله، ويحب أهل معصيته، فليس فيك خيرٌ، والله يبغضك، والمرء مع من أحب**»[1].

وفي رواية أخرى أنّ رجلاً يُدعى أبا عبد الله دخل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له الإمام: «**يا أبا عبد الله: ألا أخبرك بقول الله عزّ وجلّ** ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **قال: بلى يا أمير المؤمنين. فقال الإمام** عليه السلام: «**الحسنة معرفة الولاية، وحبنا أهل البيت، والسيّئة إنكار الولاية، وبغضنا أهل البيت**»[2].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لأصحابه: «**أي عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. وقال بعضهم الصلاة، وقال بعضهم الزكاة، وقال بعضهم الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد في سبيل الله. فقال** صلى الله عليه وآله وسلم: **لكلّ ما قلتم فضلٌ وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله، والبغض في الله، وتولّي أولياء الله والتبرّي من أعداء الله**»[3].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنّه قضي فانقضى على لسان النبي الأميّ** صلى الله عليه وآله وسلم **أنّه قال: يا عليّ لا يبغضك مؤمنٌ، ولا يحبك منافقٌ**»[4].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص126.
(2) م. ن، ج1، ص185
(3) م.ن، الكافي، ج2، ص125.
(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج34، ص50.

وعـن النبي  أنّـه قال: «**من رزقه الله حـبّ الأئمة من أهل بيتي فقد أصـاب خير الدنيا والآخرة. فلا يشكّن أحدٌ أنّه في الجنة. فإنّ في حبّ أهل بيتي عشرين خصـلة، عشـر منها في الدنيا، وعشر في الآخرة. أمّا في الدنيا فالزهد، والحرص علـى العمل، والورع في الدين، والرغبة في العبادة والتوبة قبل الموت، والنشـاط فـي قيـام الليل، واليأس مما في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله (عزّ وجلّ) ونهيه والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء. أمّا في الآخرة: فلا ينشر له ديوان، ولا ينصـب له ميزانٌ، ويُعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النّار، ويبيّض وجهه، ويكسـى مـن حلل الجنّة، ويشـفّع في مئة من أهـل بيته، وينظر الله عـزّ وجلّ إليه بالرحمة، ويتوّج من تيجان الجنّة، والعاشرة يدخل الجنّة بغير حساب**»[1].

(1) م. س، ج27، ص78.



المفاهيم الرئيسة

1.الحبّ من الميول الفطرية المودعة في كلّ إنسان، وهو كامنٌ في نفوس الجميع، ولا يمكن أن يخلو منه أيّ إنسان.

2.الحبّ عبارة عن التعلّق الخاصّ والانجذاب المخصوص بين المرء وكماله.

3.المحب يسعى على الدوام إلى مشاكلة محبوبه في صفاته وشمائله وأفعاله، فإذا كان المحبوب كاملاً تامّاً، وشمائله عظيمةً رفيعة، اتّجه وجوده وصفاته نحو المشاكلة التامّة.

4.الحبّ من أهم العوامل التي تسهّل سبيل الطاعة. بل بإمكاننا القول أيضاً إنّ الطاعة ليست سوى إحدى لوازم الحبّ، فبمقدار الحبّ تكون الطاعة.

5. أهميّة أنّ القلب أمير البدن، وأنّه منشأ جميع الأعمال في الحقيقة وكل الأعمال التي تصدر من الأعضاء والجوارح، إنّما تكون بإمرة القلب.

6. قلب الإنسان بحسب الفطرة التي فطر عليها لا يمكن أن يتعلّق بالنقص وبالكمال المحدود والفاني، فهو لا يريد ولا يطلب سوى الكمال المطلق اللامتناهي.

7. أرسل الله تعالى الأنبياء إلى النّاس، ليس لأجل وضع الفطرة فيهم أو إنشائها في بواطنهم، بل من أجل هدايتهم إلى ما تصبو إليه هذه الفطرة الكامنة فيهم.

8. أهل البيت عليهم السلام هم المظهر الأتم للكمال والمصداق الواقعي للمحبة الحقيقيّة وإليهم تهفو القلوب الصادقة والنفوس الطاهرة.



أسئلة الدرس

1. ما هو الدور الحقيقي للحب في حياة الإنسان؟
2. من ينبغي أن يحب الإنسان واقعاً؟ ولماذا؟
3. تحدّث عن المراحل الأربعة لعملية صدور الفعل عن الإنسان في الخارج.



إكسير الحبّ [1]

من أهم ميّزات الشيعة على سائر المذاهب الأخرى أنّ أساس مذهبهم المحبة. فمنذ عهد النبيّ الذي وضع فيه حجر الأساس لهذا المذهب، كان الكلام يدور على المحبة والموالاة، حتى أننا إذ نسمع النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**علي وشيعته الفائزون يوم القيامة**»[2] نجد جمعاً من الناس قد تحلّقوا حول علي وقد جذبهم إليه واستغرقهم حباً. ولهذا نرى التشيّع مذهب الحبّ والوله. إنّ لعنصر المحبة في التشيّع أهميّة كبيرة، وتاريخ التشيّع يقترن بأسماء مجموعة من العشاق والمضحّين المولهين في الحبّ.

عليّ هو ذلك الذي، وإن كان يقيم الحدود الإلهيّة على الناس ويجلدهم ويقطع يد سارقهم بموجب الشرع، فإنّهم لم يعرضوا عنه كشحاً، ولم تنقص محبتهم له أبداً. وهو في هذا يقول:

«**لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنّه قضي فانقضى على لسان النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «يا علي فإنه لا يبغضك مؤمنٌ، ولا يحبك منافق»**»[3].

إنّ عليّاً ميزانٌ توزن به الفطرة والطينة. فمن كان ذا فطرة سليمة وطينة طاهرة لا يبغضه حتى لو ضرب خيشومه. ومن كان ذا فطرة ملوّثة لا يحبه حتى لو أحسن إليه كل الإحسان، لأنّ عليّاً ليس سوى الحق متجسداً.

إنّه الحبّ الذي يحيل البخيل كريماً، والعجول صبوراً!

(1) الشهيد مطهري، علي في قوتيه الدافعة والجاذبة.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج39، ص 268.

(3) م. ن، ص292.

إنّه الحبّ الذي يجعل من الدجاجة الأنانيّة التي لم تكن تفكّر إلَّا في نفسها، وتلتقط الحبّ لحياتها، حيواناً جواداً فإذا وجدت حبةً نادت فراخها. وإنه الحبّ الذي يجعل من الأم التي كانت بالأمس القريب أنانيَة، مغرورة، كسولة تستعجل الأمور، ثائرة الأعصاب، ضعيفة الصبر، قليلة التحمّل، إمرأةً عجيبةً في صبرها وتحمّلها ورضاها بالجوع والعطش والتعب وقلّة النوم وانعدام الأناقة وتحمّل مشاقّ الأمومة. إنّ من آثار الحبّ الرقّة واللطف وتجنّب الخشونة والفظاظة، ومن آثاره تلطيف العواطف والأحاسيس، وكذلك التوحيد والتوحّد والتركيز، والقضاء على التشتت والتفرّق، وبلوغ القوة الحاصلة من الاتّحاد والتجمع.

الحبّ يوصل النفس إلى كمالها ويظهر المواهب الكامنة المحيّرة. إنّه يلهم القوى المدركة، ويقوّي مشاعر الإرادة والعزيمة. وإذا ما تسامى في العلى صنع الكرامات وخوارق العادات.

إنّه يطهّر الروح من الأخلاط والشوائب. فالحبّ، بعبارة أخرى، يصفّي. إنّه يمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية أو من البرود وانعدام الحرارة، كالبخل، والتقتير، والجبن، والكسل، والتكبر والعجب. إنه يزيل الحقد والحسد، وإن قيل إنّ الحرمان والإخفاق في الحبّ يمكن أن يخلقا بدورهما الحقد والعقد.

أثر الحبّ على الروح إعمارٌ وبناء، وعلى الجسم تذويبٌ وتخريب. إنّ أثره في الجسم عكس تأثيره في الروح، فهو في الجسم باعثٌ على خرابه واصفراره ونحوله وسقمه واختلال هامته وأعصابه، وغير ذلك من صور الهدم والتخريب.. ولكنّه في الروح ليس كذلك، بحسب موضوع الحبّ، وما يريده المحب منه. فإذا تجاوزنا آثار الحبّ الاجتماعيّة، فإنّه من حيث آثاره الروحية الفردية تكميليّ، لأنه يولد القوة والرقة والصفاء والاتّحاد والهمّة، ويقضي على الضعف والجبن والكراهيّة والتفرّق والبلادة، وينقّي الروح والشوائب التي هي «**الدسّ**» بتعبير القرآن، ويزيل الغشّ ويجعل العيار خالصاً.

الشهيد مرتضى مطهري



الدرس الواحد والعشرون

كيف نحصّل المحبة الحقيقية لأهل البيت عليهم السلام



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يبيّن أنّ محبّة أهل البيت عليهم السلام هي السبيل الوحيد إلى الله عزّ وجلّ.

2-يتعرّف إلى الآثار النورانيّة لمحبّة أهل البيت عليهم السلام في الدنيا والآخرة.

3-يذكر أهم علامات المحبّ الحقيقي، وكيفيّة الفوز بهذه المحبّة.

محبة أهل البيت هي السبيل إلى الله

إذا تأمّلنا في حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم مع أقوامهم نجدهم يعرضون أثمن ما عندهم وهو الهداية إلى الله بدون طلب الأجر والمقابل، لأنّ أجرهم كان على الله تعالى دوماً. فكلّ واحد منهم كان إذا سُئل يقول: يا قومي لا أسألكم على ما أقوم به من أجر إن أجري إلاّ على الله ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (1).

لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امتاز عن جميع الأنبياء والرسل بطلبه الأجر على الرسالة والدعوة الكبرى التي ضحّى في سبيلها بكل غالٍ ونفيس، وحصر هذا الأجر في أمر واحد هو المودّة والمحبّة لأهل بيته صلوت الله عليهم أجمعين، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (2) ولكي لا يتصوّر أن هذا الأجر يعود بالنفع على رسول الله شخصياً، عاد النبي مجدداً ليبيّن لقومه أن ما سيقدمونه سيعود على أنفسهم بالفائدة: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (3)، ولبيان النفع يقول ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ (4).

---

(1) سورة سبأ، الآية: 47.
(2) سورة الشورى، الآية: 23.
(3) سورة سبأ، الآية: 47.
(4) سورة الفرقان، الآية: 57.

إذاً، تُصرّح الآية بما لا لبس فيه ولا شكّ أن السبيل إلى الله وطريق الوصول إليه، إنّما يمرّ من خلال مودّة أهل البيت ومحبتهم، فهي السبيل للوصول إلى الغاية النهائيّة للإنسان. فالصلاة والصيام والجهاد والحج والزكاة وجميع الفرائض الإلهية لن تكتسب روحها التي بها يحصل القرب، وبها تصبغ بالقبول إلّا بهذه المودّة. فلا عجب إذاً أن يكون الأجر على الرسالة الخاتمة محبة أهل البيت عليهم السلام لأنّ هذه المحبة ستكون سبباً لحفظ الرسالة وبقائها حيّة بين الناس.

آثار التمسّك بأهل البيت ومحبتهم

قال الله عزّ وجل في محكم كتابه: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[2]. إنّ الدخول إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو دخول في الإسلام الأصيل لا يحصل واقعاً بدون الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأهل البيت عليهم السلام، لأنّ حبّ أهل البيت عليهم السلام له وجهان في الإسلام:

الوجه الأوّل: يطلّ على العقيدة فيصحّحها. وهو ما يظهر في مثل هذا الحديث الشريف المرويّ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا عليّ لولاك أنت لم يُعرف المؤمنون من بعدي**»[3]، والحديث المعروف بشأن علي عليه السلام: «**حبك إيمان، وبغضك نفاق وكفر**»[4].

الوجه الثاني: يطلّ على الأعمال، فيأخذها إلى وجهتها المطلوبة وموقعها الصحيح. وإلى هذا المعنى أشار حديث الإمام الصادق عليه السلام عن محمد بن الفضيل قال: «**سألته عن أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله (عزّ وجلّ) فقال: طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر، ثمّ قال: حبنا إيمان، وبغضنا كفر**»[5].

(1) سورة البقرة، الآية: 189.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج27، ص34.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج37، ص272.
(4) م. ن، ج39، ص42.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص187.

فالإيمــان باللّه تعالــى أمرٌ قد يدّعيــه أيّ إنسان. ولكنّ الإيمــان الواقعي هو الذي يتجلّــى في الدنيــا بصورة حب الإنســان الكامل، لأنّه مظهر الارتبــاط الواقعي باللّه تعالــى. والعمــل الصالح وأداء الفرائـض أمر قد يقوم به أي إنســان. ولكن الصلاح الحقيقــي والعبــادة الواقعيّــة تتجلى في الدنيا بصــورة ولاية الإنســان الكامل. وأهل البيت عليهم السلام هم مظهر الإنسان الكامل على الأرض.

فعــن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قــال: «**ألا ومن أحبّ عليّاً، فقــد أحبّني. ومن أحبّني فقد رضــي الله عنه. ومن رضــي الله عنه كافاه الجنّة. ألا ومن أحبّ عليّاً لا يخرج مــن الدنيا حتّى يشــرب من الكوثر، ويأكل من طوبى، ويــرى مكانه في الجنّة. ألا ومــن أحــبّ عليّــاً فُتحــت له أبــواب الجنّــة الثمانية، يدخلها مــن أيّ باب شــاء بغير حســاب. ألا ومــن أحــبّ عليّاً أعطاه الله كتابه بيمينه وحاســبه حســاب الأنبياء. ألا ومن أحبّ عليّاً هوّن الله عليه سكرات الموت وجعل قبره روضة من رياض الجنّة. ألا ومــن أحــبّ عليّــاً أعطــاه الله بكل عــرق في بدنه حوراء، وشُــفّع فــي ثمانين من أهله. ألا ومن مات على حبّ آل محمّد فأنا كفيله بالجنّة مع الأنبياء. ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنّة**»[1].

إنّ قضيّــة حبّ أهل البيت عليهم السلام ودوره في إيصــال الإنسان إلى لقاء الله والجنّة وغفــران الذنوب، لم ترد في بضعة أحاديث متناثرة مقطوعة أو مجهولة السند. فإنّ ما روي عن الفريقين يصل إلى حد التواتر. وقد يتساءل البعض متعجّبين عن سرّ هذا الأمــر، إذ كيف يكون مجرد حب شخص أو مجموعــة أشخاص سبباً لهذه الكرامات والكمــالات العظيمة؟! ولكن مــن أدرك دور المحبة وتأثيرها على حياة الإنسان وعلى توجّهاته في الحياة الدنيا، اطّلع على حقيقة الأمر وانكشف له السر.

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج7، ص221.

كيفية تحصيل محبة أهل البيت

إنّ طريق تحصيل محبة أهل البيت عليهم السلام ذو شقّين: علميّ وعمليّ.

أما الأوّل: فيكون من خلال معرفتهم ودراسة علومهم وتتبّع آثارهم. ولا شكّ بأننا منذ البداية معترفون بالعجز عن الإحاطة بمقامهم. فهم معدن الفضل، وكنوز الرحمن، وأصول الكرم، وباب اللّه الذي منه يؤتى. وأفضل النصوص الشريفة التي تحدّثت عن صفاتهم «**الزيارة الجامعة**»[1]، وإنّ المواظبة على قراءتها والتأمّل في معانيها يفي بالغرض إلى حدّ كبير، لما تضمّنته هذه الزيارة من الحقائق والأسرار ما لم تذكره المطوّلات من الكتب والمخطوطات.

أما الثاني: فهو العمل من خلال اتّباعهم واتّباع أوامرهم والتحرّك وفق خطتهم العامّة للبشريّة، والتأسّي بهم. قال اللّه تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] فالحبّ الحقيقي لا يحفظ إلّا من خلال التقوى والطاعة. فالحبّ يدعو إلى الطاعة والطاعة تزيده قوةً في القلب. وإذا لم يستجب البدن لدعوة الحبّ، سيرتحل من القلب عمّا قريب. من هنا فإنَ الدعوة إلى التقوى والورع لأمرين أساسيين:

الأوّل: للحفاظ على الحبّ الموجود.

الثاني: لتهيئة الأرضية لتحصيل هذا الحبّ إن لم يكن موجوداً:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه	هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إنّ المحبّ لمن يحب مطيع[4]



(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 7، ص 221.
(2) سورة آل عمران، الآية: 31.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 47، ص 42.

عـن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**لـن تنالوا ولايتنا إلّا بالـورع، ولن تنالوا ما عنـد الله تعالـى إلّا بالعمل، وإنّ أشـدّ الناس حسـرةً يوم القيامة لمن وصـف عدلاً وخالفه إلى غيره**»[1].

وعنــه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «**يا جابر: لا تذهب بك المذاهب، حسـب الرجل أن يقـول أحـبّ علياً وأتولاه ثمّ لا يكون مع ذلك فعّالاً! فلو قال إنّي أحبّ رسـول الله، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيرٌ من عليّ عليه السلام ثمّ لا يتّبع سيرته، ولا يعمل بسنّته، ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً**»[2].

وعنــه صلى الله عليه وآله وسلم فــي حديث آخر يقول: «**يا جابـر أيكتفي من ينتحل التشـيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله وأطاعه.. إلى أن قال: فاتّقوا الله واعملـوا لمـا عنـد الله، ليس بيـن الله ولا بين أحد قرابة، أحـبّ العباد إلى الله تعالـى وأكرمهـم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابـر: والله ما نتقرّب إلى الله تعالـى إلّا بالطاعـة، ما معنا براءة من النّـار، ولا على الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعـاً فهـو لنـا ولـيّ، ومن كان لله عاصـياً فهو لنا عـدوّ، وما تنـال ولايتنا إلّا بالعمل والورع**»[3].

كمــا وإنّ أشرف الأعمال وأقواها تأثيــراً في النفس على صعيد الحبّ أيضاً طاعة وليّهــم عليه السلام واتّباعه. كما فــي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لبعض أصحابه ذات يــوم: «**يـا عبد الله: أحبب في الله وأبغض في الله، ووال في الله وعاد في الله. فإنّـه لا تنـال ولايـة الله إلّا بذلـك. ولا يجد رجلٌ طعم الإيمان، وإن كثرت صـلاته وصـيامه، حتى يكون كذلك. وقد صـارت مؤاخاة الناس في يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادّون، وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً. فقال**

(1) م.س، ج68، ص187.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص74.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج15، ص234.

له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عزّ وجل؟ ومن وليّ الله عزّ وجلّ حتى أواليه؟ ومن عدوه حتى أعاديه؟ فأشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **إلى علي** عليه السلام **وقال: أترى هذا؟ قال: بلى.. قال** عليه السلام: «**وليّ هذا وليّ الله فواله، وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده.. والِ وليّ هذا ولو أنّه قاتل أبيك وولدك. وعادِ عدو هذا ولو أنّه أبوك أو ولدك**»[1].

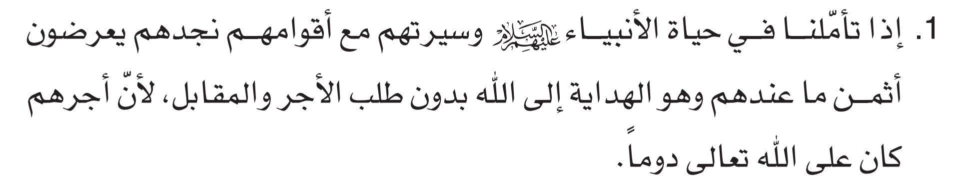
وفي حديثٍ آخر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «**يا حبيش، من سرّه أن يعلم أمحب لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحبّ ولياً لنا فليس بمبغض لنا. وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحبّ لنا، إنّ الله تعالى أخذ الميثاق لمحبينا بمودتنا، وكتب في الذكر اسم مبغضنا.. نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء**»[2]. فأهل البيت عليهم السلام وإن غابوا، فإن أولياءهم موجودون بيننا، وقد قامت حجّتهم. فهذا الإمام القائد الخامنئي حجة الله على المسلمين حامل راية الولاية. وهذا هو السيّد حسن في لبنان رافع لواء الجهاد والمقاومة. وهؤلاء هم المجاهدون المضحّون الذين سلكوا طريق الشهادة.

ومن الأعمال الصالحة والشريفة أيضاً، الدعاء بالفرج لقائمهم عجل الله فرجه الشريف والمواظبة على زيارتهم والتوسّل بهم، فممّا لا شك فيه أنّ له أثراً بالغاً في تأجيج المحبة في القلب.



(1) م. س، ج16، ص178.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج27، ص53.



المفاهيم الرئيسة

1. إذا تأمّلنا في حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم مع أقوامهم نجدهم يعرضون أثمن ما عندهم وهو الهداية إلى اللّه بدون طلب الأجر والمقابل، لأنّ أجرهم كان على اللّه تعالى دوماً.
2. رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم امتاز عن جميع الأنبياء بطلبه الأجر على الرسالة، وحصر هذا الأجر في أمرٍ واحدٍ هو المودّة والمحبّة لأهل بيته صلوت اللّه عليهم أجمعين.
3. التمسّك بأهل بيت العصمة والطهارة تكليفٌ إلهي، وباب الارتباط الحقيقي بالحقّ تعالى.
4. المحبة لها تأثيرٌ كبيرٌ على عقيدة الإنسان وسلوكه وتلعب دوراً أساسياً في تحديد مصيره في الآخرة.
5. التمسّك بأهل البيت يعني محبتهم، والمحبة تقضي العمل والالتزام بإرادة المحبوب.
6. إنّ طريق تحصيل محبة أهل البيت عليهم السلام ذو شقين: علميّ وعمليّ.
7. الشق العلميّ يكون من خلال معرفتهم ودراسة علومهم وتتبّع آثارهم.
8. الشق العمليّ من خلال اتّباعهم واتّباع أوامرهم والتحرّك وفق خطتهم العامّة للبشريّة، والتأسّي بهم.



أسئلة الدرس

1. ما هي أهم علامات الحبّ الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام؟
2. ما هي آثار محبة أهل البيت عليهم السلام على عقيدة الإنسان وعمله؟
3. اذكر شاهداً قرآنياً يدلّ على أنّ ولاية أهل البيت من أوجب الواجبات الإلهيّة.



ولاية أهل البيت شرط في قبول الأعمال [1]

عن الكافي: بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه، وباب الأشياء ورضى الرّحمن، الطّاعة للإمام بعد معرفته... أمّا لو أنّ رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدّق بجميع ماله، وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولايَة وليِّ الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله حقٌّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان**»[2].

وبإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال:«**من لم يأت الله عزّ وجلّ يوم القيامة بما أنتم عليه، لم يُتقبّل منه حسنةٌ، ولم يتجاوز له سيِّئةٌ**»[3].

وبإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: «**والله لو أنّ إبليس. لعنه الله. سجد لله بعد المعصية والتكبُر عمر الدّنيا ما نفعه ذلك، ولا قبله الله ما لم يسجد لآدم كما أمره الله عزّ وجلّ أن يسجد له، وكذلك هذه الأمّة العاصية المفتونة بعد تركهم الإمام الّذي نصبه نبيهم لهم، فلن يقبل الله لهم عملاً، ولن يرفع لهم حسنةً حتى يأتوا الله من حيث أمرهم، ويتولّوا الإمام الّذي أمرهم الله بولايته، ويدخلوا من الباب الذي فتحه الله ورسوله لهم**»[4].

والأخبار في هذا الموضوع وبهذا المضمون كثيرة، ويستفاد من مجموعها أنّ ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في قبول الأعمال عند الله سبحانه، بل هو شرط في قبول الإيمان بالله والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ولا يستفاد كونها شرطاً في صحة الأعمال كما يقول

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث الثالث والثلاثون،فصل في بيان أنّ ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط لقبول الأعمال، ص 141 - 341.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، المجلد 2، ص 18.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 1، ص 119.

(4) م. ن، ج1، ص 119.

بذلـك بعض الأعلام، بل الظاهر أنّها ليست بشرط فـي صحة الأعمال، كما يستفاد ذلك من الروايات الكثيرة مثل الرواية المذكورة في باب عدم وجوب قضاء المخالف عبادتـه إذا استبصـر، عن أبي عبـد الله عليه السلام قال: «**كلُّ عمل عملـه وهو في حال نُصْبِه وضـلالته، ثمّ مَنَّ الله عليه وعرّفه الولاية فإنّه يُؤجَر عليه إلّا الزّكاة فإنّه يعيدها، لأنَّه وضـعها في غير موضـعها، لأنّها لأهلِ الولاية، وأمّا الصَّلاة والحجّ والصّيام فليس عليه قضاء**»[1].

وفي رواية أخرى عن محمد بن حكيم قال: «**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذْ دخل عليـه كوفيّـان كانـا زيديّين، فقالا إنـا كنّا نقول بقول، وإنّ الله مـنّ علينا بولايتك، فهل يُقبل شـيء من أعمالنا؟ فقال عليه السلام : «أمّا الصَّلاة والصَّـوم والصَّـدقة، فإنّ الله يتبعكمـا ذلـك ويلحـق بكمـا، وأمّا الـزَّكاة فلا لأنَّكمـا أبعدتما حقّ امرءٍ مسـلم وأعطيتماه غيره**»[2].

ذكر القائل وفـي بعض الروايات: «**تعرض أعمال النّاس في كلّ يوم خميس على رسـول صلى الله عليه وآله وسلم، فيؤجـل النظـر فيهـا حتّى يـوم عرفة، وفي ذلـك اليوم يلقي صـلوات الله وسـلامه عليه نظره عليه ويجعل أعماله هباءاً منثوراً. قيل أعمال أيّ شـخص تتحول كذلك؟ قال صـلوات الله عليه أعمال مبغضينا ومبغضي شيعتنا**»[3]. وهذه الروايــة تدلّ على أن الولايـة شرط في صحة الأعمال كما هـو واضح. وعلى أي حال يكون هذا البحث خرجاً عن مسؤوليتنا والحمد لله أوّلاً وآخراً.

الإمام الخميني قدس سره

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج1، ص 125.
(2) م. ن، ج 1، ص 127.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 23، ص 345.





الدرس الثاني والعشرون

ذكر الله الأكبر



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يتعرّف إلى معنى وحقيقة الصلاة.

2-يبيّن موقعية الصلاة ودورها في سير الإنسان وتكامله المعنوي.

3-يبيّن أنّ للصلاة آداباً ظاهرية وباطنيةً بمراعاتها يتحقّق الهدف من تشريعها.

الأمر الإلهيّ بالاستعانة بالصلاة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]. إنّ طلب العون والمساعدة، إنّما يكون فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمّات والنوازل، وحيث إنّه لا معين في الحقيقة، ولا ناصر إلا الله سبحانه وتعالى فإن الإنسان المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، يتوجّه إليه ويدعوه ليكشف له كربته ويقضي له حاجته، فالملك له، وهو على كلّ شيء قدير ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

والعون على المهمّات والنوازل التي يمكن أن تنزل على الناس يكون من خلال أمرين كما ذكرت الآية الشريفة؛ الأول من خلال مقاومة الإنسان لهذه النوازل والصعاب بالثّبات والاستقامة، وثانياً من خلال الاتّصال بالله عزّ وجلّ، والإقبال عليه بواسطة الصلاة. فالإقبال على الله والالتجاء إليه يوقظ روح الإيمان، وينبّه الإنسان إلى حقيقته التي هي عين الفقر والتعلّق بالله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3]، ومحض الضعف والعجز، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ

(1) سورة البقرة، الآيتان: 45 – 46.
(2) سورة الملك، الآية: 1.
(3) سورة فاطر، الآية: 15.

﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾[1]. فلا يستغني ولا يتكبّر بل يتوجّه إليه عزّ وجلّ خاشعاً ذليلاً معترفاً بعجـزه ومسكنته وتقصيره، فيدعوه مخلصاً له الديـن كي يقضي له حوائجه، ويفكّ عنه ضيقه، وينجيه ممّا هو فيه.

والصـلاة هي أشرف وأعـزّ وسيلة لربط الإنسان بالخالق جـلّ وعلا، فهي تربط الإنسان بالقدرة اللامتناهية التي لا يقهرها شيء. وهذا الإحساس يبعث في الإنسان القوّة على تحدّي المشاكل والصعاب.

فالتوجّه إلى الصلاة والتضرّع إلى اللّه سبحانه يمنح الإنسان طاقة جديدة تجعله قادراً على مواجهة التحدّيات. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدّنيا أن يتوضّأ ثمّ يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو اللّه فيهما؟ أما سمعت اللّه تعالى يقول:** ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾[2]. وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**كان عليّ عليه السلام إذا هاله أمر فزع إلى الصّلاة، ثمّ تلا هذه الآية: واستعينوا بالصّبر والصّلاة**»[3]. فالصلاة إذاً هي الرابطة الوثيقة بين الخالق والمخلوق، وهي الباعث على اطمئنان القلوب المضطربة والمتعبة ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[4]، وأساس لصفاء الباطن وتنوّر الروح. فكيف لا يشعر بالقوّة والصفاء من كان في محضر الحق تعالى جالساً بين يديه يناجيه، ويكلّمه ويستمدّ من فيضه المطلق ومواهبه السنيّة؟

والاستعانة بالصلاة ليست بالأمر السهل، بل لا يقوى عليها إلّا عباده الخاشعون، الذين آمنوا بلقاء اللّه والرجوع إليه كما بيّن عزّ وجلّ في آخر الآية المباركة. فالخاشع هو الإنسان الذّليل في صلاته المقبل عليها بقلبه والمتوجّه بصدق وإخلاص إلى ربه.

(1) سورة الروم، الآية: 54.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج8، ص138.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص480.
(4) سورة الرعد، الآية: 28.

والخشـوع حالة تنشأ في النفس عندما يبدأ الإنسـان بالخروج من أنانيّته وشيطنته، وكلمـا ازداد خروجه من أنانيّته ازداد انقياداً لربّـه، وكلما ازدادت جهة الانقياد إلى الله ازداد استشعـاره بعظمة الله والتـذاذه بوصاله وتألّمه من فراقه، وبالتالي يزداد خشوعـاً فـي صلاته حتى تصبح صلاته قـرّة عينه، وتغدو راحتـه فيها كما روي عن النبـيّ ﷺ أنّـه قال: «**جُعلَ قرّةُ عيني في الصّـلاة**»[1] وكان يقول عندما يحين وقت الصلاة « **أرِحْنَا يا بلال**»[2].

حقيقة الصلاة

الصـلاة هـي رابطـة الاستفاضـة الدائمة مـن الله تبـارك وتعالى منبـع ومبدأ كلّ الخيـرات، وهـي أفضـل ما يتقرّب بـه العبد إلى الله عـزّ وجلّ، كما قـال إمامنا الصـادق عليه السلام: «**مـا أعلم شيئا بعـد المعرفة أفضل من هذه الصـلاة، ألا ترى أن العبـد الصـالح عيسـى ابن مريـم عليه السلام قـال: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾**[3]. **وهـي براق السـير ومرقـاة عروج الرّوح إلى الله سبحانه وتعالى، كما في الحديث المشـهور عن رسـول الله ﷺ أنه قال: «الصلاة معراج المؤمن»**[4]. وهي عمـود الديـن كما روي عـن رسول الله ﷺ: «**الصـلاة عمـود الديـن**»[5]، وهي باب الرحمـة الواسعـة التي يظلّل الله تعالى بها عبده من فـوق رأسه إلى أفق السماء وهو قائم يصلّي بين يديه، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إذا قام المصلّي إلى الصلاة نزلت عليه الرحمة من أعنان السماء إلى أعنان الأرض، وحفّت به الملائكة، وناداه**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 5، ص 321.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج79، ص193.

(3) م.س، ج3، ص264.

(4) الشيـخ الشاهـرودي، النمـازي، مستدرك سفينة البحار، ج 6، ص 317، تحقيـق وتصحيح نجله الشيخ حسن بن النمازي الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، 1419ه، باب فضل الصلاة.

(5) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج7، ص 162.

ملك لو يعلم هذا المصلّي ما في الصلاة ما انفتل»[1].

ولكلّ إنسان صلاته المختصّة به، وله حظٌّ ونصيبٌ منها بحسب مقامه عند الله، ودرجة إيمانه وقربه منه عزّ وجل. فليس كلّ من أتى بهذه الفريضة الإلهية مع ما خصّت به من المنزلة الرفيعة والفضل، عرجت روحه نحو الله عزّ وجلّ، واستحقّ فيضه المطلق ورحمته الواسعة، لأنّ للصلاة آداباً وشروطاً ينبغي مراعاتها والالتزام بها حتّى تصبح معراجاً للروح الوالهة الباحثة عن الكمال والسعادة، والتائقة إلى لقاء ربّها. فعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنّ الرجلين من أمّتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحدٌ، وإنّ ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض**»[2].

سرّ التفاوت في الصلاة

في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إنّ الرجلين من أمتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما واحدٌ، وإنّ ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض**»[3].

إنّ منشأ هذا التفاوت في الصلاة هو مراعاة آداب الصلاة وشروطها وعدمه. فللصلاة أحكامٌ وآدابٌ ظاهرية هي صورة الصلاة؛ من الطهارة، والقراءة، والقيام، والركوع، والسجود، والتشهّد، بمراعاتها يكون المكلّف قد أدّى ما افترضه الله عليه، فلا يعذّب على تركه للصلاة ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[4]. كما وأنّ لهذه الفريضة أيضاً آداباً وشروطاً باطنية بمراعاتها يصل الإنسان إلى كمال الصلاة، فتصبح بحقّ معراج روحه، وعمود دينه، وأفضل ما يتقرّب به إلى

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص264.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص98.
(3) م. ن، ج4، ص98.
(4) سورة المدّثر، الآيتان: 42 - 43.

ربّـه كمــا يقول إمامنا الخمينـــي: «**إعلم أنّ للصــلاة غير هذه الصــورة لمعنى، ولها دون هــذا الظاهــر باطنــاً، وكمــا أنّ لظاهرهــا آداباً يـؤدي عدم رعايتهـا إلى بطلان الصــلاة الصــوريّة (الظاهرية) أو نقصــانها، فإنّ لباطنها آداباً قلبية باطنية يلزم مــن عــدم رعايتهــا بطلان أو نقص الصــلاة المعنويّة، كما أنّـه برعاية تلك الآداب تكون الصلاة ذات روح ملكوتي**»[1].

ونحن من خلال التدبّر في هذه الأحاديث الشريفة والتأمّل في حال الأئمة الأطهار الذيــن كان يتغيّر لون أحدهــم عندما يحين وقت أداء الصـــلاة، وترتعد فرائصهم، ويغشـــى عليهم، ويذهلون عن كل ما سوى اللّه بصــورة كاملة، نفهم أنّ لهذه الصلاة حقيقــة وبعداً أخر غير البعد الظاهري. فعن الإمــام الصادق عليه السلام: «**كان علي بن الحسـين عليه السلام إذا قـام إلـى الصـلاة تغيّـر لونـه، فإذا سـجد لم يرفع رأسـه حتّى يرفض عرقاً**»[2]. وفي عدّة الداعي روي: «**أنّ إبراهيم عليه السلام كان يُسمع تأوّهه على حدّ ميـل حتى مدحه الله بقوله: إنّ إبراهيم لحليم أوّاه، وكان في صـلاته يسـمع له أزيز كأزيز المرجل، وكذلك يسـمع من صـدر سـيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك، وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله**»[3].

فمــن خلال التأمّل فــي حال الأولياء الكمّــل صلوات اللّه وسلامــه عليهم نستنتج أنّ هــذه الصـــورة الدنيويّة والهيئة الظاهريّـــة للصلاة من قيام وركــوع وسجود و... ليســت هي حقيقة هذه العبـــادة الإلهية، حيث يمكن لأيّ إنسان أن يؤدّيها وفق شروط صحّتهــا وكمالها الظاهري. فلا معنى عندها لذلك المقدار من تغيّر الألوان وارتعاد الفرائــص والخــوف والخشية مــن القصور والتقصيــر. ولا هي وصفــة العلاج التي تنهـــى الإنسان عن الفحشاء والمنكر، كما قـــال عزّ وجلّ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، المقدمة، ص16.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص300.
(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص100.

﴿ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]، لأننا نجد أنّ هناك من يأتي بهذه الفريضة الإلهية، ومع ذلك لا نراه يتورّع عن الفحشاء وفعل المنكر!!

بل للصلاة حدود وآداب باطنيّة ومعنويّة بمراعاتها يفوز الإنسان ويكون من المفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[2]، فالآية تربط بشكل صريح وواضح بين الفلاح وخشوع الإنسان في صلاته. والخشوع من آداب الصلاة وشروطها المعنويّة. سأل أحد الأشقياء الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الصلاة وحدودها فقال له: «**للصلاة أربعة آلاف حدّ لست تفي بواحد منها**»[3]، فلو كانت الحدود الأربعة آلاف هي من الحدود الظاهريّة للصلاة لما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ «**لست تفي بواحد منها**» لأنّه من الواضح أنّ بإمكان كلّ شخص أن يأتي بالآداب والأفعال والحركات الظاهريّة للصلاة.

إذاً للصلاة آدابٌ وشروطٌ ينبغي مراعاتها والالتزام بها حتى تصبح معراجاً للروح الوالهة الباحثة عن الكمال والسعادة، والتائقة إلى لقاء ربها.



(1) سورة العنكبوت، الآية: 45.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان: 1 – 2.
(3) السيد ابن طاووس، فلاح السائل، ص 23.



المفاهيم الرئيسة

1. اللّه عــزّ وجــلّ يأمر عبــاده بالاستعانــة بالصــلاة، ويصفها بأنها مــن الأمور الصعبة والثقيلة التي لا يقدر عليها إلّا عباده الخاشعون.
2. الصلاة هي ذكر اللّه الأكبر، وهي رابطة الاستفاضة بين اللّه تعالى والعبد.
3. سرّ التفاوت بين المصلّين مرجعه إلى تفاوتهم في مراعاة أحكام الصلاة.
4. للصــلاة أحكامٌ ظاهرية تُسقـط مراعاتها الواجب عن المكلّـف، ولها أحكام باطنيّة تؤدي مراعاتها إلى عروج روح المصلّي نحو بارئها.
5. الاستعانة الحقيقية بالصلاة تكون بمراعاة آدابها وشروطها، وهي تنقسم إلى قسمين: ظاهرية وباطنية.



أسئلة الدرس

1. لماذا عدّت الصلاة في الإسلام عمود الدين؟
2. كيف تستدلّ على أنّ للصلاة ظاهراً وباطناً في الإسلام؟
3. ما هو السبب الأساسي لتفاوت المصلين فيما بينهم في صلاتهم؟



أفضل العبادة[1]

إنّ للصلاة إجمالاً مقامات ومراتب، بحيث يكون لصلاة المصلّي في كلّ مرتبة فرق كبير عن المرتبة الأخرى، مثلما أنّ لمقامه (فيها) فرقاً كبيراً عن المقامات الأخرى. فما دام الإنسان على صورة الإنسان، أي أنّه إنسان بالصورة (بالشكل) فصلاته أيضاً تكون صورة الصلاة وصلاة شكليّة. وفائدة هذه الصلاة تنحصر في صحّتها الفقهية وكونها مجزية صوريّاً وفقهياً. هذا إذا أقامها بجميع أجزائها وشروط صحّتها (الفقهية)، ولكنها غير مقبولة ولا مرضيّة عند الله. أمّا إذا انتقل الإنسان من مرتبة الظاهر إلى الباطن ومن الصورة (الشكل) إلى المعنى، اكتسبت صلاته من الحقيقة عندئذ مقدار المرتبة التي تحقّق فيها، بل إنّ الحال ينعكس (في علاقة التأثير) بناء على ما تقدّمت الإشارة إليه من أنّ الصلاة هي مركب السلوك وبراق السير إلى الله، فما دامت صلاة الإنسان هي صورة الصلاة، ولم يتحقّق الإنسان في مرتبتها الباطنية وسرّها، فالإنسان أيضاً هو (هنا) صورة إنسان ولم يتحقّق بحقيقته.

إذاً، فالميزان في كمال الإنسانية وحقيقتها هو العروج بالمعراج الحقيقيّ والصعود إلى أوج الكمال، والوصول إلى باب الله بمرقاة الصلاة.

لذا يلزم على المؤمن بالحقّ والحقيقة والسالك إلى الله بقدم المعرفة أن يعدّ نفسه لهذا السفر المعنويّ والمعراج الإيماني، ويصحب معه ما يلزم من العدَّة والعُدَّة والمؤونة والمعونة؛ ويبعد عن نفسه موانع السير والسفر وعقباتهما، وأن يطوي هذا الطريق مع الجنود الربانيّين والمصاحب والموافق لكي يظلّ مصوناً محفوظاً من

(1) الشيخ جوادي آملي، أسرار الصلاة، ص50.

الشيطان وجنوده قطّاع طريق الوصول.

وحصيلة مرادنا هو أنّ للصلاة ولجميع العبادات باطناً ولبّاً وحقيقة غير هذه الصورة والظاهر والمجاز، وهذا ثابت عن طريق العقل، وهناك شواهد نقليّة كثيرة عليه لا يسع المجال في هذه الأوراق لذكرها جميعاً، وهنا نتبرّك بذكر بعضها:

فمنها الحديث المشهور «**الصلاة معراج المؤمن**» وتتفتّح - من التفكّر والتدبّر في هذا الحديث الشريف - أبواب لأهله نحن محجوبون ومحرومون من أكثرها. وجميع البيانات المتقدّمة تستفاد من هذا الحديث الشريف.

ومنها الحديث الشريف المرويّ في الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله حباً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة**»[1].

الشيخ جوادي الآملي



(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص84.



الدرس الثالث والعشرون

آداب الصلاة المعنوية



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يستدلّ على أنّ حضور القلب في الصلاة شرط أساسي لقبولها وتحقّق الهدف من تشريعها.

2-يبيّن السبيل إلى تحصيل حضور القلب في الصلاة.

3-يبيّن أن تعليم المصلّي وتفهيم قلبه لمعاني الآيات والأذكار التي يتلوها في صلاته من أهمّ آداب الصلاة المعنوية.

للصلاة كما ذكرنا آداباً ظاهرية وأخرى معنوية، تعرّضنا إلى بعض الآداب الظاهرية للصلاة في الدرس السابق، وفي هذا الدرس سوف نشير إلى نبذة من آدابها المعنوية وهي:

التوجّه إلى عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة

من الآداب القلبيّة في العبادات بشكل عامّ والصلاة بشكل خاصّ التوجّه إلى «**عزّ الربوبية وذلّ العبودية**». بمعنى أن يكون فقر الإنسان وضعفه وعجزه ماثلاً دائماً بين عينيه وهو في محراب الطاعة والعبادة للّه عزّ وجلّ. وفي المقابل نظره على الدوام شاخص نحو غنى الحق تعالى وعظمته.

فمن الآداب الأساسية والمهمة جداً في الصلاة، أن يستحضر المصلّي دائماً وهو واقفٌ بين يدي اللّه ذلّه وعبوديته وفقره وضعفه، وغنى الحقّ وكماله وعزّته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [1]. لأنّ العبودية المطلقة للّه سبحانه وتعالى هي من أعلى مراتب الكمال وأرفع مقامات الإنسانيّة، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [2].

(1) سورة فاطر، الآية: 15.
(2) سورة الإسراء، الآية: 1.

بـل لن يصل أحد إلــى هذا المقام الإنســانــي الشامخ إلَّا من وصــم ناصيته بهذه السمــة كما قــال الصادق عليه السلام : «**العبودية جوهـرة، كنهها الربوبيـة، فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية**»[1]. ويشير الإمام الخميني قدس سره إلى هذه الحقيقة بالقول:

«**فمن سعى بخطوة العبودية، ووسم ناصيته بسمة ذلّها، سيجد سبيل الوصول إلـى عـزّ الربوبيـة. وطريق الوصـول إلى الحقائـق الربوبية هو السـير في مدارج العبودية؛ فما فقد من الإنيّة والأنانية في عبوديّته يجده في ظّل حمى الربوبية، حتـى يصـل إلى مقـام يكون الحق تعالى سـمعه وبصـره ويده ورجله. فإذا أسـقط العبـد تصـرفاته وسـلَّم مملكة وجـوده كلها إلى الحـق وخلّى بين البيت وصـاحبه وفني في عزّ الربوبية فحينئذ يكون المتصرّف في الدار صاحبها فتصير تدبيراته تدبيرات إلهية، فيكون بصـره بصـراً إلهياً وينظر ببصـر الحق ويكون سمعه سمعاً إلهياً فيسـمع بسـمع الحق. وبمقدار ما تزداد ربوبية النفس ويكون عزّها غايةً في نظره، ينقص من عزّ الربوبية، لأنّ هذين: أي عزّ العبودية وعز الربوبية متقابلان الدنيا والآخرة ضرّتان**»[2].

الخشوع

وهو من الآداب المعنوية المهمّة للصلاة وهو حالةٌ تحصل في قلب المصلّي. ومعنى الخشوع هو الخضوع التام الممزوج بالحبّ والخوف كما يقول الإمام الخميني قدس سره:

«**مـن الأمـور الضـرورية للسـالك واللازمة لجميع العبادات لا سـيما الصـلاة هو الخشـوع، وحقيقتـه الخضـوع التـام الممـزوج بالحـبّ أو الخـوف**»[3]. ومنشأ هذا

(1) مصباح الشريعة، باب العبودية (منسوب للإمام الصادق عليه السلام).

(2) الإمـام الخمينـي قدس سره، الآداب المعنوية للصـلاة، الفصل الأول، في التوجه إلى عـزّ الربوبية وذلّ العبودية، ص 33 - 34.

(3) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، في بيان الخشوع، ص 40.

الخضــوع هو إدراك عظمة الحق تعالى وجلالــه. فالخشوع يحصل من إدراك عظمة الجــلال والجمــال وسطوتهما وهيبتهما. والمصلّي يجـب أن يكون في صدد تحصيل حالــة الخشــوع فــي صلاتــه، لأنّ اللّه تعالــى جعـل الخشوع فــي الصلاة مــن حدود الإيمــان وعلائمــه ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والإقبال في صلاتك، فإن اللّه تعالى يقول:** ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾»[2].

وتحصيــل حالة الخشوع يكون بتفهيم القلب وتلقينــه عظمة الحقّ وجلاله وبهائه وجماله جلّت عظمته، كما يقول الإمام الخميني قدس سره: «**إذا علم الإنسان بالبرهان أو ببيــان الأنبيــاء عليهم السلام عظمة اللّه وجماله وجلاله، فلا بدّ أن يذكّر القلب بها حتى يدخل الخشوع شيئاً فشيئاً في القلب**»[3].

الطمأنينة

وهــي مــن الآداب المعنويــة للصلاة أيضــاً. والمقصــود منها أن يأتــي المصلّي بالعبــادة مع سكــون القلب واطمئنان الخاطر، لأنّ القلــب إذا لم يطمئنّ ويسكن فلن يكــون لــلأذكار والعبادات فيــه أي تأثير. لأن العبــادة إذا أُتِي بهــا والقلب مضطربٌ ومتزلــزل، فلــن يتأثر القلب بها ولن يتفاعل معها. في حيــن أنّ الهدف الأساسي من تكرار العبادات والأذكار هو أن يتأثر القلب بها، حتّى يتشكّل باطن المصلّي مع حقيقة الذكر والعبادة ويتّحد قلبه بروح العبادة.

يقول الإمام الخميني قدس سره في هذا الصدد:

«**مــن الآداب القلبيّــة الهامّــة فــي العبــادات خصوصــاً مــا يتميّــز منها بالذكر،**

(1) سورة المؤمنون، الآيتان: 1 – 2.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 200.

(3) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، المقالة الأولى، الفصل الثالث، ص 47.

الطمأنينـة. فهـي إشـارةٌ إلـى أداء السـالك العبـادة بسـكينة قلب، واطمئنـان بال. فالسـالك إذا قـام بـأداء تلـك الأعمـال وهـو فـي حالة من اضـطراب القلـب وعدم الاسـتقرار، فـإنّ القلب لن يتفاعل معها ولن تحصـل منها آثـارٌ على ملكوته، ولن تعكـس حقيقة العبادة الصـورة الباطنية للقلب. فإنّ أحـد الأهداف المنظورة من تكـرار العبـادات والإكثار من الأذكار والأوراد هـو جعل القلب متأثراً بها ومتفاعلاً معها، حتى تشـكّل حقيقة الذكر والعبادة باطن السـالك شـيئاً فشيئاً، وتجعل قلبه متّحداً مع روح العبادة، غير أنّ القلب ما لم يتّصف بالاطمئنان والسكينة والوقار، فإنّ الأذكار لن تؤثّر فيه ولن تسري من حدود الظاهر ومن ملك البدن إلى ملكوت النفس وباطنها، ولن ينال القلب حظّه من حقيقة العبادة»[1]. ويذكر الإمام قدس سره مثالاً عملياً على كيفيّة تمرين القلب على تحصيل الطمأنية فيقول:

«إذا قال أحدٌ الذّكر الشـريف (لا إله إلا الله محمد رسـول الله) بسـكينة القلب واطمئنانه، وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف، فإنّ لسان القلب ينطق بالتدريج حتى يصبح لسان الظاهر تابعاً للسان القلب»[2].

التفهيم

وهـو مـن الآداب القلبية المهمـة للصلاة أيضـاً، ومعناه أن يفهّـم المصلّي قلبه ويعلّمه معاني ما يقوله، فيفهمه معاني الآيات والأذكار التي يتلوها في صلاته، بحسب طاقتـه وقدرته. فقد قال أميـر المؤمنين عليه السلام في معرض حديثـه عن آداب تلاوة القرآن...: «**ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة**»[3]. والحـدّ الأدنى من التفهيم أن يفهم المصلّي القلب المعنى الإجماليّ، وهو أنّ القرآن كلام الله والأذكار مذكـراتٌ بالحـقّ تعالـى، وأنّ العبادات إطاعةٌ لأمـر الربّ. يقول

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، في بيان الطمأنينة، ص 13.
(2) م. ن، المقالة الأولى، الفصل الرابع، ص 31.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص207

الإمام عليه السلام: «التفهيم من الآداب القلبية للعبادات لا سيما التي تتميّز منها بالذكر، ويكون بأن يتصوّر الإنسان قلبه في بداية الأمر كطفل لم ينطلق لسانه بعد، وأنّ عليه أن يعلّمه النطق. فيقوم بتعليم القلب كل ذكرٍ من الأذكار، وكل وردٍ من الأوراد، وكل حقيقةٍ من حقائق العبادة، وكل سرٍّ من أسرارها بمنتهى الدقة. ويسعى في تفهيمه الحقيقة التي يدركها هو في كلّ مرتبة من مراتب الكمال التي يكون فيها. والنتيجة المتوخّاة من هذا التفهيم أنّ لسان القلب ستحلّ عقدته بعد مدةٍ من المواظبة عليه ويصبح القلب ذاكراً ومتذكّراً»[1].

حضور القلب في الصلاة

«وهو من الآداب القلبية المهمّة الذي يمكن أن يكون كثيرٌ من الآداب مقدمةً له، والعبادة بدونه ليس لها روح، وهو بنفسه مفتاح قفل الكمالات، وباب أبواب السعادات»[2] كما يقول إمامنا الخميني قدس سره. والمقصود من حضور القلب في الصلاة أن لا يكون القلب غافلاً وساهياً أثناء العبادة. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«اعبد الله كأنك تراه، وإن لم تكن تراه فإنّه يراك»**[3]. فالإنسان المصلي عندما يقف بين يدي اللّه تعالى للصلاة يجب أن تكون جميع مسامع قلبه مسدودة إلا عن الحق تعالى، فلا يقبل ولا يتوجّه في فكره وعقله وقلبه إلّا إليه عزّ وجلّ. عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«إذا أحرمت في الصلاة فأقبل إليها، لأنّك إن أقبلت أقبل الله إليك، وإن أعرضت أعرض الله عنك، فربما لا يرفع من الصلاة إلّا ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبل إليها، وإن الله لا يعطي الغافل شيئاً»**[4].

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، الفصل السابع، في بيان التفهيم، ص 42.
(2) م.ن، المقالة الأولى،الفصل الثامن، ص 72.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج25، ص204.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص57.

موانع حضور القلب في الصلاة

وأمّا ما يمنع من حضور القلب في الصلاة فهما أمران أساسيّان كما يقول الإمام الخميني قدس سره: تشتّت الخيال وحبّ الدنيا:

«وربما يكون تشتّت الخاطر والمانع عن حضور القلب من الأمور الباطنية. وهذا على نحو كلّي له منشآن أساسيان، ترجع معظم الأسباب إليهما:

الأوّل: أنّ طائر الخيال هو بنفسه فرّار، كعصفورٍ يقفز من غصنٍ إلى غصن. وهذا ليس مرتبطاً بحبّ الدنيا والتوجّه إلى الأمور الدنيّة والمال الدنيوي، بل كونُ الخيالِ فرّاراً مصيبةٌ يُبتلى بها حتّى التارك للدنيا. وتحصيل سكون الخاطر وطمأنينة النفس وتوقّف الخيال من الأمور المهمة التي يحصل بإصلاحها العلاج القطعيّ.

الثاني: هو حبّ الدنيا وتعلّق الخاطر بالحيثيات الدنيويّة التي هي رأس الخطايا وأمّ الأمراض الباطنيّة. وهو شوك طريق أهل السلوك ومنبع المصيبات. وما دام القلب متعلّقاً، ومنغمساً في حبّ الدنيا، فالطريق لإصلاح القلوب مسدودٌ، وباب جميع السعادات في وجه الإنسان مغلق»[1].

النشاط والبهجة

الإتيان بالعبادة عن نشاط وبهجة له تأثيرٌ واضحٌ وأكيدٌ على روح الإنسان، كما يقول الإمام الخميني قدس سره: «**من الآداب القلبية للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة بل هو موجبٌ لفتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات، أن يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاط وبهجة في قلبه وفرح وانبساط في خاطره، ويحترز احترازاً شديداً من الإتيان بالعبادة مع الكسل وإدبار النفس**»[2]. وقد أشار

(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، الفصل العاشر، في بيان تحصيل حضور القلب، ص 55.
(2) م. ن، الفصل السادس، في بيان النشاط والبهجة، ص 73.

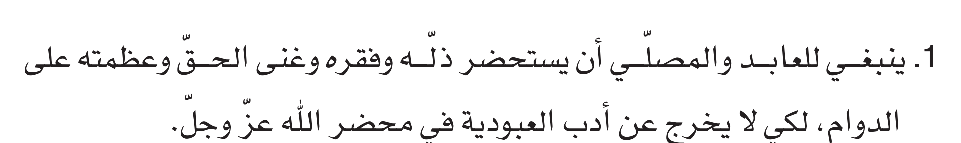
الباري عزّ وجلّ إلى هذا الأدب في الكتاب الإلهي الكريم في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [1].

وأشير في الروايات أيضاً إلى هذا الأدب، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا تُكرهوا إلى أنفسكم العبادة**» [2].

وعنه عليه السلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا عليّ: إنّ هذا الدين متينٌ فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك»** [3].

وفي الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام: «**إذا نشطت القلوب فأودعوها، وإذا نفرت فودّعوها**» [4].

(1) سورة التوبة، الآية: 54.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص86.
(3) م. ن، ج2، ص87.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 1، ص 144.



المفاهيم الرئيسة

1. ينبغــي للعابــد والمصلّــي أن يستحضر ذلّــه وفقره وغنى الحــقّ وعظمته على الدوام، لكي لا يخرج عن أدب العبودية في محضر اللّه عزّ وجلّ.
2. النظــر الدائــم إلــى ذلّ النفس وعظمة الحــقّ تعالى يتولّد منــه حالة الخشوع والطمأنينة.
3. الخشــوع هو حالةٌ تحصل في قلب المصلّي، ومعناه هو الخضوع التام الممزوج بالحبّ والخوف.
4. الطمأنينــة هي أن يأتي المصلّي بالعبادة مع سكون القلب واطمئنان الخاطر، لأنّ القلب إذا لم يطمئن ويسكن فلن يكون للأذكار والعبادات فيه أي تأثير.
5. علــى المصلّي أن يعمد دائماً إلى تفهيم القلــب وتلقينه معاني الأذكار والآيات الإلهية وأن لا يأذن له بالغفلة والسهو عند إتيانه بالعبادة.
6. مــن أهمّ موارد وأسباب الغفلة والسهو أثناء العبادة تشتت الخيال بسبب كثرة الانشغال بالدنيا وتعلّق القلب بها.
7. من الآداب المعنوية المهمة للصلاة السعي دائماً للإتيان بها عن نشاطٍ وبهجة لما لهذا الأمر من تأثير واضح وأكيد على روح الإنسان.



أسئلة الدرس

1. اشرح معنى هذا الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**العبودية جوهرة كنهها الربوبية، فما فُقد في العبودية وُجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أُصيب في العبودية**».
2. ما معنى حضور القلب في الصلاة؟ وكيف يتحقق؟
3. لماذا اعتبر الإتيان بالعبادة عن سرور وبهجة من آداب الصلاة المعنوية؟



معراج الروح [1]

ليُعلـم أنّ القلـب بحسب فطرتـه إذا تعلّق بشيءٍ وأحبّه يكـون ذاك المحبوب قبلةً لتوجّهه. وإن شغله أمرٌ ومنعه من التفكّر في حال المحبوب وجمال المطلوب، فبمجرّد أن يخفّ الاشتغال ويرتفع ذلك المانع، يطير القلب شطر محبوبه فوراً ويتعلّق بذيله، فأهـل المعارف وأربـاب الجذبة الإلهيّـة إذا كانت قلوبهم قوية وكانـوا متمكّنين في الجذبة والحبّ يشاهدون في كل مرآة جمال المحبوب وفي كلّ موجودٍ كمال المطلوب ويقولون: «**ما رأيتُ شيئاً إلّا ورأيتُ اللّه فيه ومعه**».

وإذا قـال سيدهم: «**إنّه ليُغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مـرة**»[2] فذلـك لأنّ مشاهدة جمال المحبوب في المـرآة خصوصاً المرائي الكدرة، كمـرآة أبي جهـل هي بنفسها موجبة للكدورة في قلوب الكمّل. وإذا كانت قلوبهم غير قوّيـة وكان الاشتغال بالكثـرات مانعاً من الحضور، فبمجـرد أن يقلّ الاشتغال تطير قلوبهم إلى وكر قدسه وتتعلق بجمال الجميل.

وبالنسبـة لطلاب غير الحقّ، الذين هم عند أهل المعرفة طلاب دنيا، فإنّ كل ما يطلبونه يتوجّهون إليه ويتعلّقون به. فهؤلاء إنّ كانوا مفرطين في حبّ محبوبهم، وكان حـبّ الدنيا آخذاً بمجامع قلوبهم، فـلا يُسلبون عن التوجّه إليه في أي وقت ويعيشون مع جمال محبوبهم في كلّ حال ومع كل شيء.

وامّا إذا كان حبّهم قليلاً، فإنّ قلوبهم في وقت الفراغ سترجع إلى محبوبها. أولئك الذيـن يكون فـي قلوبهم حبّ المـال والرياسة والشرف، فإنّهـم يشاهدون مطلوبهم

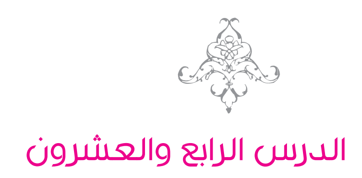
(1) الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، ص 60.
(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج25، ص204.

فـي المنـام أيضـاً، ويتفكّرون في محبوبهم في يقظتهم. وما دامـوا مشغولين بالدنيا فهـم في عناق مـع محبوبهم. فإذا حان وقت الصلاة وحصل للقلب فراغ، فإنّه يتعلق بمحبوبـه فوراً. فكأنّما تكبيرة الإحرام هي مفتـاح دكان أو رافعة للحجاب بينه وبين محبوبه، فيتنبّه وقد سلّم في صلاته وما توجّه إليها أصلاً، وقد كان في تمام الصلاة معانقاً همّ الدنيا.

فلهذا نرى صلاتنا على مدى أربعين أو خمسين سنة لم تؤثّر في قلوبنا غير الظلمة والكدورة.. وما هو معراج قرب جناب الحقّ ووسيلة الأنس بذلك المقام المقدس قد صار سبباً لهجرنا ساحة القرب، وأبعدنا عن العروج إلى مقام الأنس مسافات طويلة. ولـو كان في صلاتنا رائحةً مـن العبودية، لكانت ثمرتها المتربة والتواضع، لا العجب والكبر والافتخار، التي يكون كل واحدٍ منها سبباً مستقلاً لهلاك الإنسان وشقاوته.

وبالجملة، فإنّ قلوبنا لما كانت مختلطةً بحب الدنيا، وليس لها مقصد ولا مقصود غيـر تعميرهـا، فلا محالـة أن يكون هذا الحـبّ مانعاً من فراغ القلـب وحضوره في ذلك المحضر القدسيّ، وعلاج هذا المرض المهلك والفساد المبيد هو العلم والعمل النافعان.

الإمام الخميني قدس سره



الدرس الرابع والعشرون

الدعاء وسيلة الوصال



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1-يبيّن أنّ الدعاء من أهمّ مصاديق العبادة التي تقرّب الإنسان من الله تعالى.

2-يتعرّف إلى آداب الدعاء.

3-يذكر أهم الموانع التي تحول دون استجابة الدعاء.

قيمة الدعاء

الدعــاء هــو إقبال العبد علــى اللّه، والإقبال علــى اللّه هو روح العبــادة، والعبادة هــي الغاية من خلق الإنسان. هــذه النقاط الثلاث تجسّد لنا قيمة الدعاء وتوضح لنا حقيقتــه. فالقرآن الكريم صرّح بشــكل واضح أنّ العبادة هي الغاية من خلق الإنسان حيــث قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] وقيمــة العبادة أنّها تشدّ الإنسان إلى اللّه وتربطه به تعالى.

ولذلــك فإنّ قصــد التقرّب إلى اللّه فــي العبادة أمرٌ جوهري فــي تحقيقها، ومن دونــه لا تكون العبادة عبادة. فالعبادة في حقيقتهــا حركةٌ إلى اللّه، وإقبالٌ على اللّه، وقصــدٌ لوجه اللّه، وابتغاءٌ لمرضاته. والدعاء هو فــي الحقيقة إقبالٌ على اللّه، ومن أبــرز مصاديق الانشداد والارتباط به عزّ وجــلّ، ولا يوجد في العبادات عبادة تقرّب الإنســان إلــى اللّه أكثر من الدعــاء. عن الإمــام الصادق عليه السلام أنّه قــال: «**عليكم بالدعاء، فإنكم لا تتقربون بمثله**»[2].

وكلمــا كانت حاجة الإنسان إلــى اللّه أعظم وفقره إليه تعالى أشدّ واضطراره إليه أكثــر يكون إقباله في الدعاء على اللّه أكثر. والنسبة بين إحساس الإنسان بفقره إلى

(1) سورة الذاريات، الآية: 56.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج93، ص293.

اللّه واضطراره إليه تعالى، وبين إقبال الإنسان عليه سبحانه في الدعاء نسبة طردية. فإنّ الحاجة والإضطرار يلجئان الإنسان إلى اللّه، وبقدر ما يشعر بهذه الحاجة يكون إقباله على اللّه، كما أنّ العكس كذلك أيضاً.

يقول اللّه تعالى في كتابه الكريم: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1]. إنّ الإنسان ليطغى ويعرض عن اللّه بقدر ما يتراءى له أنه قد استغنى، ويقبل على اللّه بقدر ما يعي من فقره وحاجته إلى اللّه. وتعبير القرآن دقيق ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، فلا غنى للإنسان عن اللّه، بل الإنسان فقرٌ كلّه إلى اللّه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[2]، ولكن يتراءى له أنّه قد استغنى، وغرور الإنسان هو الذي يخيّل إليه ذلك. فإذا تراءى له أنّه قد استغنى عن اللّه، أعرض ونأى بجانبه وطغى. فإذا مسّه الضر وأحسّ بالاضطرار إلى اللّه عاد وأقبل إليه. الدعاء في الحقيقة هو إقبالٌ على اللّه. ومن يدع اللّه تعالى ويتضرّع إليه فلا بدّ أن يقبل عليه تعالى، وهذا الإقبال هو حقيقة الدعاء وجوهر قيمته. فالدعاء إذاً جوهر العبادة وروحها، فإنّ الغاية من خلق الإنسان العبادة، والغاية من العبادة الانشداد إلى اللّه. والدعاء يحقق هذا الانشداد والارتباط من أوسع الأبواب وبأقوى الوسائل. فعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**الدعاء مخ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحد**»[3]. ولأنّ حقيقة الدعاء هي الإقبال على اللّه كان الدعاء أحب الأشياء عند اللّه وأكرمها عنده. عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما من شيء أكرم على اللّه تعالى من الدعاء**»[4].

وسئل الإمام الباقر عليه السلام أي العبادة أفضل؟ فقال: «**ما من شيء أفضل عند اللّه عزّ وجلّ من أن يُسْأَلَ ويُطلب مما عنده وما أحد أبغض إلى اللّه عزّ وجلّ ممّن يستكبر عن عبادته ولا يَسألُ ما عنده**»[5].

(1) سورة العلق، الآيتان: 6 – 7.
(2) سورة فاطر، الآية: 15.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج93، ص300.
(4) م. ن، ج90، ص294.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص466.

آداب الدعاء وشروطه

لكل عبادة آدابٌ وشروطٌ لا بدّ من مراعاتها لتحقيق الثمرة المرجوّة منها وكذلك الدعـاء. فمـا لم يتأدب الإنسان بـآداب الدعاء فلا ينتظر إجابـة دعائه ولا السكينة الروحيـة والراحة النفسية التي ينالها الداعي عادةً. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**احفظ أدب الدعاء وانظر من تدعو، كيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقّق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطّلاعه على سرك وما تكون فيه من الحق والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك كيلا تدعو الله تعالى بشيء فيه هلاكك وأنت تظن أنّ فيه نجاتك، قال الله تعالى**﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾**، وتفكّر ماذا تسأل ولماذا تسأل... فإنْ لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظـر الإجابـة، فإنّه يعلم السـرّ وأخفى، فلعلك تدعوه بشـيءٍ قد علم من سـرك خلاف ذلك**»[1].

أما آداب الدعاء وشروطه فهي:

1. البدء بالبسملة وبالصلاة على محمد وآله والختم بها:

وهي من الآداب الضرورية، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا يردّ دعاء أوّله بسم الله الرحمـن الرحيـم**»[2]. وعن الإمـام الصادق عليه السلام: «**لا يزال الدعـاء محجوباً حتى يصـلّي على محمد وآل محمد**»[3]. وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**من كانت له إلى الله حاجة فليبدأ بالصـلاة على محمد وآله، ثمّ يسـأل حاجته، ثمّ يختم بالصـلاة على محمد وآل محمد، فإنّ الله أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط**»[4].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 90، ص 322.
(2) م. ن، ج93، ص 313.
(3) م. ن: ج93، ص312.
(4) م. ن، ج93، ص316.

2. معرفة الله:

من أهمّ شروط استجابة الدعاء معرفة الله تعالى، والإيمان بسلطانه وقدرته المطلقة على تحقيق ما يطلبه منه. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**لو عرفتم الله حقّ معرفته، لزالت الجبال بدعائكم**»[1].

وروي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قرأ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فسئل: ما لنا ندعو ولا يستجاب لنا؟ فقال عليه السلام: لأنّكم تدعون من لا تعرفون، وتسألون ما لا تفهمون»[2].

3. حسن الظنّ بالله:

وهو من شعب الإيمان بالله تعالى، فالله تعالى يعطي عباده بقدر حسن ظنّهم به ويقينهم بسعة رحمته وكرمه. ففي الحديث القدسي: «**أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً**»[3]. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لا يزال العبد بخير ورجاء ورحمة من الله عزّ وجلّ، ما لم يستعجل فيقنط، ويترك الدعاء، وقيل له: كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوت منذ كذا وكذا وما أرى الإجابة**»[4].

4. إقبال القلب على الله:

وهو من أهمّ شروط الاستجابة، فإنّ حقيقة الدعاء في إقبال القلب على الله، فإذا اشتغل قلب الإنسان بغير الله تعالى من شواغل الدنيا لم يحقّق الإنسان حقيقة الدعاء. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عليه السلام: «**إن الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاءً بظهر قلبٍ ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثمّ استيقن الإجابة**»[5].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج17، ص301.
(2) السيد ابن طاووس، فلاح السائل، ص107.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص72.
(4) م. ن، ج2، ص490.
(5) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص305.

5. الإخلاص:

على الداعي أن يخلص لله تعالى ولا يشرك في دعائه شيئاً، لأنّ الله تعالى لا يقبل إلَّا ما كان له خالصاً، فعن الإمام السجاد عليه السلام: «**من لم يرج الناس في شيء وردّ أمره إلى الله عزّ وجلّ في جميع أموره استجاب الله عزّ وجلّ له في كلّ شي**»[1].

6. المداومة على الدعاء في الشدّة والرخاء:

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من دعائه في الشدة، ليس إذا أعطي فتر، فلا تملّ الدعاء فإنّه من الله عزّ وجلّ بمكان**»[2]. وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**من سَرَّه أن يُستجاب له في الشدّة فليُكثر الدعاء في الرخاء**»[3].

7. اقتران الدعاء بالعمل:

فمن شروط الدعاء الأساسية اقتران الدعاء بالعمل، فلا ينفع دعاء من غير عمل، كما وأنّه لا يغني العمل عن الدعاء أيضاً. من وصايا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر: «**يا أبا ذر، مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر**»[4]. وروي أنّ رجلاً قال للإمام الصادق عليه السلام: «**لأقعدنّ في بيتي ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ ربي، فأمّا رزقي فسيأتيني. فقال عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم**»[5].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج75، ص110.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص61.
(3) م. ن، ج7، ص41.
(4) م. ن، ص84.
(5) م. ن، ص125.

8. اجتناب الذنوب:

فإنّ جوهر العبادة كما علمنا هو الإقبال على الله، فكيف يتأتّى لإنسان يمارس معصية الله تعالى ويعرض عن أمره وحكمه أن يقبل عليه؟! فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ العبد يسأل الله تعالى الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجلٍ قريب، أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تعالى للملك، لا تقض حاجته، واحرمه إياها، فإنّه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان منّي**»[1].

9. بثّ الحاجة بين يدي الله:

فالله عزّ وجلّ وإن كان يعلم حوائجنا، ولكنّه يحبّ أن نبثّها إليه كما في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إن الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكن يحبّ أن يبثّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجاتك، وما من شيءٍ أحبّ إلى الله من أن يُسأل**»[2].

10. الإلحاح في الدعاء:

الإلحاح في الدعاء يكشف عن عمق ثقة العبد ورجائه في الله تعالى وعمق تعلّقه به. فكلما كانت ثقة الإنسان بالله أكثر كان إلحاحه في الدعاء أكثر والعكس صحيح. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الله يحبّ الملحّين في الدعاء**»[3]. وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنّ الله كره إلحاح الناس بعضهم على بعضٍ في المسألة، وأحبّ ذلك لنفسه**»[4].



(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص271.
(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج90، ص312.
(3) م. ن، ج90، ص300
(4) م. ن، ج75، ص173.

11. الدعاء للآخرين:

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من دعا لمؤمن بظهر الغيب قال الملك: فَلَكَ مثل ذلك**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب يدرّ الرزق، ويدفع المكروه**»[2].

12. التوجّه إلى معاني الدعاء:

فلا يدعو وهو غافلٌ عمّا يتلفّظ به ويطلبه، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله لا يستجيب دعاءً بظهر قلبٍ ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثمّ استيقن بالإجابة**»[3].

13. الدعاء بالمأثور:

أي بالأدعية التي وصلتنا من أهل بيت النبوّة صلوات الله عليهم، ففي كلامهم أفضل تعبير عن العبودية والتضرّع والخضوع لربّ العالمين، وعنها يقول الإمام الخميني قدس سره: «**إنّ الأدعية والمناجاة التي وصلتنا عن الأئمة المعصومين هي أعظم أدلة إلى معرفة الله جلّ وعلا، وأسمى مفاتيح العبودية وأرفع رابطة بين الحقّ والخلق. كما أنّها تشتمل في طياتها على المعارف الإلهية، وتمثّل أيضاً وسيلةً ابتكرها أهل بيت الوحي للأنس بالله جلّت عظمته فضلاً عن أنّها تمثل نموذجاً لحال أصحاب القلوب وأرباب السلوك**»[4].

موانع استجابة الدعاء

وينبغي للمؤمن أن يحترز عن القيام بما من شأنه حجب دعائه وعدم استجابته مخافة أن يصل إلى الحدّ الذي لا يوفّق بعده للدعاء أصلاً فيكون شقيّاً، كما نقرأ في دعاء كميل: «**فأسألك بعزّتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي**»،

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7، ص109.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص507.
(3) م.ن، ص473.
(4) الإمام الخميني قدس سره، وصايا عرفانية، ص 19 - 20.

و«**اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء**»، وقد أكّد أهل العصمة عليهم السلام على عدّة موانع تقف حائلاً دون إجابة الدعاء وهي:

1. الشرك:

فعندما يتوجّه الإنسان بالطلب إلى الله تعالى ولكنه في نفس الوقت يرى مؤثريّةً لغيره عزّ وجلّ في تدبير أموره وتسيير شؤونه، فإنّ ذلك يعدّ من مراتب الشرك الخفيّ، والتي يمكن أن تكون سبباً لعدم استجابة الدعاء.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام: ما اعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته ثمّ تكيده السماوات والأرض ومن فيهنّ إلّا جعلت له المخرج من بينهنّ، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلّا قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أبالِ بأيّ وادٍ هلك**»[1]. والسبب في ذلك أنّه عندما يسأل الإنسان ربّه أمراً ما وقلبه متعلقٌ بالأسباب ومعتمدٌ عليها فهذا ينافي الإخلاص له تعالى وهو القائل: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]، ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

2. الذنوب والمعاصي:

حيث تشكّل حاجباً ومانعاً بين العبد ومولاه، لذا على الإنسان أن لا يتأخّر عن التوبة والاستغفار فيما لو وقع في هفوة لا سمح الله، لأنّ الذنوب تحول دون قضاء الحوائج واستجابة الدعاء، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّ العبد يسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاءها إلى أجلٍ قريب أو إلى وقتٍ بطيء،**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص63.
(2) سورة غافر، الآية: 14.
(3) سورة يونس، الآية: 106.

فيذنب العبد ذنباً فيقول الله تبارك وتعالى للملك لا تنجز حاجته واحرمه إيّاها، فإنّه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان مني»[1].

3. سؤال ما فيه الضرر:

قد يظن الإنسان في أمرٍ ما خيراً له، فيسأل الله ويلحّ في طلبه ولكن الله اللطيف الحكيم لعلمه بعاقبة الأمور وخفاياها وبواطنها يمنع هذا الأمر عن عبده رفقاً به ورحمة، أو يؤخّره عنه لأنّ صلاحه لا يكون في العاجل وإنّما في وقت لاحق، أو قد يبدله بما هو أفضل منه. فيظنّ الجاهل حينها أنّ الله تعالى أخلف وعده في استجابة الدعاء، ولكنّ الواقع أنّ الله تعالى إنّما امتنع عن إيصال الضرر إليه والذي طلبه نتيجة جهله. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[2].

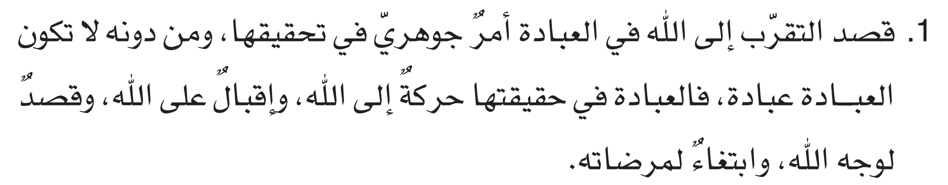
4. عدم الصدق في الطلب:

فقد يطلب الإنسان من الله تعالى ويسأله وهو غير صادقٍ في طلبه، والاستجابة إنّما تطابق الدعوة، فما يسأله السائل ويعقد عليه ضميره ونيّته هو ما سيناله وليس ما يسأله بلسانه ويظهره بلفظه دون أن يقصده حقاً. فحقيقة الدعاء هو ما يحمله القلب دون ما يأتي به اللسان الذي يدور كيفما أدير صدقاً أو كذباً. ولهذا يقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[3]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك، ثمّ استيقن بالإجابة**»[4].

---

(1) بحار الأنوار، 108، ص158.
(2) سورة الإسراء، الآية: 11.
(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج7،ص53.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2 ص473.

المفاهيم الرئيسة



1. قصد التقرّب إلى الله في العبادة أمرٌ جوهريّ في تحقيقها، ومن دونه لا تكون العبـادة عبادة، فالعبادة في حقيقتها حركةٌ إلى الله، وإقبالٌ على الله، وقصدٌ لوجه الله، وابتغاءٌ لمرضاته.
2. قيمـة كلِّ عبادة بمقـدار ما تشدُّ الإنسان وتربطه بالله عـزّ وجلّ، والدُّعاء من أهمّ مصاديق هذه العبادة.
3. الدعـاء هو إقبال العبد على الله، والإقبال علـى الله هو روح العبادة، والعبادة هي الغاية من خلق الإنسان.
4. للدعـاء شروطٌ وآدابٌ بمراعاتها تتمّ الاستفـادة الحقيقيّة من الدعاء، ونصل إلى الهدف المرجوّ منه.
5. إنَّ مـا يحـول بيـن الإنسان وبيـن استجابة دعائـه مجموعة مـن الموانع على الداعي التخلّص منها، أهمها: الشرك بالله، ارتكاب المعاصي، عدم الصدق في الطلب، وسؤال ما فيه ضرر.



أسئلة الدرس

1. ما هي أهميّة الدعاء بالنسبة لسلوك الإنسان المعنوي؟
2. للدعاء آدابٌ عديدة أذكرها وتحدّث عن واحد منها.
3. اعتبر الإخلاص من أهم شروط الدعاء، لماذا؟
4. ما هي أهم الموانع التي تحول دون استجابة الدعاء؟



وصال المحبوب [1]

احفظ أدب الدعاء وانظر من تدعو، كيف تدعو ولماذا تدعو. وحقّق عظمة اللّه وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطّلاعه على سرّك وما تكون فيه من الحق والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك كيلا تدعو اللّه تعالى بشيء فيه هلاكك وأنت تظنّ أن فيه نجاتك، قال اللّه تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

وتفكّر ماذا تسأل ولماذا تسأل. والدعاء استجابة الكلّ منك للحقّ، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعاً وتسليم الأمور كلها ظاهراً وباطناً إلى اللّه تعالى. فإن لم تأتِ بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة فإنّه يعلم السرّ وأخفى، فلعلك تدعوه بشيءٍ قد علم من سرّك خلاف ذلك. قال بعض الصحابة لبعضهم: أنتم تنتظرون المطر وأنا أنتظر الحجر.

واعلم أنه لو لم يكن اللّه أمرنا بالدعاء، لكنّا إذا أخلصنا الدعاء تفضّل علينا بالإجابة فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء. وسُئل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن اسم اللّه الأعظم فقال: «**كل اسم من أسماء اللّه أعظم، ففرّغ قلبك عن كل ما سواه، وادعه بأي اسم شئت فليس في الحقيقة للّه اسمٌ دون اسم، بل هو اللّه الواحد القهار**». وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن اللّه لا يستجيب الدعاء من قلب لاه**».

إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه إلّا أعطاه، فلييأس من الناس كلهم ولا يكن رجاؤه إلا من عند اللّه عزّ وجلّ، فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء وأخلصت

(1) مصباح الشريعة، ص53 (المنسوب للإمام الصادق عليه السلام).

سـرّك لوجهـه فأبشـر بإحدى ثلاث: إما أن يعجّـل لك ما سألت، وإمّـا أن يدّخر لك مـا هو أفضل منـه، وإمّا أن يصرف منـك من البلاء ما لو أرسلـه إليك لهلكت. قال النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي للسائلين**».

الإمام الصادق عليه السلام



الدرس الخامس والعشرون

الصبر باب اللقاء



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1- يتعـرّف إلى حقيقة الصّبر، وآثاره ونتائجـه على حياة الفرد في الدنيا والآخرة.

2- يبيّن أنّ الصّبر من أهم صفات القائد الإلهيّ وشمائله.

3- يعدّد مراتب الصّبر ودرجاته.

مقدّمة

كلامنا في السابق كان يتمحور حول لقاء الله تعالى، معناه الحقيقيّ، وشروطه، والموانع التي تحول دون صيرورته أمراً واقعاً. وفي هذا الدرس والذي يليه سوف نتحدّث عن أهمّ عاملين يساعدان الإنسان في مسيرته نحو تحقيق هذا الهدف السامي والمبتغى الرفيع، وهما الصّبر والصلاة.

الاستعانة بالصّبر

يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

يحثّ القرآن الكريم في هذه الآية على الاستعانة بالصّبر والصّلاة للتغلّب على الأهواء الشخصيّة والميول النفسيّة. ثم يؤكّد أنّ هذه الاستعانة ثقيلة ولا ينهض بعبئها إلا الخاشعون: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، وهم الذين آمنوا أنهم ملاقو ربّهم وأنّهم إليه راجعون. لأن الإيمان بلقاء الله والرجوع إليه، يُحيي في قلب الإنسان حالة الخشوع والخشية والإحساس بالمسؤوليّة. وهذه أحد الآثار المهمّة للإيمان بالرجوع إلى الله، حيث تجعل هذه التربية الفرد ماثلاً دوماً أمام مشهد المحكمة الإلهيّة الكبرى، فتدفعه إلى النهوض بالمسؤوليات الشرعيّة الملقاة على عاتقه، وإلى

(1) سورة البقرة، الآيتان: 45 – 46.

إحقـاق الحقّ والعـدل دوماً، فلا يظلم نفسه ولا الآخرين. ولقاء اللّه تعالى كما ذكرنا في الدرسـ الأول ليس المقصود منه اللقاء الحسّي، كلقـاء أفراد البشر مع بعضهم بعضاً، لأنّ اللّه ليس بجسم، ولا يُرى بالعَين، بل المقصود منه اللقاء المعنويّ، والرؤية القلبيّـة، بمعنـى مشاهدة آثار قـدرة اللّه وعظمته تعالى، وحضوره عـزّ وجلّ الدائم فـي حياتنا، وعـدم الغفلة عنه مطلقاً. وهذه الحالة تحصـل كما ذكرنا نتيجة الطّهر والتقـوى، والعبادة وتهذيب النفسـ في هذه الدنيا، وتخليتها مـن الأهواء والصفات الذّميمة.

وفـي هذه الآيـة المباركة يأمر اللّه تعالـى الإنسان بالاستعانـة بالصّبر والصّلاة للتغلّـب على الصعـاب والمشاكل التي سوف تواجهه في هـذه الحياة، خصوصاً تلك المتعلّقـة بنفسـه الأمّارة بالسوء. فهو أحوج ما يكون عنـد منازلتها إلى المعين الذي يعينه، ويساعـده في معركته القاسية معها. وتشير الآية بشكل صريح وواضح إلى أن دواء الإنسـان يكمن في أمرين همـا الصّبر والصلاة، وتأمره بالاستعانة بهما لأنهما خير معين عند الشدائد وفي النوائب. فالصّبر هو حالة الصمود والاستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، والصلاة هي وسيلة الارتباط باللّه حيث السّند القويّ المكين.

حقيقة الصّبر

الصّبر ضد الشكاية والجزع، وهو قوّة تحمّل الإنسان وثباته، وعدم اضطرابه عند مقاومتـه لأهواء النفسـ وشهواتها، أو عند إتيانه بالعبـادات والطاعات وانتهائه عن المعاصـي والمخالفـات، أو عند تعرّضه لأنواع الشدائد ونـزول المصائب عليه. فلا يجزع ولا يشتكي ولا يأتي بالأفعال والحركات غير الملائمة. بل يثبت ويتحمّل ويقاوم إلـى أن تنجلـي ظلمة المحنة، أو يكتب له النّصر على عـدوّه، فيؤتيه اللّه تعالى أجره مرّتين جزاءً بما صبر: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[1].

(1) سورة القصص، الآية: 54.

فالصّبر لا يعني تحمّل الشقاء، وقبول الذلّة والاستسلام للعوامل الخارجيّة، بل على العكس، الصّبر يعني القدرة على التحمّل والمقاومة، والثبات أمام جميع المشاكل، والصمود أمام الحوادث المرّة، وعدم الانهيار وترك الجزع والفزع، لأجل بلوغ الأهداف الإلهية العليا والغايات الإنسانيّة السامية. فالصّبر وقوة التحمّل من أهمّ الأدوات التي تعين الإنسان وتساعده في مسيرته نحو الحقّ تعالى، وارتقائه في مراتب الكمال الإنسانيّ. وعلى المؤمن الصادق أن يكون صابراً ومتحمّلاً أمام الأحداث والحالات المختلفة التي سوف يمرّ بها، فلا يهن ولا يضعف ولا يجزع أمامها، بل يكون كالجبل الرّاسخ، فلا يدع لتكامله مجالاً للتوقّف والمسامحة والغفلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[1].

الصّبر والقيادة الإلهية

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2]. تشير الآية الكريمة التالية إلى صفتين أساسيّتين ينبغي أن يتحلّى بهما الإمام والقائد لكي يصبح مؤهّلاً وصالحاً لهداية الناس، وإدارة شؤونهم الدينيّة والدنيويّة:

أحدهما: الإيمان واليقين بآيات الله عزّ وجلّ.

والثّاني: الصّبر والصمود والاستقامة.

فالإمامة والقيادة من المناصب الإلهية التي لا دخالة للبشر فيها، لأنّ هداية الناس وصلاح دنياهم وآخرتهم متوقّف عليها. لذا ما كان الله متّخذاً خليفةً له وإماماً على الناس إلّا أن يكتمل عقد هذين الشرطين فيه وهما اليقين والصّبر. وهذا

(1) سورة فصّلت، الآية: 30.

(2) سورة السجدة، الآية: 24.

إن دلّ علـى شيء، فإنه يـدلّ على عظمة الصّبر وأهمّيته الفائقـة في تكامل الإنسان وقربه من الحق عزّ وجلّ.

وتُعتبر هذه الآية الشريفة درساً لكلّ الأمم والشعوب ولجميع المسلمين، ولنا نحن أيضاً. لنعلم أنّ التصدّي للقيادة لا ينبغي أن يكون اعتباطيّاً وبشكل عشوائي بل يجب أن يخضع لمعايير وأسس. والمعياران الأبرز هما أن يكون المتصدّي للقيادة شخصاً مؤمنـاً، بـل وعلى يقين من دينه وربّه. والإيمان وحده هنا لا يكفي في هذه الحالة، بل ينبغـي أن يكون حائزاً على مرتبة اليقيـن أيضاً. وأن يكون ذا صبر وقدرة عالية على التحمّل وإدارة الأمور بحكمة ورويّة.

لأنّ مسألـة القيـادة لا تخلـو من لحظات صعبـة، ومواقف حرجة، ومشـاكل معقّدة قد تواجـه القائد، فيهبّ لمواجهتها مستعيناً بقوّة اليقين وسلاح الاستقامة والصّبر. فالقائد أثنـاء أدائه لواجباته وتصدّيه لهداية النـاس وإدارة شؤونهم، ينبغي أن لا يشكّ في حكمة اللّه وقدرتـه المطلقـة، وأن لا يضعف أمام المصاعب التي تواجهه، أو يخاف من المشاكل التـي تعترضـه في طريق التوحيـد، وخدمة عباد اللّه. بـل هو على يقين مـن دينه وأمره، صابرٌ، محتسبٌ، لا يضطرب ولا يتزلزل أمام الفتن والبلاءات، ولا يجزع ولا ييأس. فيكون بذلـك مستحقّـاً للقيادة، ومُديماً لخـطّ الهداية والإرشاد إلـى اللّه سبحانه، ومكملاً لدور الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين. ولا يكون قاطعاً لطريق الخير والهداية والعياذ باللّه، فيُلقى في جهنّم وبأس المصير ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾[1].

فالصّبـر إذاً، شرط أساسـيّ للفوز برضا اللّه تعالى والقـرب منه، والذي يتجلّى بأبهـى صـوره عندمـا يتّخذه اللّه تعالـى وليّاً له وخليفـةً، وهادياً بأمـره، وداعياً إلى سبيلـه. وكفى بالمرء عزّاً وفخـراً وكرامةً أن يجتبيـه اللّه، ويستخلصه لهداية خلقه والدعوة بأمره!!

(1) سورة ق، الآيتان: 24 – 25.

فعـن الإمـام الصـادق عليه السلام في حديـث له يقـول: «**إنّ الأئمّة في كتـاب الله عزّ وجـلّ إمامـان: قـال الله تبـارك وتعالـى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، لا بأمـر النـاس، يقدّمـون أمـر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبـل حكمهم، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، يقدّمـون أمرهـم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ و جلّ**»[1]. فلا يمكن أن يصل الإمام والهـادي إلـى هذا المقام إلّا في ظـلّ اليقين والاستقامة فقط. وقـد روي عن الإمام الصـادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «**إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً، ثّم قال: عليك بالصّبر في جميع أمورك فإن الله عزّ وجلّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فأمره بالصّبر والرفقِ، فقال ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾**»[2].

مراتب الصّبر

عـن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**الصّبـر ثلاثة: صبـر عند المصـيبة، وصبـر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض، ومـن صبـر علـى الطاعة كتب الله له ستمائة درجـة، ما بين الدرجـة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش**»[3].

من هذا الحديث الشريف نعلم أن للصّبر ثلاث درجات:

الدرجـة الأولى: الصّبر علـى البليّات والمصائب: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[4]. فالإنسان

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص216.

(2) م. ن، ج2، ص88.

(3) م.ن، ص91.

(4) سورة البقرة، الآية: 155.

طالما أنه يعيش في هذه الحياة، فهو عرضة في كلّ لحظة للبلاءات والمصائب، مثل فقد الأعزّة، وهلاك الأموال، وزوال الصحّة بالمرض، وفساد الأعضاء وغيرها من أنواع البلاءات التي يعدّ الصّبر عليها أمراً محموداً، حيث وعد الله تعالى الصابرين والمحتسبين بالبشرى، وعدّهم من المتّقين حقّاً: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]. وعن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عزّ وجلّ: إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً**»[2]. حتّى قيل إنّ الصّبر الجميل هو الذي لا يُعرف فيه صاحب المصيبة، فهو يشبه غيره. أمّا توجّع القلب وفيضان العين فلا يخرجان الإنسان عن مقام الصّابرين، لأنّ البكاء وتوجّع القلب على فقد الأعزّة من مقتضيات البشريّة وأحوال الإنسانيّة.

الدرجة الثانية: الصّبر على الطاعة: وهي قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[3]. وهو أن يتمالك الإنسان نفسه عند طاعة الحقّ تعالى، فلا يسمح للنفس الأمّارة بالسوء بالسيطرة عليه، وبالعمل وفق رغباتها وأهوائها، بل يقاومها ويخالفها ويصبر على آلام مجاهدتها. فالإنسان عند أدائه لواجباته العبادية بحاجة ماسّة إلى الصّبر على الطاعات، لأنّ النفس بطبعها تنفر من العبودية، لما تجده في العبودية من مشقّة وتعب. فمن العبادات ما هو مكروهٌ بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما هو مكروه بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما هو مكروه بسببهما معاً كالحجّ والجهاد. فالصّبر على الطاعة صبر على الشدائد، والإنسان المطيع لله عليه أن يصبر عند أدائه لواجباته الدينيّة فلا ينصاع لأوامر

(1) سورة البقرة، الآية: 177.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج2، ص58.

(3) سورة مريم، الآية: 65.

النفس الأمّارة، ولا يهن ولا يضعف، ولا يصاب بالكسل والفتور بل يصبر حتى يفرغ من العمل بالكامل. وبعد انتهائه من العمل يحتاج أيضاً إلى الصّبر عن إفشاء العمل والتظاهر به للسّمعة والرياء والعجب، والصّبر عن كل ما يبطله ويحبط أثره، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[1].

الدرجة الثالثة: الصّبر على المعصية: وهو أن يصبر الإنسان عندما تأمره نفسه الأمّارة بالسوء بالمعصية وفعل الحرام، فلا ينصاع لأوامرها بل يجاهدها حتى يتغلّب عليها بالكامل. فقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّة: «**أيّ الهجرة أفضل؟ قال** صلى الله عليه وآله وسلم: **من هجر السوء**»[2].

ومنشأ المعاصي اتّباع الهوى، وحب الدنيا. وأشدّ أنواع الصّبر عن المعاصي هو الصّبر عن المعاصي التي صارت مألوفة ومعتادة. فإذا كانت المعصية ممّا يسهل فعله واجتراحه، كان الصّبر عنها أثقل على النفس، كالصّبر على معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس، وأنواع المزاح المؤذي، وضروب الكلمات التي يقصد بها الازدراء والاستحقار. ويختلف الصّبر شدّة وضعفاً باختلاف المعاصي في قوّتها وضعفها أيضاً.

آثار الصّبر في القرآن

الآيات التي تحدّثت عن الصّبر في القرآن الكريم كثيرة ومتعدّدة، ما نريد أن نقف عنده هنا هي تلك التي ذكرت آثار فضيلة الصّبر وتأثيرها على حياة الإنسان وعلى مصيره في الدنيا والآخرة. وفيما يلي نورد بعض الثمار والآثار الطيبة للصبر بشكل موجز:

(1) سورة محمد، الآية: 33.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج74، ص72.

1. الصابرون مُعفون من الحساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[1].

2. الله تعالى يصلّي على الصابرين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[2].

3. الله تعالى يحبّ عباده الصابرين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

4. الصّبر مفتاح النصر والغلبة: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[5].

5. الله تعالى مع الصابرين أينما ولّوا وجوههم: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[6].

6. ذنوب الصّابرين مغفورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[7].

7. الله تعالى يثيب الصّابرين بأفضل ممّا كانوا يعملون: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[8].

8. أنّ الله تعالى يرزقهم الجنّة: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾[9].

9. أنّ الصابرين هم المفلحون والرابحون: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[10].

---

(1) سورة الزمر، الآية: 10.
(2) سورة البقرة، الآيتان: 156 – 157.
(3) سورة آل عمران، الآية: 146.
(4) سورة الأنعام، الآية: 34.
(5) سورة الأنفال، الآية: 65.
(6) سورة الأنفال، الآية: 46.
(7) سورة هود، الآية: 11.
(8) سورة النحل، الآية: 96.
(9) سورة الإنسان، الآية: 12.
(10) سورة العصر، الآيات: 1 – 3.

المفاهيم الرئيسة

1. اللّه تعالـى أمر الإنسـان بالاستعانة بالصّبر للتغلّب علـى الصعاب والمشاكل التـي سوف تواجهه فـي هذه الحياة، خصوصـاً تلك المتعلّقـة بنفسه الأمّارة بالسوء.
2. الصّبـر هو تحمّـل الإنسان وثباته عنـد مقاومته لأهواء النفسـ وشهواتها، أو انتهائه عن المحرّمات وإتيانه بالعبادات والطاعات.
3. لا يصبح الإنسان وليّاً من أولياء اللّه إلّا إذا كان من الصابرين.
4. ذكـر القرآن آثـاراً عديدة للصّبر منها أن الصّـابر: غيـر محاسب، اللّه تعالى معه، ذنبه مغفور، ثوابه من اللّه الجنة، وجزاؤه من اللّه أفضل من عمله.
5. للصبر ثلاث مراتب هي: الصّبر على البلاء، الصّبر على الطاعة والصّبر عن المعصية.



أسئلة الدرس

1. بيّن العلاقة التي تربط الصّبر بلقاء اللّه تعالى.
2. ما معنى الصّبر وما هي حقيقته؟
3. لماذا عدّ الصّبر واحداً من أهمّ الصّفات التي على القائد التحلّي بها ليصبح مؤهّلاً لهداية الناس وإدارة شؤونهم الدينيّة والدنيويّة؟
4. للصبر ثلاث مراتب أذكرها وتحدّث عن واحدة منها.



نتائج الصّبر[1]

اعلم أنّ للصّبر نتائج كثيرةً، التي منها ترويض النفس وتربيتها: إذا صبر الإنسان حينـاً من الوقت علـى المفاجـآت المزعجة ونوائب الدهـر، وعلى مشـاقّ العبادات والمناسـك وعلى مـرارة ترك الملـذّات النفسيّة امتثـالاً لأوامر وليّ النّعـم، وتَحَمّل الصعـاب مهما كانت شديدة ومؤلمة، تروّضت النفـس شيئاً فشيئاً، واعتادت وتخلّت عـن طغيانها، وتذلّلـت صعوبة تحمّل المشـاق عليها، وحصلت للنفـس ملكة راسخة نوريّة، بها يتجاوز الإنسان مقام الصّبر ليبلغ المقامات الأخرى الشامخة.

بـل إن الصّبر عن المعصية يبعث على تقوّي النفس، والصّبر على الطاعة يسبّب الاستيناس بالحق عزّ وجلّ، والصّبر على البلايا يوجب الرّضا بالقضاء الإلهي، وكلّ ذلـك من المقامات الشامخة لأهل الإيمان، بل لأهل العرفان. وقد ورد في الأحاديث الشريفـة عن أهل بيت العصمـة عليهم السلام ثناءٌ بليغٌ على الصّبـر. كما جاء في الكافي الشريف عن الإمام الصّادق عليه السلام، قال: «**الصّبـر مـن الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس، ذهب الجسد، وكذلك إذا ذهب الصّبر، ذهب الإيمان**».[2]

وفي حديث آخر عن الإمام السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «**الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له**»[3].

والأحاديـث كثيـرة فـي هذا البـاب. ونحـن سنأتي على ذكـر بعضها عنـد توفّر المناسبة. إن الصّبر مفتاح أبواب السعادات، وباعث للنجاة من المهالك، بل الصّبر يهـوّن المصائب، ويخفّف الصعـاب، ويقوّي العزم والإرادة، ويبعـث على استقلاليّة

(1) الإمام الخميني قدس سره، الأربعون حديثاً، الحديث السادس عشر، ص 308.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج، ص87.
(3) م. ن، ص89.

مملكـة الروح. وأمّا الفزع والجزع، فبالإضافة إلى أنه عيب، وكاشف عن الضعف في النفس، يجعل الإنسان مضطرباً، والإرادة ضعيفة، والعقل موهوناً.

يقـول المحقّـق الخبير الخواجة نصير الديـن الطوسي: «وهـو. أي الصَّبْرُ. يَمْنَعُ البَاطِـنَ عَـنِ الاضْطِـرَابِ، وَاللِّسَانَ عَـنِ الشِّكَايَـة، والأَعْضَـاءَ عَنِ الحَـرَكَات غَيْر المُعْتَادَة»[1]. وعلى العكس فإن الإنسان غير الصابر، قلبه مضطرب، وباطنه موحش ونفسـه قلقـة ومهـزوزة. وهذا بنفسـه بليّة فوق جميـع البلايا، ومصيبـة من أعظم المصائب التي تحلّ بالإنسان، وتسلب منه الراحة والقرار.

وأمّـا بالصّبر فتخفّ الرزيّة، ويتغلّب القلـب على النوائب والبلايا، وتنتصر إرادة الإنسـان علـى المصائب. ولـذا نجد الإنسان غيـر الصّابر، يشكو عنـد من هو أهل للشكايـة، ومن هـو ليس أهلاً للشكاية، وهذا الأمر فضلاً عن أنّه يؤدّي إلى الفضيحة لدى الناس، والاشتهار بالضعف بينهم وعدم الجلادة، فإنّه يسقطه من أعين الناس ويحـطّ مـن كرامته لدى ملائكة الله، وأمـام جلال القدس الربوبـي. إنّ العبد الذي لا يتحمّـل مصيبة واحدة نازلة عليه من الحق المتعالـي والحبيب المطلق والذي إذا واجه بليّة واحدة رفع صوته بالشكوى من وليّ نعمه أمام المخلوق، رغم نزول البركات عليه وتلقّيه آلاف آلاف النّعم، مثل هذا العبد أيّ إيمان له؟ وأي تسليم له أمام المقام القدسـيّ للحـق؟ فيصحّ أن يقال: من لا صبر له لا إيمان له. لو كنت مؤمناً بالحضرة الربوبية، ورأيت مجاري الأمور بيد قدرته الكاملة، دون أن يكون لأحد يد في الحوادث والأمور، لما اشتكيت من حوادث الأيّام والبليّات أمام غير الحق تعالى، بل لاستقبلتها بكلّ حفاوة وتكريم وشكرت نعم الحق سبحانه.

الإمام الخميني قدس سره

(1) خواجـه نصيـر الدين الطوسـي، أوصاف الأشـراف، ص 59، تصحيح السيـد مهدي شمس الديـن، طبع ونشر سازمان چاپ، 1369ش، الطبعة 1.



دروس في

التربيــة الأخـــلاقية



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

